

تاريخ
الأدب
العربي

١

دكتور شوقي ضيف

عصر

الدول والإمارات
الشام



دار المعارف

تاريخ
الأدب العربي
٦

عصر
الدول والإمارات
الشام

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمته

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بالشام في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، ورأيت أن أرجع بالحديث عن الشام إلى تاريخها منذ الفتح العربي، وبالمثل عن مجتمعاتها والحركة العلمية والأدبية فيها، وكنت ترجمت في الجزء الخاص بالعصر الإسلامي لشعرائها المبكرين: عدى بن الرقاع العاملي والطرمّاح الطائي والوليد بن يزيد، وترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الأول لشعرائها الأفاضل: منصور النمرى والعتّابي وأبي تمام، كما ترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني لشاعريها البارعين: البُحترى والصنوبري. ومنعاً للتكرار لم أر العودة إلى تراجمهم جميعاً في هذا الجزء وقصرته في تراجم الشعراء على حملة لواء الشعر بالشام بعد العصر العباسي الثاني. وقد بدأت الجزء ببيان مجمل لتاريخ الشام القديم، وتحدثت عن الفتح العربي لها وقيام الخلافة الأموية بدمشق، وكان سلطانها يُظلُّ العالم الإسلامي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي، ثم ما كان من تحوّل الشام زمن الخلافة العباسية إلى ولاية تابعة لبغداد، وتبعيتها للدولتين: الطولونية والإخشيدية حين تأسست بمصر، واستيلاء الدولة الفاطمية بالقاهرة على الشطر الأكبر منها، وتأسيس إمارة الحمدانيين في شاليها بحلب ثم إمارة بني مرداس، وما حدث من نزول حملة الصليب بها في أواخر القرن الخامس الهجري، وجهاد عماد الدين زنكي في القرن السادس وابنه نور الدين أمير حلب - لهم - جهادا عظيما، وضربات صلاح الدين الأيوبي لجموعهم وضربات قاصمة وسحقه لهم في حطين وغير حطين. وتدين الشام لخلفائه الأيوبيين، ثم تدين للمماليك، ويمزقون المغول في عين جالوت شرّ ممزق، ويطردونهم من الشام كما يطردون منها بقايا حملة الصليب نهائيا. ويدور الزمن دورات، فتنزلها - مع مصر - جحافل العثمانيين وتظل ولاية عثمانية إلى أن تُشرق عليها أضواء العصر الحديث.

وكان المجتمع الشامي - حين الفتح العربي - يضمُّ أخلاطا من أمم شتى آسيوية وأوربية، وأخذ الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكونا منها أمة شامية عربية واحدة. وصبت

فيها - زمن الدولة الأموية - كنوز العالم الإسلامي، مما أتاح لها في تلك الدولة رخاء غير قليل، وظلت - بعدها - تنعم بعيش رغد لما فيها من أنهار وعيون وزروع وفاكهة متنوعة ونقل من فستق وغير فستق. وكان أهلها يتقنون - من قديم - صناعات الخزف والأثاث والمعادن والزجاج الملون والنسيج. وظلت التجارة منتعشة بها إلى نهاية أيام المماليك، إذ كانت بوابة كبرى لتجارات آسيا وأوروبا. وعرفت - مثل شقيقاتها العربيات - كثيراً من فنون اللهو والغناء. وشاع التشيع في جوانب من ديارها وتعددت بها فرقة المتطرفة من إسماعيلية ونصيرية ودروز وفداوية، وشاع فيها الزهد والتصوف وطرقه وما يتصل به من الخانقاهات.

وكانت الحركة العلمية في الشام نشيطة، وألمت بما كان بها - قديماً - من تراث يوناني علمي وفلسفي، وتحدثت عن رعاية حكامها - منذ الفتح العربي - لحركتها العلمية، ثم ما كان من تأسيسهم للمدارس فيها منذ القرن الخامس الهجري وكثرتها كثرة مفرطة في القرون التالية. وألمت بحركة الترجمة في القرون الأولى للهجرة بها وكبار مترجميها وازدهار علوم الأوائل فيها من طب وفلسفة وفلك وهندسة ورياضيات وجغرافيا. وأوضحت ازدهار علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة مع عرض أعلامها جميعاً عرضاً تاريخياً دقيقاً، وبالمثل أوضحت ازدهار علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه ومذاهبه وعلم الكلام مع التتبع الدقيق لأعلام كل منها تاريخياً، وعرضت الكتابات التاريخية ومؤلفيها النابهين في السيرة وتاريخ المدن والتاريخ العام وتاريخ الدول وكتب التراجم، وبذلك كله اتضحت الحركة العلمية في الشام على مر الزمن، واتضح معها التاريخ الدقيق لجميع العلوم وأعلامها المجليين.

وتحدثت عن اللغات في الشام قبل الفتح العربي وكيف أنها كانت قد أخذت في التعرب قبله بقرون، وتم لها هذا التعرب سريعاً بحيث أصبحت العربية لسان سكانها جميعاً. ولم يكن لها في الشعر العربي نشاط يذكر قبل الإسلام، حتى إذا دخلت في الدين الحنيف وهاجرت إليها جموع من القبائل القيسية النجدية المشهورة بنظم الشعر أخذ الشعر يكثر في السنة أهلها من البدو والحضر، وأخذ يظهر فيها شعراء نابهون. وطوال أيام الأمويين كان شعراء الحجاز ونجد والعراق يقدون على دمشق لمديح الخلفاء، وتبع في البيت الأموي وبين خلفائه غير شاعر.

وتشارك الشام بقوة في ازدهار الشعر العربي في العصرين العباسيين: الأول والثاني.

ويتكاثر شعراء الشام في القرن الرابع الهجري وتوَجَّ بهم حلب في عهد سيف الدولة الحمداني، ويترجم الثعالبي في كتابه «اليتيمة» لكثيرين منهم، كما يترجم الباخري في كتابه «دُمِيَّةُ القصر» لطائفة من مشهورهم في القرن الخامس الهجري، ويترجم العماد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس لنحو مائة وثلاثين من شعراء الشام، وتحفل كتب التاريخ والتراجم - بعده - بالشعراء الشاميين في أزمنة الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وتشارك الشام - منذ القرن السادس - مشاركة خصبة في الأشكال الجديدة من الشعر الدوري فتكثر بها المسمطات والرباعيات والموشحات، ويشتهر فيها غيرُ وشاح. ومنذ أبي تمام يُكثر شعراؤها من البديعيات، ويدخل الشعراء عليها صوراً مختلفة من التعقيدات. وأخذتُ أحل شخصيات شعراء الشام في عصر الدول والإمارات منذ القرن الرابع الهجري، فللمديح أعلامه يتقدمهم ابن الخياط بملكته الشعرية الخصبة، وللفلسفة والحكمة أعلامها يتقدمهم أبو العلاء المعري مفخرة الشام الذي لا يماثله أديب سابق ولا لاحق في الأدب العربي شعراً ونثراً، وللتشيع أعلامه يتقدمهم كُشَاجِم بلوغاته وأَنَاتِه لفاجعة الحسين، وللغزل أعلامه يتقدمهم عبد المحسن الصوري الذي نُوِهَ به ابن خفاجة دُرَّة الأندلس طويلاً في ديوانه، وللنثر أعلامه يتقدمهم أبو فراس الحمداني بروميَّاته التي جسَّد فيها الفروسية العربية بكل ما لها من فتوة وصلابة عاتية. ويتوالى أعلام في شعر الطبيعة والزهد والتصوف والمدائح النبوية. ومع كل علم من الشعراء جميعاً ما يَتميز به من الخصائص وروائع الأشعار. وبلغ عدد من ترجمت لهم من أعلام الشعراء في الشام خمسة وثلاثين شاعراً فذاً. وذكرت بينهم في كل غرض من أغراض الشعر شاعراً مجيداً من الشعراء في أيام العثمانيين، ولم أترجم لعشرات من شعرائها ترجمت لهم كتب الطبقات لأنه لم يكن لأحدهم دور واضح في تطور الشعر بالشام، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها، وإنما أكتب تاريخ شعرها ومَن تطوروا به وتركوا فيه بصمات واضحة جعلت لهم حظاً كثيراً أو قليلاً من الشهرة والمجد الأدبي. وفسحتُ لدراسة الشعر الشعبي وترجمت لأهم أعلام الزجالين بالشام: أبي العلاء بن مقاتل مع عرض أروع أزجاله.

وترقى الرسائل الديوانية بالشام في عهد الدولة الأموية وتوضع رسومها وتقاليدها، حتى إذا انتهى عهدهم ولم يعد لديوان الإنشاء عمل بعدهم تراجعت هذه الرسائل وما طوى فيها من رقى إلى أن أخذت الدول منذ القرن السادس تتعاقب في الشام وأخذت تعنى بهذا

الديوان وتختار له كتاباً بلغاء، حينئذ ازدهرت كتابة الرسائل الديوانية في زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية. ومنذ العتّابى في أوائل القرن الثالث تنشط كتابة الرسائل الشخصية، وللبغّاء كاتب سيف الدولة فيها رسائل بديعة، وما يلبث أبو العلاء أن يهذى إلى قراء العربية رسائله الشخصية الفذة، وتكثر تلك الرسائل بعده - طوال العصر - شاكراً أو مهنئة أو معاتبة أو معزية، وهى - مثل الرسائل الديوانية تعتمد دائماً على السجع والمحسنات البديعية. ويكثر الكتاب من صنع المقامات غير أنها لا تعتمد على أديب متسول وحيله الكثيرة وما يطوى فيها من حركة درامية كما كان الشأن عند الحريرى في مقاماته، وإنما تعتمد غالباً على الوصف أو المناظرة بين أشخاص أو بين أزهار أو ثمار، وهى بذلك أشبه برسائل مطولة. وتتكاثر كتب المواعظ، ومن أروعها كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء، وجميعه تسبيحٌ وتحميد وتمجيد في الله العلى العظيم، ويجرى ابن غانم على لسان الطيور والأزهار حكماً بديعة.

ولأدباء الشام أعمال نثرية رائعة، في مقدمتها رسالة الغفران لأبى العلاء، وقسمها الأول يصور أهوال المحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار، وقد ألهم هذا القسم - بشهادة المستشرقين - دانتى الشاعر الإيطالى كتابه «الكوميديا الإلهية». ومن الأعمال النثرية القيمة رسالة النسر والبلبل لابن حسان الدمشقى وفيها يسأل النسر البلبل عن السر في جمال صوته وسحره، ويدور بينها حوار بديع. ومن تلك الأعمال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وهو أشبه بترجمة شخصية يصف فيها زيارته لمصر أيام الفاطميين وتنقلاته بين حملة الصليب لزمه، ومنها كتاب نسيم الصبا لابن حبيب في وصف الطبيعية والأخلاق الاجتماعية، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عَرَبْشاه، وفيه يتناول كثيراً من شئون الحياة والسياسة والتربية.

وواضح أننى عرضت في صحف هذا الجزء تاريخ الأدب العربى في الشام طوال عصر الدول والإمارات مع بيان تاريخها منذ الفتح العربى وبالمثل صورة مجتمعتها والنشاط الثقافى والعلمى بها مسترشداً بمصادر ومراجع كثيرة، ولا أزعم أننى صوّرت ذلك كله تصويراً تاماً، وإنما حاولت بقدر ما استطعت. والله ولى الهدى والتوفيق.

القاهرة في ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م

شوقى ضيف

الفصل الأول السياسة والمجتمع

١

فتح العرب للشام والحقب^(١) الأولى (١) فتح العرب للشام

تقع الشام في قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهي سهل ساحلى يمتد من خليج إسكندرونة في تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . وتجري فيها أنهار صغيرة أهمها العاصي المتجه إلى الشمال في سوريا ، والليطاني المتجه إلى الجنوب ، وبردى المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذى يصب في البحر الميت ، وفي أطراف الأردن الشمالية بحيرة طبرية . وبجنوب دمشق هضبة حوران . وفي شمالى الهضبة الشرق منطقة اللجأ وفي جنوبها الشرق جبل الدروز . وتنساب الشام شرق حوران والأردن في بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديم يُزرعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها في الشمال أشجار الثقل المختلفة وهى ذلك أهلها لكى يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هيا البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها في شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شمالها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها - وربما صحبتها - هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلى . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شغلت عن ممتلكاتها في الشام لعهد

(١) انظر في تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حنى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة بيروت) وراجع في فتوحها وتاريخها الإسلامى تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودى والنجوم الزاهرة لابن

تغرى بردى والمغرب (قسم القسطنطين) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لقلهوزن وتاريخ العرب - مطول لفيليب حنى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين) .

إخناثون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتقد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكوّن الفينيقيون لأنفسهم دولة في السهل الساحلى بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها في طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعباً بحرياً تجارياً ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكونوا لهم مستعمرات في إسبانيا ومراكز تجارية في كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس في اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الآشورى في القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم في القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت في الضعف حتى قضى عليها الآشوريون في القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم في القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق . م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق . م . وتولّت بعده شئونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان في القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الإمبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم في أطراف الشام : إمارة البسط في شرق الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بطراً في الجنوب بشارق الأردن وبُصرى في الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامى ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تدمر شمالى بادية الشام ، وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخاصة في عهد أميرها أذينة ، وقد نصبه الرومان ملكاً على سوريا جميعها وعادوا في عهد زوجته الزباء ، فقصوا عليها وعلى الإمارة في سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شقّت طريقها إلى منطقة حوران جنوبى دمشق ، وهى قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فرة تتخذ عاصمتها في الجولان ومرة في جلق أو الجابية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب في صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمراءها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حليمة بالقرب من قنشرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها نحر المنذر صريعاً . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق ببيزنطة .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها في دين الله الحنيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة في الشام ودولة الفرس في العراق بأنها قوة ينبغي أن يُدْرَأَ خطرهما . وهو ماجعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين في الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى في حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغي الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبي العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسير في سنة اثنتي عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم في الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء في شرق الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقي من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يلحق بجيشي الشام ، فلحق بهما وتولى قيادتهما ، وفتح بصرى شمالى البلقاء . ونازل الروم في أجنادين بفلسطين بين بلدتي الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم في اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك في الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المنتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام في نحو ستين .

وخرج عمر بن الخطاب في سنة ١٦ إلى الجابية - جنوبي دمشق على مسيرة يوم منها - وهى إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرا ضمّ ولاية الشام وقوادها لتنظيم الإدارة في ديارها ، وفتحت له القدس أبوابها ، وأمن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحرّيتهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُخلّى القدس من اليهود وأجابه ملتزمهم ^١ ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قنسرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرملة الحاليتين ، وفيه توفى أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبى سفيان وإلى دمشق ، وولاها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها في عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة ببذو الشام في

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفتون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبي طالب ، وعزله ، فإنه سرعان ما طالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صيفين بين معاوية وبين على بن أبي طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده - استجابة لمشورة عمرو بن العاص - أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى على وأقيم حكامان للفصل بين الطرفين : أما جند على العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعري ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « ياعمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمنَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأجد الحزَّ وطبَّق المَفْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل على عن الخلافة لوقف الحرب وحقن دماء المسلمين . وأعلن الحكم ، وانقسم جيش على : فرقة معه وفرقة سَمَّتْ أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم في التاريخ الإسلامى وحاربهم ونكَّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجي أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن على تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمرأؤه بالخلافة في بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية في الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفياني نسبة إلى أبي سفيان ، معاوية على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مرواني من البيت الأموي نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصير بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام في مقدمتهم عمرو بن العاص في مصر ، والمغيرة بن شعبة الذي ولاه الكوفة ، وزيايد بن أبيه الذي اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضى على معارضة على في شرقي الدولة وأن ينشر في ربوعه الأمن .

ووجه معاوية حملات مختلفة إلى بيزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة في زمنه وكان يستعين بأهل الشام في شئون الحكم وعيها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية في الشئون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده في خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده ، وفي عهده توغل عقبة بن نافع - ابن نخالة عمرو بن العاص - في البلاد المغربية ، وأسس في وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه في عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسي .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبى البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكي ، كما أباهما الحسين ابن علي واتجه إلى العراق ، فلقبته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد وإلى العراق قبيل دخوله الكوفة في «كربلاء» غربي الفرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر في التطور السريع للشيعة ، ولا يخلو ضريحه طوال العام من حُجَّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفي طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفي وخلفه حصين بن نمير السكوني ، فمضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعي يزيد بن معاوية ، ففك عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفي بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر إليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بدؤوها من القيسية مبايعته وهزمهم في موقعة مرج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائدا فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر في العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفي وإلى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير وإلى أخيه عبد الله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفي وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفي وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك في سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج في جيش كثيف ، وما زال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل في قتال القوم حتى خثر صريعا . وقد عُني ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة في المغرب .

ويُعدّ زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام مروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما في

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما في الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية في إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحهما هناك أقصى الشما . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة مم هيا لرخاء واسع في ديار الشام ، كما هيا للوليد نفسه أن يهتم في دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموي العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وخدمهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيّنت جدرانها وسقوفها بالرخام المطعم والفُسَيْفَساء التي كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتزاويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكّل بقواد الوليد العظام ، فقتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد ألغى سبباً على بن أبي طالب على المنابر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفف من ضرائب الجزية المفروضة على الآخرين في قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر ، وسوى بين العرب والموالى في الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم في حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذي لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس في الملاهي ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذي اتخذ مقره في الرصافة على الفرات ، وفي عهده ثار زيد بن علي بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ وقتل وصُلب ، واستغل ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومضى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفى هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد في أسرة عبد الملك من يصلح لها . وكان محاربا على الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرّان ، فانقضّ عنه بدو الشام ، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه ، بعضها في الشام وبعضها في

العراق حيث الخوارج والشيعة . ولم تكد هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط في أيديهم ودخلوا العراق واسترلوا على الكوفة ومضوا إلى شمالى العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة رايحه إلى الشام وتخلّى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها في بوضير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية في الكوفة وطورد الأمويون في كل مكان وأيّدوا بوحشية ، ونُبِشت قبور خلفائهم - عدا معاوية وعمر بن عبد العزيز - وأُذريت عظامهم ورفاتهم في الهواء ، ونجا من هذا البطش والنكال عبد الرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبد الملك ، إذ فرّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

(ج) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام - بسقوط الدولة الأموية - السيادة المطلقة في الإسلام وفقدتها العرب معهم تدريجاً . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا في الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم في الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيئ في نفوس أهل الشام ، مما هبّ بعد نحو عشرين عاماً لثورة القيسية في قنّسرين بزعامة أموى هو أبو محمد السفينى ، وسرعان ما قضى عليها العباسيون وفرّ السفينى إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر .

ونمضى إلى سنة ١٩٥ في عهد الخليفة الأمين فيظهر في دمشق سفيانى جديد هو على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته . أعوان الأمين واختفى بالميزة بالقرب من دمشق وأقام بها أياماً ومات . وفي سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المبرقع أبو حرب اليماني وزعم أنه السفينى المنتظر ودعا أولاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن قويت شوكته فادّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحي القرى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم في ألف فارس وأسره وحبسه ومات في حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبد الله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد في موقعة الزاب حتى إذا فرّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلاً في مذبح مشهورة ببلدة الرملة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده

أبوجعفر المنصور ، خرج عليه عبدالله ودعا لنفسه فهزمه أبو مسلم الخراساني ، وحبسه المنصور ومات في حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا واليا لهم في بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سببا في أن لا يُعنى الولاة بالهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سببا في أن يحاولوا الإثراء سريعا قبل أن يُعزلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم في كثير من الأحيان إلى الزيادة في الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث في حلب سنة ١٦٢ وفي حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمينية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتي ، فقد اندلعت بينهما نار العصبية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جزل طوال العقد الثامن من القرن الثاني ، واغتنمت السوق بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منهما . وأخيرا أرسل اليهما هرون الرشيد وزيره جعفر البرمكي ، فأطفأ نار العصبية المحتدمة بين الطرفين بتجريدتهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفي سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقي دمشق فتشور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفسا ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الواثق خلفا له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفا وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحيانا ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . ومما يذكر لهم أنهم أقاموا في حدوده الشمالية كثيرا من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم مائتة ذاهبة إلى شام آبية منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدي والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقله وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى في أثناءها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفي سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دقا وأوطئوهم ذلا وصغارا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عمورية أمنع بلادهم في آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغري وابنه يوسف يكيلون لهم ضربات ساحقة . ويظل غزو البيزنطيين صيفا في أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور في شام الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمني والفارس المغوار عمر

ابن عبد الله الأقطع ، ويتم فتح صقلية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام في آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبته ، وبني له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامراء عاصمته في العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعاً . وربما كان من أهم ما خلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التي دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

(د) الطولونيون - القرامطة

١- الطولونيون^(١)

كان أحمد بن طولون تركي الأصل خدم العباسيين وولى مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققاً لها نوعاً من الاستقلال الذاتي ، وكان قد ولى إمرة الثغور وجاهد في سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعنى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكاً لا يزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها في سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائباً عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولاً بثورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهر ابن طولون الفرصة بعد موت والي دمشق سنة ٢٦٤ وأتاب عنه بها مولاه لؤلؤاً ولم يلبث في سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقوداً باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشاً يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهزم الموفق بتبليته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالمحجور عليه يرغبه في الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كي يكون في استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذكر فيها ولها

الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠.

(١) راجع في هذه الدولة كتب التاريخ السالفة في أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوي ودائرة المعارف

للعهد ، ولم يردّ على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام . ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشاً لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعاً .

وكان عهد ابن طولون في الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له في دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شيء من المال ما يعوّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففرّق في فقراء دمشق والغوطة . وتوفي سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خمارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فبنى خمارويه بالهزيمة ، وتتابعت هزيمته في سنتي ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه في الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق في الصلح فأجابته ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسرّ خمارويه سروراً عظيماً ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق في خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيراً ، مما كان يعود على أهلها بروج واسع في التجارة . وبدمشق قتله خادم له في قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية في الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد - ونفرت الناس - منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشهر ، وكان لا يزال صبياً ضعيفاً ، فأخذت الدولة في التضعُّع ، وعاث القرامطة فساداً في الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكنى وأغااثهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أي مسوغ للإبقاء على الأمير الطولوني المستضعف ، وخلفه عمه شيبان وكان لا يقل عنه ضعفاً ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

٢ - القرامطة (١)

كان أول ظهور القرامطة في العراق سنة ٢٧٧ ، وهي حركة سياسية دينية خطيرة تحدثنا عنها بالتفصيل في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأوضحنا كيف بدأت بإيحاء من عبد الله بن ميمون

ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان
ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسي الثاني ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبري ،
وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادي ،
ودراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري

القدّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه في « سَلَمِيّة » بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعائه إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازي ، وقد التقى في لسواد بنبطي يلقب بقرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه ، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا في الأموال . وانضم إلى قرمط قليل من الطبقة الكادحة لا في السواد والريف فقط بل أيضا في المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابي الفارسي الذي نشر الدعوة في البحرين والأحساء . ويخلفه في سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطي وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو في جنوبي العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب في بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بني العليّص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . وآية له ثانية هي ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها في لقاء عدو كُتب لهم النصر المبين . وساق جموعه في الشام يعيشون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة في وجهه المثلث وقال إنها آيته ، ولذلك لُقّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخطب على منابرها بأنه المهدي المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مربنا ، وكانت تعاني ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفي ، ولبي استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة في المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرّ كثيرون منهم إلى البوادي . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لايزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ في جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طبرية فانتصر على أهلها ودخلها وفتك بكثير من رجالها ونساءها وعاد إلى البادية . وفي نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصْرى وأذرعَات ، وتعقّبه جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهي حركة

زكرويه وأولاده ودعائه في الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سليمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولاية مختلفين .

(هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)

١ - الإخشيديون^(١)

الإخشيد هو محمد بن طُفَّج ولى مصر فأسس بها الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدث محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، ويلتقى به الإخشيد في الفرما ، ويتم بينهما الصلح . وسرعان ما ينقضه ابن رائق ويتهب الإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية في العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبها في فلسطين ، أما شمالها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث في سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتهاز الفرصة للإخشيد وجهاز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى القسطنطين في السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ما توفي بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفي أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكريا ضخما ولقيه في مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة ما بيده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . وينزل المتنبى مصر في أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبى لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفي سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد في أثناء ذلك ما بين على

خلكان وخطط المقرئى ٦١٧/١ ومصر في عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف.

(١) انظر في الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة في أول الفصل وخاصة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، وانظر ترجمة الإخشيد وكافور في ابن

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفي سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة في مصر والشام بعده كافور الحبشي باتفاق من أعيان مصر وجندھا . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورقاه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعاً مقداماً . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد، وكان صبياً، واضطربت أحوال الشام في عهده اضطراباً شديداً بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب. وسرعان ما سقطت مصر في يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين.

٢ - الحمدانيون^(١) (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هي الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين في الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكراً اسم أبي الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذاً حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مربنا - غير أن المصريين ردوه على أعقابهم فاكتفى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظمى طالما هيا نفسه لها منذ شبابه ، وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم في سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلاحق بهم وأذاقهم نكالا شديداً ، وردّ منهم كل ما سلبوه من أهل الشام . ويُكتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة المتنبي الذي نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقاً ذريعاً .

سامى الدهان) وراجع اليتيمة للثعالبي ١٥/١ وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع في الحمدانيين وسيف الدولة

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم (طبع المعهد الفرنسي بدمشق - تحقيق الدكتور محمد

ومضى البطل الحمداني يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُّ عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر ، وشاعره المتنبي من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها في شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مَرَّعَش في سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبق ولا تذر في سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه في دخوله حلب مظفراً منصوراً . وفي سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشوداً هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لایلوى ، وأسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل ما فيه . وسيف الدولة في أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعريبي حصن الحدث شمالي مرعش والمسلمون يكبرون ويهتلون . وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان مايني يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمالي الموصل وكثيراً ما نازلهم هناك وفي شمالي الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهر الجوبين المتنبي وبين البطل العربي . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربي فقد واقع الروم في السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنزل بهم / ماتعود من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة ٣٥٢ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفى نهض البطل من فراشه وصدَّ بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفي سنة ٣٥٦ لبَّى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في لحده على كَبَنَةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بشيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونُقِّدت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابي المعلم الثاني . ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبي ، وعقد لهم الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » فصولاً طويلة في الجزء الأول منه ، وفيه وفي أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أَوْجُهُم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسباحة ، وعقولهم للرَّجاجة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلاذتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وبقلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحبلة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبو فراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرَّ أبو فراس في ميدان الحرب صريعاً . وفي نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قرَّعويه الحاجب وأسر وأفلت منهم وهزم أصحابه وخرَّب نقفور كثيراً من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب في أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطلح مع سعد الدولة الذي ظل أميرًا لحلب حتى توفي سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفي سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما لؤلؤ مولى جدهما واستولى على الأمور إلى أن توفي وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آباءه ولم يلبث أن فرّ إلى بلاد الروم في مطلع القرن الخامس الهجري ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمال الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا في عهد سيف الدولة المجيد

٢

الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكى (نور الدين)

(١) الفاطميون^(١)

دولة شيعية إسماعيلية تأسست في تونس وتحوّلت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر لها سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمي في المحرم سنة ٣٥٩ ، وفي السنة التالية أعلن المؤذنون في الشام - بأمره - « حى على خير العمل » شارة الأذان الشيعي . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم في البحرين الحسين بن أحمد - كما مر بنا في الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات - أن قطع علاقته بالفاطميين في مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة البويهى أن يولييه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمدّه عز الدولة بالسلاح والمال في سنة ٣٦٠ وقيل بل في سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمي وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت - بالقرب منها - بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

الوزارة لابن الصيرفي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي
(طبع ليدن) في السنوات ٣٦٣-٥٥٥ واتعاط الحنفا بأخبار
الخلفاء للمقرئى وكتابه الخطط ٢١/٢ والفاطميون في مصر
للدكتور حسن إبراهيم حسن.

(١) انظر في الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة: ابن
الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى وابن خلكان في
تراجم الخلفاء وجوهر الصقل والمغرب لابن سعيد (قسم
القاهرة) وتاريخ مصر لابن ميسر والإشارة إلى من نال

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث في الشام لعهد الفاطميين وانتشرت في أثنائه وبعده الفوضى في دمشق واشتعلت النار في كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالي أن يثرى بسرعة على حساب أهلها وما يفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين والياً ، وكثيراً ما كان يتولاها اثنان أو أكثر في العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيارين بها كثورة قسّام الحارثي سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمي . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه في قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة في الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران في سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلي بلبنان ، ولا تزال في المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال في أعالي الشام على نهر العاصي وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هي التي دفعت الحاكم ودعائه إلى ربوبيته إذ كانت تردّد - كما مر بنا في قسم مصر - أن الخلفاء تجسّد للذات العلية . وكان طبيعياً في عهد هذا الخليفة الشاذ المحبول أن تضطرب شئون الحكم في الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدا الجزيرة العربية الشماليين من طيى ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المفرج بن دغفل لا يكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويقدم عليه أبا الفتوح ، غير أن الحاكم يغرى ابن المفرج بالأموال فينفض يده من أبى الفتوح ويعود إلى إمارته .

(ب) بنو (١) مرداس

كانت حلب قد دخلت في حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولانمضى طويلاً في سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابي ويضع في سنة ٤٢٠ يده في يد حسان بن المفرج الطائي ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال في الشام وينتهيان إلى غزة ، ويلتقى بهما جيش فاطمي ،

(١) انظر في بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب

من تاريخ حلب : الجزءين : الأول والثاني .

فينهزم حسان ويقتل في المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية في حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وفتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفي نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفي سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطالحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألب أرسلان السجلقوي ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفي أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو ما مر بنا في حديثنا عن السياسة بالعراق في الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميراً لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التي أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء في إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

(ج) السلاجقة^(١)

مر بنا في حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دقة الحكم في خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهابا قويا لزوال الحكم البيزنطي من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبيعيا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه في الاستيلاء على الشام ، وسرعان ما ظهر في سنة ٤٦٣ أئسز بن أوق الخوارزمي في فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تئش بن ألب أرسلان من أئسز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح في سنة ٤٧٤ أنططوس على ساحل البحر المتوسط ، وهي أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

وفيمن وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان

(١) راجع في سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل

تاريخ دمشق لابن القلانسي وانظر في أئسز تاريخ دمشق

لابن عساكر ٣٣١/٢ وفي تئش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبي صور تابعا لمصر . واستقبل جلال الملك بن عمار قاضي طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقره عليها ملكشاه السلجوقي وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفي هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شيزر شمالي الشام سنة ٤٧٤ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتلمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخَرَّ صريعا في الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتِل بالرى في حرب مع ابن أخيه بَرَكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفي دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتابكه « طُغْتِكِنْ » وأسس بها دولة البوريين وله في جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا في الرعية توفي سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بوري حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسَلَطُوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تبتقض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظلما سيئ السيرة محبا لسفك الدماء توفي سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذي ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحدا أخوه محمد ، وتوفي فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظلما ، وكان يضع يده في يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعى إلا ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقل به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفي سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكْمَان وإيلغازى ، ومنهما أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا - كما يقول ابن خلكان - ديار بكر .

(د) الصليبيون^(١)

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت في التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة في عهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ)، وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور، فعمل على

واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

(١) انظر في الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن

تقرى بردى وابن خلدون وما كتب عنهم حديثا في العربية

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه إلا ساحلها الجنوبي . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ما ضعف دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين في دمشق والدولة الأرمنية في بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وما وراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الوباء الصليبي الجارف .

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرها في سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال النصيرية محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفرى رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريموند دي تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثاني الذي استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدي الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل زنكى (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب

من للتظم والمختصر في أخبار البشر لآبى القدا والكواكب
الدرية في السيرة النورية لابن قاضى شهاب (طبع بيروت)
وابن خلكان ٢/٣٢٧ ، ٥/١٨٤ .

(١) انظر في آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر في الدولة
الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس
لابن خلدون والجزء السادس من التاجم الزاهرة والعاشر

إلى أن الداء إنما يكمن في تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيئا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمال الشام مثل حماة وحمص وبلبك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محاربا هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في بلب الدولة السلجوقية . ولم تكدم تصي سستان على ماحقق من هذا المجد البطولي حتى امتدت إلى جثمائه الطاهر أيد آئمة في الظلام سفكت دمه الزكي .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكي لابنه غازي بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم تواتا سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل في إمارته أذان الدولة الفاطمية بحى على خير العمل . وفي سنة ٥٤٤ هزم حملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفا وخمسمائة وفتح حصن فامية ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفي سنة ٥٥٢ ملك حصن شيرز بعد أن نقضه زلزال شديد . وفي سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقي للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحسن أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واثته فرصة عظيمة فإن وزيرها ضرغام وشارب تحاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأجده بأمرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ومحدثهما بما في نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقي ومنشئها إنما هو نور الدين . وكان ما بيني ينازل حملة الصليب ، وفتح حصون «مرعش وإعزاز وحارم» وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا . وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعا ، بنى كثيرا من المدارس في بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبیمارستان دمشق وبها توفي سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقي على حلب حتى توفي سنة ٥٧٧ ودخلت في حوزة صلاح الدين وحكمه .

الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون

(١) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة في مصر بيد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية، وسار في نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوبك ورفع الحصار عنها، وعاد إليها في السنة التالية ثم تركها إلى مصر. وتوفي نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا في جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما. وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعة وكفرطاب، ويولّى على حماة أخاه تقي الدين وعلى بعلبك ابن أخيه قرخشاہ ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصليبيين في السنوات : ٥٧٣ و ٥٧٤ و ٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما. ويستولى على الموصل، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين. ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ في جيش جرار لجهاد حملة الصليب، وهي آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر. وفي سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعة ومنبج لابن أخيه تقي الدين عمر، وسيتوالى هذا التوزيع. وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لا تتسع لسلطان حاكمين، ولذلك لم تكد تمضى سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته. ويغفر له ذلك بلاؤه العظيم في حرب حملة الصليب المعتدين. ويقود صلاح الدين في سنة ٥٨٣ جحافل جرّارة ويتجه بها نحو طبرية، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاي لوزيجنان ملك بيت المقدس وتلتقى سرّية له في حيفا بجماعة من الداوية والإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية، ويلتقى الجمعان في سهل حطّين إلى الغرب من بحيرة طبرية، وتُدقُّ أعناق حملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريمون.

صلاح الدين لابن شداد، وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية. وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين في العربية حديثا وفي اللغات الأجنبية.

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط المقرئ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبي شامة والفيح القسى في الفتح القدسي والبرق الشامي للعباد الأصبهاني وسيرة

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكرك وكان قد أعد أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقيين . وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال أبو شامة : « من شاهد القتلى قال : ما هناك أسير ، ومن شاهد الأسرى قال : ما هناك قتيل » ومما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير .

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيدا والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصفد والكرك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس في يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليب فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت في أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل حملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفي صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار في كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطّ عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملاها بالمدارس والخانقاهات والبيمارستانات وكانت سماحته ونبله في معاملة حملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيثا مدرارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزیز وحلب للظاهر ، والديار القراتية لأخيه العادل وبعليك لبرام شاه وحمص لشيركوه الثاني . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يحرض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلصت له البلاد من مصر إلى القرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولي . وصنع صنع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان للعظيم والجزيرة القراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحـد والفائز والأشرف موسى . وبلغ حملة الصليب مصر في سنتي ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ما صورنا ذلك في قسم مصر . ونغضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثاني ملك صقلية يأتي على رأس حملة إلى فلسطين

وتصلا داف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفردريك عن القدس في مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلم منه دمشق وأعطاهما الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فردريك القدس قامت قيادة الناس فلم يقيم بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفي الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفي على أثره في نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يُرض ذلك الملك الصالح فنحى أخاه في سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتهز عمه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى في نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامي ، وهزم الملك الصالح الحليفين في غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق في حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفة لشدة مرضه ، واتجه تَوًّا للقاء العدو بالمتصورة شمالا الدلتا في الطريق إلى دمياط ، وهناك لَبَّى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس - كما مربنا في قسم مصر - وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسُوِّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب في الساحل الشامي لعله يسترد كرامته التي أهدرت بمصر وبقى بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شيء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورا . أما توران شاه فجراه ممالك أيه جزاء سنهار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقيت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيك مملوك أيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين .

(ب) الممالك^(١)

تأسست في مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة الممالك ، وعدّهم الحكام الأيوبيون في الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيبك التركماني في غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسي بينهما لسنة ٦٥١ على أن يكون للمالك نهر الأردن و نابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعها إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاكو سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاكو أن اندفع بسيول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخربها وأحاطها أنقاضا ، ودخل هولاكو في السنة التالية ديار بكر ومكّ حُرّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالي دمشق ، وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا في ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرّ الناصر يوسف وأسرته التتار ، وبقي معهم في ذلّ وهوان مابعده هوان .

ومضى التتار يتقدمون في ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطليين العظميين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحرقوا بهم ونازلوهم حتى أفنؤهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية في قبضة الممالك ماعدا حماة فإن أميرها الأيوبي الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده في يد قطز وبيبرس في حربها للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاها قلاوون ابنه تقي الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبي الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للممالك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب في ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسغاوى وآخرة الممالك لابن زنبيل وبروكلمان ص ٣٦٥ .

(١) انظر في الممالك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقرئ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبيدات والنهاية وبدائع الزهور لابن إياس

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإِسْبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفي العام التالي استولى على صَافِد وتَبْنين والرملة في فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشَّقِيف وطَبْرِيَّة وبَغْراس والقُصَيْر وحصن الأكراد والقرين من حصون صَافِد وكان به حامية من الفرسان التوتون . وأعظم أجماده الحربية ضد حملة الصليب أَخْذُه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثني عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محا هذه الولاية التي أقامها حملة الصليب في أول دخولهم للشام . وبدأ في الأفق من حينئذ أن يخرج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون في سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث أن استولى على طرابلس في سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ما سلمت بيروت وجبله . حتى إذا تولَّى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعها صور وصيداء وحيفا وأنطَرطوس ، وخرج من بقي من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هي : دمشق وحلب وحماة في سوريا وطرابلس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرقي الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكي في الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالي للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثر من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم (قُيُوت) وتبين له كما ذكر في كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين (٦٩٦-٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) رقا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرمهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُفي عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل ما لسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان في القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك في كُتَّاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية في دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وعم ذلك في دمشق والمدن الكبرى بمملكته في مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التتار يثنون من عار الهزيمة الفاضحة في عين جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا ا بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكسرتهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كسرتهم حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على البيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحريك بيبرس فولوا مدبرين . وفي ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنبج ، وسرعان ما انهزموا ، وعادوا الهجوم على عينتاب وح سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعادون المناوشة وهاج البيرة في سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وذ الشعراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم في سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاد هذه الغارات والمناوشات في عهد قلاوون ويبيءون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلخ خليل على قلعة الروم غربي الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شئون التتار غازان وكان قد دخل في الإس مع جنوده . ومع ذلك أعد في سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من م الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهاز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمن سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون في غزو الشام وإن هم فكروا ارتا إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيا الشام ، ويلقاه جيش المماليك ، فيه ويقتحم حلب ويعمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتا على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورج وأطفالا : كارثة لم يصب دمشق مثيل لها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رج الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت في الشام لعهد المماليك ، غير أن أكثرها إن تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم في الشام . ومن هذا الصر ماحدث من تحول الملك من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية الجراكسة على يد برقوق ٧٨٤ . وقد عانت الشام - كما عانت مصر - من النزاع المستمر بين أمراء المماليك ، حتى كا يقتلون كل مع أنصاره في شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك في القرن الأخير من حة

المماليك ، وأخذت دولتهم في الضعف تدريجاً حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في معاركها مع السلطان سليم العثماني على أبواب الشام في مرج دابق .

(ج) العثمانيون^(١)

قضى سليم الأول العثماني على دولة المماليك في الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغوري في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة . وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالّت أصواتهم له بالدعاء ، وخطبوا له على منابرها . وفتحت له مدن الشام أبوابها ، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بني مَعْن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سليماً ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة في لبنان . ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام . وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق ، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية في تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضراراً شديداً بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام . وكانت حروب الصليبيين والتتار التي حوّلت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل . وكأنما توسّم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضي ، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين ، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام . وكان قد قرّر إلى سليم من المماليك مملوك خائن هو الغزالي الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين . وبمجرد أن توفي سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالي استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخرّ صريعاً عند أبواب دمشق . ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا : أولاها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية ، وثانيها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هي : حمص وحماة وسلمية وجبله ، وثالثتها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة . وفي سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ما عدا نيابة طرابلس في لبنان .

لساطع المصري ، ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ١٤٤٨ وتاريخ العرب (مطول) لفيليبه حق .

(١) انظر في العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس ، وآخره المماليك لابن زنبيل وتاريخ الجيوق والخطط التوفيقية لعل مبارك والبلاد العربية والدولة العثمانية

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانة والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. وُمنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شُبان أورييون من أجناس مختلفة كانوا يُربَّونَ تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة ما يستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقَلما كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومن وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المماليك ، وكان أكثرهم من الدروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانيين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حرفوش بعلبك وآل فريح فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالي إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثماني واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يولَّون ويعزلون من الولاة ، حتى ليولَّى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدروز (٩٩٠-١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدروز . وتنهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . ونمضى إلى سنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م فيسقط ضاهر العمر صاحب صفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالي بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ومحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م . ويليها بعده أحمد الجزار ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ويحصن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثماني ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

المجتمع^(١)

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطاً من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفي قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوريين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس في الشام ربما هو الذى هبها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعاً يضم هذا الشتات الجنسى في وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه في وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عوناً في الحكم وإدارة دفة الأمور في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى في رخاء لم يبلغه هذا الاقليم في أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف الثقل من فستق وغير فستق إلى ما تنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضاً عني أهلها بالصناعات : صناعات الخنزف الملون والخشب المحفور أثاثاً وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفاً وغير سيوف والزجاج الملون والقاشاني ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضاً على المهارة في التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوروبا من قديم ، وظلت تجارتها تكون مصدراً أساسياً لثروتها في عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعنى

في الشام لمحمد كرد على في الجزء الأول من محاضرات المجتمع العلمى العربى بدمشق .

(١) انظر في مجتمع الشام كتب التاريخ العام وفتوح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصولى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والجباية

الأزمة إلى نهاية زمن الممالك الباب الكبير لمرور توابل الهند وعروض آسيا إلى الغرب . ومهرأ في التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لبنان ج الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطا وتحف الشام في الشرق بوادي الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد في تكوين س فأكثرتهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ما هو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريحها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى يمكن أن يقال إنه قد أخذ في التعرب قبل الإسلام . بدو الجزيرة طوال الأزمة الإسلامية يكوّنون شطرا مهما في سكان الشام ، وكان الشطر الثا وهو الأكبر ، متحضرا ويقيم في المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الإسلام إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمد على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقربون زعماء البدو ، ولكي يد عن الشام شرم كانوا أحيانا يقطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إ الفاطميين للمفرج بن دغفل مدينة الرملة .

على كل حال كان اعتماد الشام في حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على الحضر وما يؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالى أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم الجيش العربى . وهى بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما الأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرفقوا بالرعي تودى من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده - كما يقول الصولى - خمسمائة دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أر وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب أصفياته إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع تمليك ، وتارة يكون إقطاع استم وكان عثمان بن عفان أول من سن هذه السنة في الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة في هر

والأنصار وعلى زعماء القبائل في الجزيرة العربية والعراق ، وعُنى عناية واسعة بأهله ونفقته . وبنى لنفسه داراً كبيرة في دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى في مكة ، وسنَّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويُروى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النيروز وعيد المهرجان ، ولا بد أن كانت تقدم له الهدايا في أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشؤون الما للدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضا لابد أن كانت تقدم ل الهدايا في الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبد الملك إلى تشييد الجامع الأموى بصورة هندسية بالغة الفخامة في زخرفته وتصويره ، وقد استقدم - كما مرَّ بنا - لصنع الفُسَيْفَسَاء في جُدره وفصوصه اثني عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم في تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مُثلت فيه أشجار وقرعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام ستين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتي ألف ، وفي رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليوناً من الدنانير ومائتي ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعهِ ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذي خلفه هو الذي صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبد العزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمنع السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتفى في المعادن بالصدقة ولا يؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرفع الجزية عمن أسلموا من الموالى بحيث يسوى بينهم وبين المسلمين في الخراج والعشور . ويتوفى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولا بد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل في أيامهم ، ويشهد بذلك ما شادوه في دمشق والبوادي من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامي في دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهي طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذي يؤسر في الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامي متصلة طوال الحقب التالية ، مع ما حدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرق على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم مائى تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجارى .

وكان العباسيون فى القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويروى أن بعض ولاية الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدد فى استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهى جنات وعيون وجعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته فى مصر أخذت تنتعش وخاصة فى عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجرى على الناس فى رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخا . وعنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة^(١) .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقبا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمته فى أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاية الفاطميين وعمل كل منهم على جمع كل ما يستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامى إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الإرهاق غايته فى ولاية المعلى بن حيدرة الكتامى لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم فى الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حينئذ فى الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب بيئاته ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح فى جمع الضرائب دون أن تُستخدَم فى مصالح الرعية كما صوّر ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لا تحوط رعيّة فعلام تُوخّدُ جزيّة ومكوسُ

وما نصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحسر الحكم الفاطمى إلى

والثغور وإنما كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة .

ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حينئذ على العواصم

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتي جحافل الصليبيين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغْتِكِين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التي وزعها عثمان في الأمصار كانت بطبرية فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم مآقام به بناء مارستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولا يقر لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية للجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طغتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكي واستولى على شام الشام ، وكان قد أصبح خرابا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشرفه العدل وفتح الرها وامتلات كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكي ابنه نور الدين محمود، وحين خضعت له دمشق وحماة وبلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ما كان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق وما يباع فيها من الفواكه والبقول والخلوى والغنم والحب واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس في أموال عظيمة . ووزع في عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سمن كيسه ، وأهزل الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعم الرخاء في عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ماصبا في حجور الناس من القناطير المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته في حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ما خص دمشق من ذلك لعهد بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس في بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة في بعلبك ودمشق حين أظلمها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التي كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينها نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين يتزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل يتزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشتريين سلعا جديدة . وكان الحرب شيء والتجارة شيء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » صورة لافتة من تواصل الحياة بين العرب المدينين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه في رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتنين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفشتين مشغولون بحربهم ، والناس من ورائهم - كما يقول ابن جبير - فى عافية : يتعاشون ويتبادلون السلع وعروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض فى سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل فى البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان فى المجتمع الشامى طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعياً والشام دائما حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالة والتنافس فى إحسان الرماية . وكان أهلها يحارثون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تموج بالأقمشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذى استقبل ابن مسجع مغنى مكة وغناه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة واستقبل أيضا بديحا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سريج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جارييتين من جوارى المدينة المغنيات ، وهما حبابة وسلامة القس ، ووصفه أبو حمزة الخارجى ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحلة قومت بألف دينار .. حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره . ونشأ ابنه الوليد فى هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته فى كتاب الأغاني ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهو وطربه ، وكاد أن لا يترك مغنيا مشهورا فى المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له فى قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبو الفرج فى ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشى بالدُّف على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب فى أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام فى دمشق وغير دمشق . إذ يوجد فى كل زمن منحرفون ينغمسون فى اللهو والخمر وشرب الدنان ، وكان يهين لهم ذلك فى الشام كثرة ما يزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون فى الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفى قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والزرجس والأقحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر فى تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابن حجة الحموى فى كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجري كانوا قاصدين مصر . فتزلوا بدمشق في طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا في منزله ليلة ماجنة أحضر لهم فيها نبيذاً على عشاءهم ، فشربوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوادة وطنبورية وزامرة وصنّاجة ورقاصة ودقّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحليّ وسألهم في الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرّج أو الجلوس في المنزل واللعب بالشطرنج والنرد أو القراءة في الكتب . والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون هلو .

ولا ريب في أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترقّات . ويبدو أنهم كن من عوامل شيوع البغاء ، إذ نقرأ في تراجم نور الدين وصلاح الدين والعاقل أنهم طهّروا البلاد من الفواحش والخمر والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى في الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقياً توفي سنة ٦٣٢ هـ هو عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون يروى عنه أنه كان بيته نيف وعشرون جارية فما بالنّا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة . ولم يقف المنحرفون بالمجتمع في هلوهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيش ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعاً وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونها . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجّان كانوا يعودون إلى تعاطيها ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهراً طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليها تنكز نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقي محمد بن علي وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملامى .

وظلت الشام تعيش في رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجري إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة في دمشق القوضى بسبب ماكان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث في السنوات ٧٥٣ و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل في انتصار تيمور لنك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها - كما مرّ بنا - نهبا وسفكا للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لا يمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبي جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد في جبال وأشعلوا النار في المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة ، وسقطت

سقف الجامع الأموي وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهي طامة كبرى ظلت دمشق تعاني منها طويلا . وزاد تيمور لنك الطين بلة بتجريد دمشق - كما مربنا من صفوة صناعتها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة في آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واشتغدت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولا بد أنها ظلت تعاني من خسائر الحريق وأنقاض عمارتها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك في بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمن الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسايتهم شادوا في دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادي . وظلت هذه العناية بتشيد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومربنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرا ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانات والمؤسسات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمؤسسات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع في نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام - كما رزحت مصر - تحت حكم العثمانيين ، ويظلون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام في تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالي نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مربنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سييء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغير السريع لحكامهم في البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما في ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهيا ذلك لمظالم لاتطاق في المدن بين الصناع والتجار وفي القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو يتزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعسة المنتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد في انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم غرضها وتوابعها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام في أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التي أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاسا وفسادا وظل ذلك سائدا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .



التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدروز - الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الخشاشين .

(١) الإسماعيلية والإمامية

مرَّبنا - في كتاب العصر العباسي الثاني - أن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ سَلْمِيَّة قرب حِجَاة بالشام حوالي منتصف القرن الثالث الهجري مركزا للدعوة الإسماعيلية التي كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل لا في ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثني عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل في أئمة مستورين ، إلى أن فرَّ المهدي بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجري . ونشط دعائهم في الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التي تقصر إمامة المسلمين على أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسرارهِ ، ولذلك سموا باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون في أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلي وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التي يتوالى في الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يختمون بالإمام أبي القاسم محمد الذي اختفى وهو في الثامنة من

عمره حوالي سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لا يزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعت لهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملا الدنيا حقا وعدلا ، ويسمون في أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدي المنتظر الذي ينقذ العالم من مفاسده وشروبه . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعاني الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لا يستهويهم أى ضرب من ضروب المعاصي والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر في القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقيها من الشام سببا في أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبئون في حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالية الإمامية ومنهم أمراء حلفوش . ونقف لتحدث عن فرق شيعية غالية هي فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية التزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

(ب) النصيرية^(١)

فرقة شيعية غالية غلوا مفرطاً ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن في قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النميري زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادي عشر حسن العسكري وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلاً بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسي ألوهية علي بن أبي طالب وأنه خالده في طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكته العالی ، ولا يلعنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلّص اللاهوت أو الجزء الإلهي من الناسوت أو الجسم المادی ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهي ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسي إنما كان رسولا لعلی بن أبي طالب ، ويحلفون بعلی قائلين : وحق علی العلیّ الأعلى ، كما يحلفون بالنور

ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشریعة في الإسلام لجولدسهر ص ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ النصيرية وديانتهم لدوسو طبع باريس .

(١) انظر في النصيرية فرق الشيعة للنونجي والملل والنحل للشهرستاني وصبح الأعشى ٣٥/١٣ ، ٢٤٩ والتعريف لابن فضل الله العمري ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعنصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الرباني ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعلي : « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع . ويقول النوبختي في فرق الشيعة وابن فضل الله في التعريف إنهم يحلون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستاني إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق يديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمي فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعائهم لنحلهم الغالية المفرطة في الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا في اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب في سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولايته في الشام أن يأخذوا على أيديهم ، ويأمرهم أن يعمروا في كل قرية من قراهم مسجدا وأن يحوا منها الخمر وكل ما يتصل بالآثام ، وصدعت قراهم لأمره .

(ج) الدرود^(١)

الدرود فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسد الإلهي حل في الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلي أعجمي من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزي ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصنّف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبي ﷺ انتقلت إلى علي بن أبي طالب وتناسخت في الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد في الناسوت . وعلمت الرعية في مصر بما يوسوس له الدرزي فصممت على قتله ، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل في قبيلة تنوخ بوادي التيم من

وديان قرية بانياس غربي دمشق ، وأخذ ينشر دعوته في منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا في القسم الجبلي من لبنان . وتوفي فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادي وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارها على هذا النحو في جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيب بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كَرَمَل بالقرب من صَفَد في فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم في أيدي الدولة البورية صاحبة دمشق ثم في أيدي عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم في زمن الأيوبيين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين في طردهم من الشام . وأبلوا بلاء حسنا في حرب التتار . ولعل ذلك هو الذي دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا غُصّة في حلق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزي وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل في كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزي وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسّد إلهي وأنه يتشكل في صورة بشرية هي الصورة الإنسية التي عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله في الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندی عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعت وإنه يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلامعاد عندهم ولابعث ولاقيامة ، إذ القيامة في رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره في صورته اناسوتية ، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتراف بالدرجة في العلوم الدينية ، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل في أجساد تهبط به في الدين درجة بعد درجة .

وتُسقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندي إنهم يذهبون مذهب الطباعية في قولهم إن الطبايع هي المولدة ، والموت بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفناء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا في البسمة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك ما نقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغي أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل في فروعها بما يتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبدالله التنوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجماعة .

(د) الإسماعيلية^(١) النزارية أو الفداوية أو الحشاشون

مررنا في الحديث عن التشيع بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصباح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك ؟ فقال له : ابني نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « الموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونا كثيرة بإيران وبعض بلدانها في قزوین وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالي أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا في مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا في إيران يمثلها الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصباح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

(١) ٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها . عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

(١) انظر في هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعشى ١٢١/١ و١٤٦/٤ و١٧٩ ورحلتي ابن جبير وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ ،

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم - فيما يظهر - كانوا يتعاطون الحشيش المخدر. وعمل الحسن بن الصباح على نشر الدعوة الإسماعيلية لافي أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا في إقليم الشام ، فأرسل إليها دعائه ، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب في أيام حاكمها رضوان بن تثنى السلجوقي (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبو طاهر واستولى مع شيعته على حصن قامية من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفقدون على الموصل والشام واغتالوا في سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر . وفي نفس السنة وفد على دمشق نزارى من الموت ، وتقرب من طغتكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغانى وزير بورى (٥٢٢ - ٥٢٦) في دعوته فعين أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبو الوفاء سرا لبلدوين الثانى صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق في نظير تنازله له عن صور ، وقدم حملة الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفطن بورى فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغانى ، ورد الله حملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون النزاريون في بانياس يممكون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع في السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهى مصياف والرصافة وقُدُوس والخواري والكهف والمينقة والعليقة ، مركزا للدعوة . ويُعدّ دوره في الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصباح في إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده في حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين في منازلته ولكنه توفى قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حشاشيه مرتين ليغتالوه ونجّى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرّد لهم في سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصره قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون في تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالي رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينا ظل الدروز يقاومون التتار - كما مرّ بنا - ولعل ذلك ما جعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانيا يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعتمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاكو حين استولى على قلعة الموت وغيرها من قلاعهم بإيران ، بل أبقى عليهم ليفيد من سفاكيهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديتة ، فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه فهى له ، وإن أصيب فهى لولده » . ويقول القلقشندى نقلا عن ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يُقتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فجب عن قتله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شيعة » المدفون بدمياط .

الزهد (١) والتصوف

الشام - من قديم - بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيراً بعيداً في تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحداية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابع بعدة الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك في الأديرة والصوامع عَمَّت هذه الروح في الشام واعتزل كثيرون منه - في أيام الرومان الظالمة - الحياة اليومية العاملة إلى الرهبة . وتعتنق كثرة السكان في الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ما تدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلة الصحابة وبخاصة من أهل الصفة الذين كانوا يلزمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين في الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا في الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة في سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكبرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظماً الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلقات الذكر » .

(١) انظر في الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميناهم ، وراجع في معاذ تهذيب النوى وفي أبى الدرداء البيان والتبيين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر في الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحليم محمود) وكشف المحجوب للهجویری (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للمقدسى

والسلوك للمقريزى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات في تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى والبدر الطالع للشوكانى وروض الرياحين لليافعى وخلاصة الأثر للمحجى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبرى وجولد تسيير ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

وعلى شاكلة معاذ في الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصاري ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصُّفَّة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكفُّ فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتحمل على اللغو في الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُغفلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري ساخطُ ربه أم راض ، وأبكاني هول المطلع ^(١) ، وانقطاع العمل ، وموقفي بين يدي الله لا يُدري أيُّمرني إلى الجنة أم إلى النار » . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة في الشام العباد والأتقياء وملتقى بهم في كل طائفة : في القضاة والفقهاء والمحدثين وقراء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ما هو معروف عن الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذي يخشى الله في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ومربنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعابر عن الناس وأنه سَوَّى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحطَّ عنهم - مثلهم الجزية - واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جاييا . ويفيض ابن سعد في ترجمته له بطبقاته في بيان زهده ورفضه لمتاع الجلباة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل في دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه في النسك والتعبد حتى اصفرَّ لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتني في قبري وقد سالت المحدثان - بعد ثلاث ليال - على وجنتي وتقلَّصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعي أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد في الشام . ونكتني بذكر بعض من تموج بهم كتب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك ما يقولونه عن شيبان الراعي المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة في جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسلم كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد ^(٢) ، ومنهم من كان يتعبد الله في جبال أنطاكية والمصيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(٢) راجع مقدمة أحسن التقاسيم للمقدسي .

(١) الاستشراف للآخرة

جبير^(١) . وكان منهم من لا يبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائي المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله في الزهد كتاب سماه : « العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال » . وولتقى بمعاصره أبي سليمان الداراني عبدالرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغري بردي : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دارياً غربي دمشق ، وكان إماماً حافظاً كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أثنى عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول الهجویری : « كان ريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، في تراجعهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهداً أقرب منه إلى أن يكون متصوفاً . وحمل عنه نزعة النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكي وابن أبي الحواري الدمشقي ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع في الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ما كنت به متجملاً وعنه راضياً » ويذكر بروكلمان له كتاباً في الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالي ينقل عن هذا الكتاب كثيراً . وتلميذ الداراني الثاني أو مريده ابن أبي الحواري أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبدالله ، وذكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ريحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد. وان عابداً تقياً صالحاً توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى في طرسوس دار حرب الروم بالشيخ أبي الحارث الفيض بن الخضر الأولاسي المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس في نواحي طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكأنا اتخذوه رباطاً لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ما قلناه مراراً في كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائماً يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور ، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسي أحمد بن يحيى

(١) يقول ابن جبیر فی کلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الخیر ینتال علی الغرباء من الخطباء والعلمین لافی دمشق وحدها بل ایضا فی القرى والضیاع ، ومن سئم المقام فیها

متی سئم المقام یصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودی (شمالی الموصل) فیلقی بهما المریدین المنقطعین إلى الله عز وجل فیقیم معهم ما شاء ویصرف إلى حیث شاء .

المعروف باسم ابن الجلاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما سنذكر ذلك فى حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى. وكان ذوالنون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تغرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرقى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبو عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشاهد مَنْ هو منزّه عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل ما يشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدوم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبي على الروذبارى شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خفيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقة المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما عليّ السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقعته الصوفية فنظر إلىّ وردّ السلام وقال لى : يا بن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا قليل ، فخذ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونصبي (تعبى) فلما كان وقت العصر قلت له : عِظْنِي ، فقال : يا بن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولا دينار . وظل كثيرون من العباد والنسك يؤثرون جبال الشام ويقىمون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقي فى جبل الجولان شرق الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعر برى ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لا يستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية ، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الداراني الواسطي وأحمد بن عطاء الروذباري ، وغيرهما كثيرون مثل الختلي نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ وهو أستاذ الهجويري الغزنوي الأفغاني ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالي الطوسي الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء في فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك في حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة في كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى في موطنه ضعف الوازع الديني عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالي يفكر في كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في رسالته ، ورى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية في الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله . وأتم الكتاب في دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التي وصفناها في إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالي بدمشق وبيت المقدس فاتحة التثام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ما جعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون في العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السني عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبي ونسائهم وأمراؤهم ببناء الخانقاهات والربط في ديار الشام ووقف الرواتب والأموال التي تنفق على متصوفها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد في الجزء المنشور من كتابه الأعلام الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عدرباطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لا يزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفي هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هي الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ واعتنقها كثيرون لافى العراق وحدها بل أيضا فى الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وانتظم فيها كثيرون فى العراق والشام وشاعت سريعا فى العالم العربى .

ومعنى ذلك أن التصوف السنى الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة فى أن يكون هو التصوف الشائع فى الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفى القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردي الأيراني ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألمنا بها فى حديثنا عنه فى الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفى من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ هـ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة فى إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ هـ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويخلقون لحاهم وحواجبهم . وتسرب ثانية إلى الشام جدول صوفى فلسفى زاخر على لسان يحيى الدين بن عربى المولود بمصرية فى الأندلس سنة ٥٦٠ هـ وقد تلقى تعاليمه فى إشبيلية وفارقها فى الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل فى مكة فترة ثم بارحها مطوفا فى البلاد العربية ودخل الأناضول « وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ هـ » . وكان إماما فى التصوف الفلسفى القائل بوحدة الوجود وصنّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفى فى التصوف استطاع أن ينبجى من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردي ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مماهيا فيما بعد لكى يظل التصوف الفلسفى - على قلة - حيا بجانب التصوف السنى ، وكانت عباراته فى كتاباته تحتل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفى ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو ما مر بنا فى مصر عند الشعرانى .

وتُعنى دولة المماليك بالتحاينات والتربط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا فى ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتى القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام عفيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي . وهذا طبيعي . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطربة ، وأكلهم الحيات وهي حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة في أيديهم ، ولفهم شعورهم وتليدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدّهم نارا حامية ظل يذكّرها بوقود جزل يزيد لها واضطرابا ، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبد الرحمن ، وكان قد تزهد وتصوف فصحبته جماعة من الأراذل ، فهوّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوّلت على الأمم الطريق إلى الله تعالى » وزعم أنه وصل في سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكم عليه بإراقة دمه فاخترق إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السميساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدوكالي ، وشاع أمره فقبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزني والذهبي ، فحُكم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت في الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التي تدين بالنظريات الحلولية ولا تقم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقّدر عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجري نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أي تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجري على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا ما يحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السوي . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون في العالم الإسلامي ، وكان لهم أثر غير قليل في حفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونمضي إلى زمن العثمانيين فتشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون في العالم الإسلامى . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التي تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحَّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من القرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء في عالم الحقيقة والحب الإلهى ، على نحو ما نجد عند عبد الغنى النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفى وغير الفلسفى ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية في لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهياها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل ووادى دجلة والفرات ، مما جعلها تنتقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها في مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل في شواطئها فتشارك في الملاحة والتجارة على نحو ما هو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلل الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تتعمق الثقافة الهيلينية في زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا في تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولعت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور في مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة في صور وصيداء ، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة في مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان في بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بتلك المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية في الأدب اليونانى ولمع في صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأديبا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا في عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهبنة التي أسسها أحد قساوستها في أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزاة لقربها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر الهيليني تُعدّ ثالث المدن في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

ومما يدل بوضوح على مدى تأثير الهيلينية في الشام أن نراها تتعمق باديها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروة الطامحة إليها في عهد أذينة . وحين خلفته في الحكم أرملة زنوبيا اتخذت لونيغينوس الذي علمها اليونانية مستشاراً لها ، ويظن أنه كان حمصي الموطن ، وقد أعدمه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة ٢٧٣ م . وهو يوضع في سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يوناني ومسيحي^(١) يعدها للمشاركة سريعاً في نشاطها العلمي والأدبي بمجرد دخول الإسلام في ربوعها الذي كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام في دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وعنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعرض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الخفيف . وكانوا مايزالون يفتونهم في المسائل حتى يتبينوا الحلال فيتبعوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مربنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفي ، وحبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ من أقرأهم ألفا وستمائة ونيفا ، وكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف في محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم ببصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف في شيء رجع إلى أبي الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا^(٢) . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن في دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطناً ، ثم

(٢) انظر ترجمته في كتاب « غاية النهاية في طبقات القراء » لابن الجزري (نشرة برجستراس) ٦٠٦/١ .

(١) انظر في هذا التراث وكل ما ذكرت آنفا كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لفيليب حقي - الجزء الأول - الترجمة العربية .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ وليها معاوية ، وطبيعي أن يعنى الأمويون بمن يفقه الناس في شئون دينهم ، ومن يروى لهم حديث الرسول صلى الله عليه عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آي الذكر الحكيم ، ومن يعظهم ويبلغ تأثير وعظه شغاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتونهم فيما يجحد من شئونهم .

ومعروف أمر عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسته أو نحو هذا فاكتبه لي ، فأني خفت أدروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفي سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع في الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سبقا في قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا ممن كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدي أبي الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين في الأمصار الإسلامية لزمانه وبعد زمانه . ومائلبث بأخرة من العصر الأموي وأوائل زمن الولاة في العصر أن نلتقى بفتيحه مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما في الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعي أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ببيروت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التي بعثها الأمويون في الشام وقاموا عليها بما كانوا ينفقون على علماء الدين في كل بلد شامي من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه في الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراءته حقا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلم بذلك في غير هذا الموضع ، إنما نهم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليها مؤدبون ، يعلمون الناس العربية في المساجد حتى لا يخطئوا في تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصر الخلفاء وأمراء البيت الأموي في تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفي كتب الأدب لهم وصايا لمؤدبي أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقومون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من يبايعها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : « أضرَّ بالوليد حبُّنا له فلم نوجِّهه إلى البادية »^(١) . وظل هذا النشاط في تعلم اللغة بجانب النشاط في تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات في زمن الولاة العباسيين تجعل همها التعليم في المدن وأيضا في القرى ، والدولة لا تقصّر ، بل دائما تُجرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء في كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية .

ويُظَلُّ الشام عهدُ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إذارات الرواتب على العلماء ويطرَد النشاط العلمي في الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموي بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن عبيد بن شربة الجرهمي ، وجعلها عبيد موضوعا لسمره وأحاديث معه ، وجمع كثيرا من هذه الأحاديث في كتاب له سماه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، طُبِعَ له في حيدرآباد مع كتاب التيجان في ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختلفون في الشام ، على نحو ما سيتضح ذلك في نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) حين أظَلَّ لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرها من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الخارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سداً منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكَل بهم وبمجموعهم مرارا وتكرارا . وبجانب هذه البطولة الخارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون في زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفارابي المعلم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبي علي الفارسي وابن جني وابن خالويه . وسراه عما قليل يرعى علماء الطب وأفذاذه ، كما يرعى بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه كما يقول الثعالبي ، وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة في الجزء الأول من كتابه اليتيمة أمثال النامي والبيغاء والوأواء الدمشقي والخالديين والسري الرفاء وكشاجم وابن نباتة السعدي . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر في الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائح ، ويكفي أنه نزل عنده لمدة

(١) البيان والتبيين ٢/٢٠٥ .

تسع سنوات أعظم كوكب في سماء الشعر العربي لزمانه : المتنبي الذي ملأ الدنيا بوصفه لبطلته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفي أثنائه يتقلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر في يدها لأوائل القرن الخامس الهجري حتى استولى عليها بنو مرداس كما مر بنا في الفصل الماضي ، ولا يبقى معها في العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم في تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وفقهاء وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أيدينا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التي كان ييئزها الفاطميون ونوابهم وولاتهم لعلماء الشام . ولكن يكفي أن تكون الشام أنتجت في هذه الحقب أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامي . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمانه ، يكفي ذلك للدلالة على ما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصيب وازدهار رائع . وقد استقل بنو مرداس بحلب ، ويصور ابن العديم في كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لا يزال حيا ناشطا منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضي طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ و حاول أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفتهم الحاكم ، فأنشأ بها دارا سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها في تنوع الدراسات بها وفي جلب الكتب الكثيرة إليها^(١) ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطا علميا واسعا في الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ما قدموا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُثِدَتْ حركتها العلمية وهي لا تزال ناشئة في المهدي . ويدخل أكثر الشام في حكم السلاجقة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس في المدن الكبيرة لدولتهم في إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ما جعل العلم العربي بجميع فروعها شعبيا ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أي حلقة من

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي ٦٧/٦ وما بعدها

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم في مدرسة فإنه كان يأخذ راتباً معيناً يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون في بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء . وأول مدرسة بنيت في دمشق المدرسة الصادرة^(١) بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفي سنة ٤٩١ . وفي سنة ٥١٤ بنى أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة^(٢) للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت في هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهي المدرسة الزجاجية بناها حاكمها الأرتقي بدر الدولة أبو الربيع سليمان

ويُظَلُّ الشام لواء الزنكيين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتتنفس الصعداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا في شغل مستمر بحروب حملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم الممالك بحيث تزدهر في الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دائرة تكفل للمدرسين والمعيدین رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدم لهم فيها الغذاء ، ويقيمون فيها للراحة والنوم . وكانت تلحق أيضاً بالمدرسة خزانة كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير في رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين ، وبها قبره نُورُه الله ، وهي قصر من القصور الأنيقة » بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقه الحنفي . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة في دمشق وحلب وغيرهما من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدَّ ابن الشحنة منها في كتابه الدر المنتخب في مدارس حلب نحو خمسين مدرسة في بلدة شامية واحدة أسست بين سنتي ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعُد لدمشق في سنة ٦٨٠ وهي سنة تأليفه للأعلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة خنبلية . ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هي مدى شيوع هذه المذاهب في الشام فأكثرها انتشاراً

قبلها مدرسة سُميت الجاروخية وانظر في حديثنا عن المدارس المصلرين السالفين .

(١) الأعلاق الخطيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس في تاريخ المدارس للنعمي ٤٢٩/١ .
(٢) سُميت الأمينية نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت

فيه المذهب الشافعي ثم المذهب الحنفي ثم المذهب الحنبلي ثم المذهب المالكي . ولم يُنَّ للمذهبيين الآخرين مدارس إلا في عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يكتظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفي ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبلبك ومنبج »^(١) . وبجانب مدارس المذاهب الفقهية عنوا بتأسيس مدارس الحديث النبوي ، من ذلك دار الحديث النورية التي أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولَّى مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكنًا لشيخها ، ووقف عليها أوقافًا كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيما بعد أسندت إلى الإمام الشافعي : النووي .

وبدون ريب بعثت هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثرت العلماء في كل علم حتى ليرى العباد الكاتب في كتابه « الفتح القدسي » أنه وُزِعَ في إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخصَّ كل عالم دينار واحد^(٢) ، أي أنه كان بها حينئذ ستمائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضره . ومبالنا إذن بما كان ينفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لا بد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته ، ويروى ابن خلكان في ترجمة نور الدين إنه كان لا يزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة في حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن في بلادك إضرارات وصنقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكانت أصلح ، فغضب من ذلك غضبا شديداً وزجر صاحبه زجراً عنيفاً . وكان صلاح الدين على شاكلته في العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يختلس من أوقاته ما يعطيه الفرصة لحضور مجالس العلماء مهما بعدت الشقة كما حدث في ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السلفي الحافظ المشهور^(٣) واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بتعمقه في الفقه وأنه ألف فيه كتاباً وأيضاً

(١) ابن خلكان في ترجمة نور الدين محمود ١٨٥/٥ . (٢) الفتح القدسي ص ٤٨١ . (٣) مع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على السلفي أيضاً : انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

فإنه كان يتعمق في دراسة النحو^(١) . فسلطين بنى أيوب كانوا مثقفين^(٢) ، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة .

ويعدُّ صاحب الأعلام الخطيرة لدمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات ، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس . وظل هذا الحشد الهائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس في زمن المماليك وأخذوا يضيفون كثيرًا من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعربية . وحقا كانت كثرة المماليك غير مثقفين ، وهم من هذه الناحية يختلفون عن سلطين بنى أيوب ، ومع ذلك عتوا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة ، على أنه عُرف بعض متأخريهم بمدارس العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلطين : برقوق والمؤيد شيخ وقايتباي والغوري .

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام المماليك ، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد في هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد في كراماتهم والمبالغة في ذلك ، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وفقه بصير بالشرع ، ولكن كان بينهم دخلاء مشعوذون جعلوا العامة يتعلقون بالأولياء ، ومنحوهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ ما يريدونه المتوسلون بهم . ويقف المستشرقون عندما نزل بابن^(٣) تيمية من محن ، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلاً على جمود الفكر الديني حينئذ غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماماً حنبلياً يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية . ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره شكراً ، وقد حارب الصوفية في منازعهم الفلسفية وكل ما قالوا به في الحلول ووحدة الوجود ، وحارب الشيعة الإسماعيلية وما يزعمون لأئمتهم من العصمة وتمثيل العقل الكلي وما يتصل به من تجميد الإله

والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩ والمنهل الصافي ٣٣٦/١ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٢٨/٤ وتاريخ ابن الوردي ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٤/١ والقول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي لصفي الدين الحنفي والكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية لمري الكرمي وابن تيمية للشيخ محمد أبوزهرة وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ وما بعدها

(٢) مما يذكر عن هؤلاء السلطين أنه كان لهم بعض مؤلفات ، فكما كان للمعظم عيسى كتاب في الفقه الحنفي كان للمنصور محمد الأيوبي صاحب حجة كتاب في تاريخها ومن زارها أو اتخذها مسكناً من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الامجد الأيوبي صاحب بعلبك يحضر دروس الحافظ اليونيني ، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفاً ما بعده شرف .

(٣) انظر في ترجمة ابن تيمية فوات الوفيات ٦٢/١

في الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى يفتح باب الاجتهاد على مصاريحه ويفتى فتاوى حرة في كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هجماته . وهى هجمات صريحة جريئة ألّبت عليه كثيرين من الخصوم في بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه إقبال من حمة عما في القرآن الكريم من آيات قد تفيد التشبيه على الذات العلية إذا فهمت على ظاهرها مثل : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) و (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد في الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد في الآية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ما أجاب به ابن تيمية في رسالة مستقلة . أن واجباً أن تؤمن جاء في القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بال مخلوقات وأيضاً دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان ما اتهمه الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى في الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفعوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرأه من التهمة . ونجاه الله من هذه المحنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية في سنة ٧٠٥ بسبب حملته على الطريقة الصوفية الرفاعية وما يؤمّه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدعونها ، وشكّوه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخداعهم للناس كما مربنا . وفي نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له - وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة - وأخذوا يناقشونه في إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فالله استوى - كما يقول - حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلاً موضحاً رأيه في الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكموا عليه بالسجن وظل فيه عاماً وبضعة أشهر . ولبت في القاهرة يعلم ويعظ ، وسرعان ما أوقع به خصومه بدعوى حملته على أصحاب المتزعة الفلسفى في التصوف القائلين بالحلول ووحدية الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رقى عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردّ إليه حريته وأكرمه إكراماً عظيماً . وفي سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفر عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعدّ طلقة واحدة . حيثئذ نارت نائرة الفقهاء ، حتى أجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصدع السلطان لمشيتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا في سنة ٧٢٠ وعُقد بدمشق مجلس محاكمته ، وسُجن ولبت في السجن خمسة أشهر وأياماً ثم رُدّت إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معصية من أشد المعاصي ، فاعتُقل بسبب هذه الفتوى وجُعل في قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولا بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفي سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده في مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان في الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهادا منه ، أما مسألة الاجتهاد في الشرع فقد تركها العلماء له . ولنا بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلا - كما مر بنا آنفا - على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحا على مصاريعه طوال زمن الماليك حتى بين الحنابلة . واشتهر في كل مذهب فقهي مجتهدون جدد مثل النووي في المذهب الشافعي . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بواعثها بعد أربعمئة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية في محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تغري بردي يذكر أن كبيرهم في دمشق ابن الزملكاني ونظيره في مصر ابن دقيق العيد أثريا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملكاني قوله عنه : « العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوحد علماء الدين .. محيي السنة ومن عظمت به لله علينا المنّة » .

وعلى هذا النحو كانت الحياة العلمية نشطة مزدهرة في زمن الماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطالما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلاد دائرة وقضايتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أظل لواء العثمانيين الشام أصابها ما أصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جذوة منها متقدة في بعض المدارس والجوامع وبخاصة في الجامع الأموي بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومرر بنا أن الحكم العثماني بالشام أخذ يسوء سوءا شديدا ، وأخذت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره في تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذي وضعه الظاهر بيبرس وظل قائما طوال أيام الماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاض عام واحد هو قاضى العسكر ، وألغوا استخدام العربية في دواوين الولاية ، واستخدموا مكانها التركية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولا مناشير وتقاليد بالعربية ، غير أن العربية كانت لغة الدين الحنيف ، فظلت

حية في ديار الشام هي والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين .
نابغون في الدراسات الدينية وفي الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مرّ بنا - في فاتحة الفصل - أن الشام شاركت في التراث اليوناني منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة في ثغورها : صور وصيداء وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث في الفكر الفلسفي والعلمي ، ومنهم من كان يحذق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامي وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعنى بتلك الثقافة . ويلقانا في عهد معاوية طيبيان من الأطباء المتميزين في دمشق حيثنذ هما ابن أثال ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة^(١) ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية^(٢) . وهما يرمزان إلى مانقوله من أن التراث العلمي اليوناني ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا في ديار الشام ، مما أتاح لخالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتباً في الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتباً ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة (الكيمياء) »^(٣) . ونمضي بعد خالد فنلتقى بالخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران^(٤) وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه^(٥) ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعاً من المراكز التي عنيت قديماً بدراسة التراث اليوناني . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة

(٣) الفهرست ص ٣٣٨ (٤) ابن أبي أصيبعة ١٧١

(٥) انظر مقالة ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى

بغداد في كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي

الحياة ببيروت) ص ١٧١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٥

أبجر ، ويتخذونه طبيبا^(١) له ، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه في أثناء ولاية أبيه على مصر ، فلما ولى الخلافة استقدمه وأسلم على يديه ، وظل يعتمد عليه في صناعة الطب . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أيضا أنه أمر بنقل كتاب القس أهرون الإسكندري في الطب إلى العربية ، ويبدو أنه كان قد نال شهرة في علم الطب لزمته ، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمره ، وإنما ترجمه ماسرجويه^(٢) البصري . ولو أنه فكر حقا في نقل التعليم - وخاصة تعليم الطب - إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية .

على كل حال كان التراث اليوناني الفلسفي والعلمي معروفا - طوال زمن بني أمية - في أنطاكية وبعض مدن الشام وفي الأديرة ، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية ، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب . ويروى أن سالما رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسططاليس إلى العربية^(٣) ، ويذكر بروكلمان أنه تُرجم - أيام الأمويين سنة ١٢٥ - كتاب مفتاح أسرار النجوم^(٤) . وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعا بالتراث اليوناني العلمي والفلسفي . وظل المعنيون بعلوم الأوائل يتنفسون في هذا الجو طوال زمن الولاة العباسيين . ويبدو أن دمشق ظلت تعني بها وبخاصة الطب ، ومن أطبائها في القرن الثاني للحكم^(٥) بن أبي الحكم ، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمر طويلا حتى لحق القرن الثالث ، وكان طبيبا مسيحيا عالما بأنواع العلاج والأدوية . وكان ابنه عيسى^(٦) - على غرارهِ - طبيبا ، واستقدمته أم ولد للرشيد لعلاجها ، وله في الطب كناش كبير . ويبدو أنه أُسس في دمشق مرصد كبير ، إذ نرى المأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت في بغداد ودمشق ، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال^(٧) ويعلق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلمهم من الهنود والإغريق في وقت قصير .

وظلت الشام تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني ، ومن كبار مترجميها عبد المسيح^(٨)

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٧
(٧) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطي ص ٢٨١ منجا خيرا بالكواكب تولى الرصد للمأمون على جبل قاسيون إدمشق، انظر القفطي ص ٣٥٧
(٨) انظر في عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودي بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأولييري ص ٢٢٧

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١
(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٨٠ ، ٣٢٤
(٣) الفهرست ص ١٧١
(٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٩٠/٤
(٥) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٦

ابن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى لعهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو وشرح يحيى النحوى على كتابه : السماع الطبيعى ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابًا منسوبًا إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أثولوجيا أوروبوية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندري ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونمضى إلى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قُسْطَا^(١) بن لوقا المولود بعلبك فى أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيرون . وذكر له الدوميللى ترجمات أخرى ، وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة فى العمل بالكرة الفلكية ، والجامع فى الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تتناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حَيْش^(٢) بن الحسن الأعسم الدمشقى وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله فى كثير من تراجمه ، ومما ترجمه عهد بقراط وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد^(٣) ابن يعقوب الدمشقى وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجمات كثيرة ، ترجم إيساغوجى (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدل لأرسطو ، وعُنى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفى مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لبابوس ، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتباً لجالينوس . وهذه الأسماء التى ذكرناها إنما هى رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقبا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة - كما مر بنا - حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة فى عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب فى زمنه يلمون بحضرته ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاطه فى حلب أكبر فيلسوف عربى فى زمنه الفارابى^(٤) ، وقد ظل عنده حتى لبى نداء ربه سنة

(١) انظر فى ترجمة قسطنطين القفطى ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة

٣٢٩ وبروكلمان ٩٧/٤ والدوميللى ص ١٦٥ وما بعدها

(٢) راجع فى حيش القفطى ١٧٧ وابن أبى أصيبعة

٢٧٦ وبروكلمان ١١٧/٤ والدوميللى ص ١٤٣

(٣) انظر فى سعيد ابن أبى أصيبعة ٢٨٢ وبروكلمان

١١٨/٤ والدوميللى ص ٢١١

(٤) راجع فى الفارابى وفلسفته ومراجعته كتابنا العصر

العباسى الثانى ص ١٤٠ وما بعدها

٣٣٩ . وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفيا وفكريا ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عني بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد . ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمي والفلسفي بالشام لتلك الأيام ما ذكره القفطي عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيا ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتبين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسي كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتبين بسبب إحسانه لعلمين وراتبا ثالثا جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية^(١) . وذكر القفطي بينهم في موضع آخر من كتابه ابن كشكرايا^(٢) وكان طبيبا مشهورا عيَّنه فيما بعد عضد الدولة البويهى بالبيمارستان المنسوب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضا بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم^(٣) الرقي ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل في بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرداسيين بحلب والسلاجقة في حلب ودمشق ، يدل على ذلك ما يلقانا من أطباء مختلفين في تلك الديار مثل البرودي^(٤) في القرن الخامس وظافر^(٥) بن جابر السكري ومبشر^(٦) بن فاتك في نفس القرن ومثل ابن الصلاح^(٧) وابن البدوخ^(٨) في القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنونا من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب - كما روى أسامة بن منقذ - أحد أطباءهم يعالج بعض مرضاه علاجا يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخرية شديدة ، وسجل على الصبليين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطا مزريا ، على نحو ما صور ذلك في كتابه « الاعتبار » .

وندخل في زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى وبمن يعالجهم من الأطباء ، وتنشأ لهم بیمارستانات ، يتزولونها وتقدم لهم فيها الأدوية

(١) القفطي ص ٢٥٠

(٢) القفطي ص ٤٠٣

(٣) القفطي ص ٤٢٩

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٠

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٤

(٦) القفطي ص ٢٦٩

(٧) القفطي ص ٤٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٦٣٨

(٨) ابن أبي أصيبعة ص ٦٢٨

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير في رحلته بمارستانين رآهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثاني حديث ، ويقول إن الحديث أحفلها وأكبرهما وجرايته (نفقته) في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً ، وله قومة (موظفون) بأيديهم الأوراق المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يكرّون إليه كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن المارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال في الجديد أكثر ، ويذكر أن للمجانين المعتقلين ضرباً من العلاج وهم في سلاسل موثقون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضاً كانت مدارس يمرّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت البمارستانات تُبنى في ديار الشام حتى لالتقى بمارستانات في صرخد بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلوم الأوائل حتى ليعدون في كتاب ابن أبي أصيبعة بالعشرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نقف عند مشهورهم ، ونبدأ بشمس^(١) الدين اللبودي المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطبُّ في البمارستان النوري الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدُّخُور^(٢) مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدمشقي مولداً وداراً رئيس بمارستان دمشق الذي أسسه نور الدين محمود ، توفي سنة ٦٢٨ وأفراد ابن أبي أصيبعة له في طبقاته فصلاً طويلاً تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقفها على هذه الغاية في حياته وبعد مماته . وكان أثره في تعليم الطب بدمشق واسعاً ، وثقفته على يديه جماعة كبيرة . وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلوم الأوائل ما ذكرناه في الفصل الماضي من أن أمراء البيت الأيوبي توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، وتحول كل أمير منهم في بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء في كل فروع العلم ، وولتقى بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد^(٣) الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ وُلد بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقدس ستين يعالج الناس في بمارستانها ، ثم انتقل إلى

(٣) راجع في رشيد الدين ابن أبي أصيبعة ص ٦٩٩

والدوميلي ص ٣٢٠

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٢

(٢) انظر في الدخوار ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨ وفوات

الوفيات ٥٦٣/١ والدوميلي ص ٣٢٠

دمشق وفُوضت إليه رئاسة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبي أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيا . وينوه ابن أبي أصيبعة بكتابه في الأدوية المفردة وكيف كان يتعقبها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ واللِّقُ (جمع ليقة) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات في الشام مثل جبل لبنان وغيره مما به نبات يختص به ، ويشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوره . وسلك في تصوير النبات مسلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصور في إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له في وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له في وقت ييسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات في أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم^(١) الدين اللبودي سنة ٦٦٦ وكان يتعمق بحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبي أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون في الطب لابن سينا ورسالة في مسائل فسيولوجية . ورعاه في الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب في البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيا ، وكانت له كتب في الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبي أصيبعة^(٢) الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذي يتكرر ذكره في الهوامش ، توفي سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفي شبابه نزل القاهرة ، وشُغف بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل في اليمارستان الناصري مدة ، ثم جذبه إليه أمير صرخند بفلسطين في الزمن الذي ذكرناه . زمن رعاية العلوم والآداب المتعديدين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونمضي إلى زمن الماليك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا ويلقانا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف^(٣) المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

(١) انظر في اللبودي ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٣ وخطط

الشام لكرد على ٤٦/٤ ، ١٠٣/٦ والدوميلي ص ٣٢١

(٢) راجع في ابن أبي أصيبعة النجوم الزاهرة ٢٢٩/٧

وابن كثير ٢٥٧/١٣ والشذرات ٣٢٧/٥ والدوميلي

ص ٣٣٠

(٣) انظر ابن أبي أصيبعة ص ٧٦٧ والدوميلي

ص ٣٢٢ ، ٣٢٦

أبي أصيبعة ، وكان طبييا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة في صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن ^(١) السويدي إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيدالة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله في الطب « التذكرة الهادية » وفي الصيدلة « الباهر في الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء الموثوق بهم في هذا الموضوع كالبيروني والرازي وأبي حنيفة الدينوري . ولابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات في بلدان الشام المختلفة ، ويفيض ابن أبي أصيبعة في الحديث عنهم ، وأيضا لابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير ما يذكره لهم ابن أبي أصيبعة من مؤلفات تتناول علوم الكيمياء والفيزيكا والرياضة والهيئة أو الفلك . وقد مضت الأجيال في زمن الممالك تنهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب في البيمارستانات المنتشرة في بلدان الشام .

وممن نبغوا في الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين ^(٢) بن الشاطر الموقت في الجامع الأموي بدمشق وله كتاب في الزيج توفي سنة ٧٧٧ ومثله ابن ^(٣) الهائم الفرضي شهاب الدين المدرس بالقدس في المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة في الحساب والجبر ، توفي سنة ٨١٥ . وعُني كثيرون بالتأليف في علم المنطق . وألفت كتب كثيرة في ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفي بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين في العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسي الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ما أصاب الحركة العلمية في الشام من تدهور في أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يتراءى من حين إلى حين في الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضي الشافى وأيضا بالفلك وفروعه ، واشتهرت حينئذ تذكرة ^(٤) داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهي مهمة في وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا ، وله كتاب يسمى الكامل في الطب طبع مرارا .

والنفذرات ١٠٩/٧ وألدوميلي ص ٥٠٦ ، ٥١٣
(٤) راجع في داود الأنطاكي البدر الطالع للشوكاني
٢٤٦/١ وخلاصة الأثر ٦٤٠/٢ وألدوميلي ص ٤١٧ .

(١) انظر في ابن السويدي فوات الوفيات ٥٤/١ والمنهل
الصافي ١٢٤/١ وألدوميلي ص ٣١٩
(٢) راجع في علاء الدين الشذرات ٢٥٢/٦ وألدوميلي
ص ٥٥٣

(٣) انظر الضوء اللامع للسخاوي ج ٢ رقم ٤٤٩

(ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تنسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولائها ، من ذلك رحلة تنسب إلى تميم الداري الفلسطيني الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تنسب إلى عبادة بن الصامت وإلى حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكوفسكى إلى أنها قصتان ملفقتان بل منحولتان^(١) . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لا تدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالدى الأمم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجبهم من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب المِجَسْطى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينبج أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصد المقدسى^(٢) محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجدّه أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيما عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودوّن معلوماته فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وما سمعه من الثقات ، وما وجدّه فى الكتب المصنفة ، واتبع فى وصفه لكل قطر منهجا ثابتا ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأموال . والثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ٨٢ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لميتز ٤/٢ والدوميل ص ٢٢٧ وكراتشكوفسكى ٢٠٨/١ - ٢١٥

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى (الترجمة العربية) ص ٥٣ وما بعدها
(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان ٢٥٣/٤ وما بهما من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤

في الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شاليه فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام . والقسم الثاني ، جعله للمشرق ، يبدأ ببلاد الهياطلة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخورستان فقارس فكرمان فالسند ففازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخططها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار العذبة بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصيني . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التي زارها بكل مشاهدتها حتى لكأنما يبصرها قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا يبارى في عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقتنى في مقدمته الطويلة وفي مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر^(١) بن طاهر المقدسي ، وهو مثله لا تعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كتبه سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافي كتبه عن صفة الأرض ومبلغ عمراتها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . وولتقى في النصف الأول من القرن الخامس بأبي الحسن علي^(٢) بن محمد بن شجاع الرعي المالكي المتوفى سنة ٤٣٥ وله « كتاب الإعلام في فضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الآثار والبقاع الشريفة » .

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسياً منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، حين استولى حملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذ هب الشاميون - والعرب معهم في كل مكان - يصرخون في وجوه حملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكننا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوحون في وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوبوه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدّى لذلك من الجغرافيين المشرف^(٣) بن المرجي المقدسي الذي صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

(١) انظر في المطهر بروكلان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ .

(٢) انظر في المشرف بروكلان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكي ٢٢٤/١ .

(٣) راجع في الرعي بروكلان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ وما بعدها .

٤٩٢ كتابه : « فضائل البيت المقدس والشام » ليستثير حماسة الناس من حوله حتى يضربوا حملة الصليب الضربة القاضية ويظهروا أرض الشام الزكية من رجسهم . وفي نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر^(١) بن محمد بن أحمد الواسطي سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر^(٢) المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين في ثمانين مجلدا ، ومن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعيب . كل ذلك ليحيط مدبنته بهالة قدسية كي يدافع عنها أبناؤها والعرب ضد حملة الصليب حتى الذماء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس - كما مر بنا - سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حملة الصليب ودمرهم في حطين تدميرا لم يكذب بقى منهم ولا يذر . وتكون لذلك فرحة مابعد فرحة في نفوس المسلمين . ولا يكاد يمضي على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى باهم القاسم^(٣) ، وكان يشتغل بالوعظ في دمشق ، يذهب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرأ على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا علي^(٤) الهروي السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء في الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عصا تسياره بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فشيّد له مدرسة بظاهر حلب ، وهي صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبي في الشام لالعلماء بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن يتزل بها من جلة العلماء ، حتى لينون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب . وولتقى بعثمان^(٥) النابلسي المتوفى حوالي سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن ممان وعين حاكما لمحافظة الفيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم في

(١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

والبداية والنهاية ٢٩٤/١٢

(٢) انظر في الجغرافى المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم

(٣) انظر فى القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨

الأدباء ٧٣/١٣ وخريدة القصر (قسم شعراء الشام)

والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ والعبر

٢٧٤/١ والمتنظم ٢٦١/١٠ ورمّاة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة

٣١٤ وشذرات الذهب ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢

الحفاظ ١٣٢٨/٤ وعبر النعمى ٢١٢/٤ ورمّاة الجنان

(٤) راجع فى الهروى ابن خلكان ٣٤٦/٣ والشذرات

٣٩٣/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٢١٥/٧ وابن خلكان

٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١

٣٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦

(٥) انظر عثمان النابلسى فى كراتشكوفسكى ٣٤٩/١

ترتيب بلاد الفيوم» ويؤلف^(١) ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ - هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين - كتابا بديعا سماه الأعلام الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما في البلدين من المساجد والخانقاهات والمزارات والحمامات ، وقد رجعنا إليه مرارا في حديثنا عن الحركة العلمية . وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالعجائب والغرائب في الظهور . ونقرأ منها كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس^(٢) الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل في التاريخ الطبيعي وما يتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أو بعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافي كبير ، وألحق به بعض الخرائط وفُقدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطبيعي أن يعنى إبراهيم^(٣) بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابيه : «الإعلام بفضائل الشام» و«باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس» . ويلقانا أبو الفدا الملك المؤيد^(٤) إسماعيل الأيوبي صاحب حجة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين في التاريخ والجغرافيا ، وهما الثاني وعنوانه «تقوم البلدان» وهو كتاب جغرافي للعالم في زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافي عربي حتى العصر الحديث ، ودائما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب^(٥) الدين القدسي المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه «مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام» ، ويلقانا عمر^(٦) بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ - وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن - وله كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافي للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا طريفة في كتابنا «عجائب وأساطير» . ويؤلف عبد^(٧) الرحمن العليمي المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

-
- | | |
|---|--|
| (١) انظر في عز الدين بن شداد تاريخ ابن الفرات (طبع بيروت) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشذرات الذهب ٣٨٨/٥ وكراتشكوفسكى ٣٦٩/١ | (١) طبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية ١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٩ وكراتشكوفسكى ٣٨٩/١ |
| (٢) راجع شمس الدين الدمشقي في كراتشكوفسكى ٣٨٦/١ | (٥) انظر في شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١ وكراتشكوفسكى ٥١١/٢ |
| (٣) انظر ابن الفركاح في الدرر ٣٥/١ والشذرات ٨٨/٦ وكراتشكوفسكى ٥١٠/٢ | (٦) راجع في عمر بن الوردى ابن إياس ٦٠/٢ وكراتشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية . |
| (٤) راجع الملك المؤيد في فوات الوفيات ٢٨/١ والدرر | (٧) انظر العليمي في كراتشكوفسكى ٥١٥/٢ |

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » . وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حينئذ نشاطا في الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن^(١) طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله في ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامي » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر^(٢) الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية في المنازل الرومية » وتلاه محمد^(٣) بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية في كتابه « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه من الأسفار » . وولتقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » لأحمد^(٤) بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصف محمد^(٥) بن أحمد بن حافظ الدين القدسى المتوفى سنة ١٠٥٥ زيارته لدمشق والقدس والقاهرة في كتابه « إسفار الأسفار في أبكار الأفكار » كتبه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى سترجم له فيما بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس وبلبك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك في زمن العثمانيين أحمد^(٦) المنيى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى ، وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها العتبى للسلطان محمود الغزنوى .

٣

علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة

أخذت الشام تُعنى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

(٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٨٧/٢
 (٤) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢
 (٥) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢
 (٦) انظر فى المنيى سلك الدرر للمرادى ١٣٣/١
 وكراتشكوفسكى ٧٥٧/٢

(١) انظر فى ابن طولون ترجمة شخصية له طبعت بدمشق بعنوان : الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون وراجع الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشذرات الذهب ٢٩٨/٨ وكراتشكوفسكى ٦٨١/٢ وما بعدها
 (٢) انظر كراتشكوفسكى ٦٨٥/٢

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين في معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لا يزال بها كثيرون لا يعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لا تعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شَرِيَّة جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا في الأمثال ^(١) رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ولباه أيضا في أيام يزيد بن معاوية أخباري يسمى علاقة بن كريم الكلبي ، فوضع للناس كتابا ثانيا في الأمثال ^(٢) والحكم . وأخذ ينشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولا شك أن كثرتهم كانت من قراء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمرأ البيت الأموي فزودتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ^(٣) أولاد عتبة بن أبي سفيان ، وهو أيضا مؤدب ^(٤) الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذي دفعه إلى المجون ، إذ كان زنديقا ماجنا . وكان معبد الجهني مؤدبا ^(٥) لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك في خلافة الزهري المحدث مؤدبا ^(٦) لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثاني والثالث تُعنى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرَّجوهما - تخرج أولها وهو أبو تمام في الربع الأخير من القرن الثاني وتخرج الثاني في أوائل القرن الثالث وهو البحتري - وضعا أُقيِم مجموعتين من اختيارات الشعر حتى زمنها ، وسمي كل منها مجموعته باسم الحفاسة على نحو ما هو معروف . وكانت بغداد - مركز الخلافة - تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبي أبنائهم ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقي وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور . ويبدو أن علماء اللغة في الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة ،

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن

حجر ٢١/٤

(٥) البيان والتبيين ٢٥١/١

(٦) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ٢٥٤/١ .

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن التديم كتابا في الأمثال لصحار العبدى معاوية .

(٣) البيان والتبيين ٢٥٢/١

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحداً ، وكان يؤلف في الميدانين معا ، وقد يكون شاميا أصيلا وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير نلتقى به في الشام الزجّاجي^(١) عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجّاج العالم النحوى ببغداد ، فُسب إليه ، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلم كتابه الجُمَل ، وهو كتاب بارع في تعليم الناشئة ، وظل يُدرّس بعده في مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلا عن الشام مدداً متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله أمال تزخر بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله في علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولاً مفصلاً دقيقاً ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لى تحليلية . وقد ترجمت للزجّاجي في كتابي « المدارس النحوية » وأوضحت أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التى تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جديدة . وخرج في سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية - إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد - إلى طبرية فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد في النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع في بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النقيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بحلب حينئذ أبو الطيب^(٢) عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب فى الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه^(٣) اللغوى النحوى واتخذ سيف الدولة مؤدباً لأبنائه ، وله فى اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والمدود وكتاب المذكر والمؤنث وله فى النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب فى القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك ألف كتابه « ليس » فى كلام العرب ، وعقب عليه المحافظ المصرى مغلطائى فى مواضع وسمى كتابه « الميس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان يتزع فى آرائه مترع الكوفة وتوفى بحلب سنة ٣٧٠ .

(١) انظر فى الزجّاجي إنباه الرواة ١٦٠/٢ وابن خلكان

١٧٦/٣ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص

٢٥٢ وبيروكلمان ١٧٣/٢

(٢) راجع فى أبى الطيب مقلمة الناشر لكتابه مراتب

النحويين ونبية الوعاة وبيروكلمان ٢٤٢/٢

(٣) انظر فى ابن خالويه إنباه الرواة ٣٢٤/٩ وابن خلكان

١٧٨/٢ ومعجم الأحياء ٢٠٠/٩ ونبية الدهر ٨٨/٩

وطبقات الشافعية للسبكي ٢٦٩/٣

وبجانب ابن خالويه وأبي الطيب اللغوي كانت هناك طائفة من نخاة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السميساطي وعلي بن محمد العدوي وعبد^(١) الله بن عمرو الفياضي ، وكان معهم النامي الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويًا في بلدته المصيصية ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ . وكان كُشاجم على شاكلة النامي لغويا وشاعرا وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب في البيزرة وكتاب ثان في أدب النديم . ومثله كان الخالديان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولها تصانيف في الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبي تمام وأخبار ابن الرومي . ولمع حينئذ في سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني . وقد تحدثنا عن نشاطهما اللغوي والنحوي في كتابنا « المدارس النحوية » وبهنا هنا أن نذكر أن ابن جني لزم المتنبي في بلاط سيف الدولة وبعد ذلك في بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسهما بُنيت شروحه فيما بعد . وأهم من شرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعري ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيزي سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت^(٢) بن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفي ذلك ما يشير إلى ما قلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه ما يشير أيضا إلى أن بني مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التي بعثها فيها سيف الدولة الحمداني وأسرته .

ولعل بلدًا عربيًا لم يظفر بما ظفرت به الشام في أبي العلاء الشاعر اللغوي العبقري المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشرعية وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله في أشعاره وفي رسائله وكتاباتهِ النثرية ، وكان للغة وغرائبها الحظ الأكبر ، وكأن ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكها في أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرد دائما شروحا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحًا سماه ضوء السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان في مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهي في الزهد والعظات شرحًا ، أنشأه في غريبها وسماه « السادن » كان في

(١) من كتاب (أبو الطيب المتنبي) لبلاشير (ترجمة) (٢) راجع إنباه الرواة ٦٥/١ وانظر معجم الأدباء

عشرين كراسة . ولعل في ذلك ما يشير إلى أنه كان ينبغي في نشر هذا الكتاب أفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع في غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشر كراريس كان ينبغي أيضا أن يُفردَ عنه شرح غاية أو قافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ في رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها ويتنظم في تضاعيفها ، وكان ينبغي أن ينحى عنها ويوضع في هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبي العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التي كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه « لسان الصاهل والشاحج » . وقد نشرتها هي ورسالة الغفران الدكتورة بنت الشاطي ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لعزیز الدولة فاتك الذي كان واليا للفاطمين على حلب^(١) من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم رسالته السندية إلى والي حلب الذي خلف فاتكا : سند^(٢) الدولة بن عثمان الكتامي . ولعل في الرسالتين ما يشير إلى أن ولاية الفاطمين في المدة القصيرة التي تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرعون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل في البلدان الشامية الأخرى التي كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعمل أبي العلاء اللغوي لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرّ بنا أنه شرح ديوان المتنبي وبالمثل شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحري وسماه عبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلّقون حوله يقرءون عليه كتباً لغوية مختلفة ويثبتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد . ويروى أنه ألف في النحو كتابا سماه النافع وكان في خمسة كراريس ولعله صنفه للناشئة . وفي الحق أنه كان إماما كبيرا في اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزي : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري »^(٣) ويعدد الصفدي من رُزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء في الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبي : كان أبو العلاء عجبا في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدا^(٤) ويقول ابن فضل الله العمري : « كان أبو العلاء مطلعا على العلوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف ، متبحرا في اللغة ، متسع النطاق في العربية^(٥) » . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوي الكبير

(٤) تعريف القدماء ص ١٩٠

(٥) تعريف القدماء ص ٢٦٨

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣١

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٤

(٣) أبو العلاء وما إليه للراجكوتي ص ٥٣

لم ينشأ في مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ في بلدة المعرة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كبنى كوثر^(١) ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوي والنحوي الكبير الذي كان مبثوثا لافي مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضا في مدنها وبلداتها الصغرى .

وفي كتب التراجم نحاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونها للناشئة ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم في زمن أبي العلاء ، أحمد^(٢) بن عبد الرحمن الطرابلسي ويذكر مترجموه أنه كان لا يزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافاه بها القدر . وكان يعاصره على^(٣) بن أبي الفتح بن جنى المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية ي صور وصيداء وملتقى من شراح المتنبي بالوآء^(٤) الحلبي اللغوي المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوآء الدمشقي شاعر سيف الدولة ، كما نلتقى في شيزر بمرهف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح^(٥) على ديوان المتنبي ، وتوفى معه في نفس السنة أبو اليمن التاج الكندي زيد^(٦) بن الحسن نحوي دمشقي المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية في الشام أثناء القرن السابع الهجري ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر في هذا الازدهار ، أولهم يعيش^(٧) بن علي بن يعيش الحلبي الدار والمولد ، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب في نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نحاة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جنى ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحه عليها شرحه على كتاب المفصل للزمخشري وهو منشور في عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيرا ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبي علي الفارسي ، وهو بذلك يُسلك في المدرسة البغدادية التي كانت تجمع في مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتنفيذ إلى آراء جديدة في هذه المسألة أو تلك ، وفي كتابنا « المدارس النحوية » توضيح كاف لمنهج ابن يعيش في النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . .

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(٦) مستذكر مصادر ترجمته بين القراء .

(٧) راجع في ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن

الوردى ١٧٦/٢ والشنرات ٢٢٨/٥ وبغية الوعاة ص ٤١٩

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٢) راجع ترجمة الطرابلسي في إنباه الرواة ٨٦/١

(٣) انظر إنباه الرواة ٣٨٥/٢

(٤) انظر في الوآء الحلبي إنباه الرواة ١٨٦/٢

والعلم الثاني لم يكن شاميا بل كان مصرياً ، ومنذ العصر الأيوبي كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعليم في البلدتين ، وكثيراً ما درّس وعلم جلة العلماء الحلبيين والدمشقيين والمقدسيين في مدارس القاهرة ومساجدها مثل يحيى بن معطى المتوفى بمصر سنة ٦٢٨ . وقد وضعناه بين نحاتها المصريين . وكثيراً ما نزل بيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأمضوا حياتهم هناك يعلمون ويدرسون ويفيدون ، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم . وكان العلم المصرى النحوى الذى نزل الشام ابن الحاجب ^(١) عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة في القسم المصرى . وبهنا هنا أن نعرف أنه حين أحس نضجه العلمى رحل إلى دمشق وكان مالكيًا ، فنزل بزاوية المالكية في جامعها الأموى ، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتابيه الرائعين في النحو والتصريف : الكافية والشافية ، وأملى شرحين لهما . وتوالت بعده لتفاستهما الشروح عليهما بين عربية وفارسية حتى بلغت على الكافية - كما استقصاها بروكلمان - سبعة وستين شرحاً ، وعلى الشافية - ستة وعشرين . وظل ابن الحاجب طويلاً في دمشق وطلاب العربية مكثبون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلعة شقيف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وكان يخطب الجمعة في المسجد الأموى ، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة ، وغلا الدم في عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معلناً بذلك احتجاجه على عمله المزرى ، وردّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفى سنة ٦٤٣ .

والعلم الثالث لم يكن مصرياً ولا شامياً ، بل كان أندلسياً ، وهو ابن ^(٢) مالك محمد بن عبد الله ، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو في بلده جيّان ، حتى إذا شعر باكتمال تكوينه العلمى رحل سنة ٦٣٠ وهو في الثلاثين من عمره إلى دمشق ، وظل مدة في حلب يأخذ عن ابن يعيش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متولياً بها مشيخة المدرسة العادلية ، ولم يلبث أن طار صيته في آفاق الشام ، فقصده الطلاب من كل فجٍّ ، وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمى فنظم في النحو ألفيته المشهورة ، وتوالت بعده شروحها حتى بلغت تسعة وأربعين شرحاً ، غير ما على بعض شروحها من حواشٍ . وألف في النحو بجانبها كتابه التسهيل وله عشرة شروح ، وله في

(١) انظر في ابن الحاجب ابن خلكان ٢٤٨/٣ وابن فرحون ص ٣٧٢ وبروكلمان ٣٠٨/٥ والمدارس النحوية ص ٣٤٣ .
(٢) انظر في ابن مالك ومصادره كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وبروكلمان ٢٧٥/٥ - ٢٩٦ .

الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، وتحفة المودود في المقصور والمدود ، وإيجاد التعريف في علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفًا بين منظوم ومثور ، وأوضحت في كتاب المدارس النحوية منهجه في النحو وأنه كان منهجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنعود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا في السّفر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو في الأندلسيين .

وتظل دراسات اللغة والنحو في الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نخبة الشام ولغويها الذين تكوّنوا في موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء^(١) الدين بن النحاس الحلبي المولود سنة ٦٢٧ سمع مواطنه ابن يعيش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتفّ الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفي سنة ٦٩٨ ويُنسب له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف . ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ^(٢) محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحّة الحريري ومختصر لصحاح الجوهري جرّده فيه من الشواهد ، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء^(٣) الدين بن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبي الأصل والمولد ، وقد لزم شيوخ الفقه الشافعي والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوي الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُني به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشغل بالتدريس في مدارس متعددة حتى توفي سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين النازلين بالقاهرة إلى أن ندل من جهة على أن التبادل العلمي بين القاهرة والشام في النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجري نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذاك كان بارعا في القراءات أو في الفقه وأصوله وأيضا في العربية ، ولم تكن توجد بلدة لافي الشام فحسب بل أيضا

(١) راجع ابن النحاس فوات الوفيات ٣٥٠/٢ وبغية

الوعاة ص ٦ والشذرات ٤٤٢/٥

(٢) انظر في ابن الصائغ فوات الوفيات ٣٨٠/٢ والبداية

والنهاية ٩٨/١٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٨/٩

(٣) راجع في ترجمة ابن عقيل الدرر الكامنة ٣٧٢/٢

والبغية ص ٢٨٤ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٥٥

في كل العالم العربي الا وهي تعنى بدراسة اللغة والنحو . وظل كثيرون من شيوخ العربية يضعون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته .

ونمضى إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة ، إذ لا يستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها ، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة ، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء نابهون في مقدمتهم الشيخ ياسين^(١) بن زين الدين العليمي المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة ، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى ، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام . والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكذب بترك كتابا من كتب النحو الكبرى التى تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل مع الهوامع للسيوطى والمغنى لابن هشام وارتشاف الضرب (عسل النحو) لأبى حيان . بل لقد أمعن في قراءة النحو عند ابن يعيش ، وتجاوزه إلى من سبقوه ، من أئمة المذاهب النحوية ، بحيث تحول بحاشيته إلى ما يشبه موسوعة نحوية كبرى ، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام في زمن العثمانيين كانت لاتزال نشيطة تحفُّق بغير قليل من الحيوية لم تكن مبالغين .

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والنقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث في الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصططنه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمي فيما بعد باسم البديع ، ويلاحظ ذلك الجاحظ على العتّابي الشاعر الشامي لزمن الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار^(٢) زعيم المجددين في العصر العباسى الأول . وما يزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينميتها حتى ليتخذها كالمذهب له ، وما يلبث أبو تمام الشاعر الشامي أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية المنتظرة من تكوين هذا المذهب الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني . (هو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائي)^(٣) . وآثرنا في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » أن نسميه مذهب

(٣) انظر ترجمة مسلم بن الوليد الملحقه بديوانه نشر الدكتور سامى الدهان

(١) انظر فى الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمعجى ٤٩١/٤

وحاشيته طبعت بمصر مراراً

(٢) البيان والتبيين ٥١/١

التصنيع أى التنميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبى تمام^(١) . على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية^(٢) . ومن ذلك نخلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند العتاتى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير منازع .

ومانتقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصند حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبىلا مثقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسحقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تُنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارت شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مظار ، وسرعان ماالتفت حوله وعاش فى كنفه من تحدثنا عنهم آنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المتنبى تسع سنوات طويلا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال النامى والكتاب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدوّنون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى - كما مر بنا - وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرا ، وكان أبو على الفارسى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سُئل عن لفظة فى شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده^(٣) :

وفاؤكما كالأربع أشجاء طاسمة بأن تُسعدا والدمعُ أشفاه ساجمة

وكان ابن خالويه حاضرا فقال له : ياأبا الطيب إنما يقال شجاء ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب : اسكت فما وصل الأمر إليك^(٤) . وكان ذلك سببا فى أن فسد

(١) فى البكاء . يقول لصاحبيه : اسكبا معى الدمع فإنه أشقى للخليل كما أن الربيع أكثر شجاء للمحب إذا درس .

(٢) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم (طبع ونشر دار نهضة مصر) ص ٢٩٨ .

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة - نشر

دار المعارف) ص ٢٣٩

(٢) الفن ومذاهبه ص ٢٤٧

(٣) يخاطب المتنبى باليت صاحبين له على عادة العرب .

أشجاء : أحزنه . طاسمه : دارسه . بأن تسعدا : بالمساعدة

ما بينهما طوال مقام المتنبي عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤلِّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المتنبي يغادر حلب إلى غير مآب . والمهم أنه كان يعتقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوي حول شعر المتنبي في حلقة سيف الدولة ، وصورٌ من هذا النقد كانت تعتقد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ما كانوا يتحاورون في سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقينهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخرى . وجميعها صور من النقد الذي يصقل الملكة الأدبية ، وصورٌ ذلك أبو بكر الخوارزمي الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان في الحلقة من نقد خصب ، فقال : « ما فتق قلبي وشحد فهمي وصقل ذهني وأرهف حدَّ لساني وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي ، وغصنُ الشباب رطيب ورداء الحداثة قشيب »^(١) .

ونلتقي بعد هذه الحلقة بأبي العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوي ، فهو يضمنها شروحه لدواوين أبي تمام وسمَّاه ديوان حبيب وديوان المتنبي وسمَّاه معجز أحمد - كما مر بنا - وراجع البحرى مرارًا ناقدًا له ولذلك سمى شرحه لديوانه - كما أسلفنا - عبث الوليد وهو اسمه والبحرى لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم في شروحه للشعراء الثلاثة عما في أشعارهم من غريب وما أخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم ، وأحيانا ينتصر لهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه - ما استطاع - لما يُظنُّ أن أبا تمام والمتنبي أخطأ فيه . ولأبي العلاء في رسالة الغفران نقد كثير أجراه في القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقي الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العويصة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب في أوزانها وقوافيها . وسوى من هذا النقد في الرسالة الدكتور أمجد الطرابلسي كتابا بعنوان : « النقد واللغة في رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطا في الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعي^(٢) المتوفى سنة ١٠٧٣ يُولف كتابين نفيسين في النقد والتاريخ الأدبي ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » و« الصبح المنبي في الكشف عن حيثية المتنبي » وهو يعرض في الكتابين سيرة الشاعرين عرضا تفصيليا كما يعرض آراء النقاد السابقين فيهما ، ولا يكاد يترك خبرا مهما يتصل

(١) التبعة للثعالبى (بتحقيق محمد محي الدين) (٢) انظر في البديعى خلاصة الأثر ٥١٠/٤ .

بشيرتهما ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارهما مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتمامًا واسعًا ، وكان أول كتاب صدر لها في هذه الدراسات كتاب ^(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ وسنترجم له بين الشعراء . والكتاب - كما يتضح من عنوانه - يناقش قضية الفصاحة ويقدم لها بحديث عن أحكام الأصوات ومخارجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعاني . ويتناول صفات الفصاحة في الكلمة المفردة ثم في الكلام ، ويخوض في تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة وما يرتبط بها من البلاغة والبدیع ومحسناته . وملتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وسنترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع في نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالمحسنات البديعية ، وقد عرض منها في الكتاب خمسة وتسعين محسنًا . ويصنف الزمّلکانی ^(٢) الدمشقي عبد الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابًا بعنوان « التبيان في علم البيان » استضاء فيه كما قال في مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بعلوم المعاني والبيان والبدیع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . وملتقى سريعا بيدر ^(٣) الدين بن محمد بن مالك الأندلسي العالم النحوي الذي تحدثنا عنه آنفا بين النحاة ، وله مثل أبيه مباحث نحوية ، وعنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكي في كتابه « المصباح في علوم المعاني والبيان والبدیع » وقد أدخل ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع - مثل السكاكي - ذيلًا لعلمي المعاني والبيان ، بل جعله علمًا مستقلًا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنًا .

ولم يلبث الخطيب ^(٤) القزويني الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصًا دقيقًا واضحًا

٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢٧٣/٧ والشذرات ٣٩٨/٥ والبيغة ص ٩٠٦ وانظر في تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣١٥ .

(٤) انظر الخطيب في الدرر الكامنة لابن حجر ١٢٠/٤ والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩ والشذرات ١٢٣/٦ وراجع في تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥ وما بعدها .

(١) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .

(٢) انظر في ترجمة الزمّلکانی السلوك للمقریزی ٣٨٩/١ والسبكي ٣١٦/٨ والشذرات ٢٥٤/٥ وبيغة الوعاة ص ٣١٦ وراجع في تحليل كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » ص ٣١٤ .

(٣) راجع في ترجمة بيدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكي

لكتاب المفتاح كُتب له أن يذيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُنى ببسط قضايا علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع في كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التي حظى بها تلخيصه . ويصنّف ابن قيم ^(١) الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعاني والبديع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يعاصره الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُنى بثلاثة فنون من فنون البديع : الجنس وله فيه كتاب جنان الجنس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيها كتاب فض الحُتام في التورية والاستخدام وبتدار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصبح في زمن تأليف البديعيات وشروحها وهي قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع . وينظم ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ بديعية في مائة واثنين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا سماه بحق خزنة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مهما لمن يكتبون عن الأدبين المصري والشامي في تلك الحقب ، مع منتخبات بديعية للشعراء والكتّاب تدل على ذوق أدبي مرهف ، وسنترجم له بين الكتّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام العثمانيين ، ولعبد الغنى النابلسي الذي سنترجم له في غير هذا الموضع بديعيتان ^(٢) ومع كل بديعية شرح خاص بها .



علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذت الشام تُعنى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قرائتها في الصدر الأول أبو الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلّى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومربنا ذكر ذلك وأنه كان

(١) راجع في ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤ ص ٣١٩
والبدر الطالع ١/٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ١٠/٢٤٩ وطبقات
الحنابلة للشطبي ص ٦/١ وكتابتنا « البلاغة : تطور وتاريخ »
(٢) انظر الحديث عنها في كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ
٣٦٤ وما بعدها

يجعل الناس عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريقا ، وعدّ يوما من يقرءون عنده فوجدهم ألفا وستائة ونيفا ، ولعل في ذلك ما يوضح إقبال الناس في الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوون به في مساجدها . وخلف أبا الدرداء في إقراء الناس بدمشق عبد^(١) الله بن عامر اليمنى المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريقا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماعه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبي شهاب ، قرأ عليه القرآن ، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ما جعل ابن مجاهد بعد اختياره بين القراء السبعة المقدمين ، إذ كان بحق إمام أهل الشام في القراءة ، ويقول ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزرى في ترجمته : « لازال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى^(٢) بن الحارث النُّمَارِيّ الدمشقي إمام الجامع الأموي المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب^(٣) بن تميم الدمشقي المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد^(٤) الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثاني عراق^(٥) بن خالد شيخ أهل دمشق في زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام^(٦) بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر في الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تتقابلان في كتاب السبعة لابن مجاهد : الأولى أخذها عن أحمد بن يوسف التغلبي ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولا بد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثاني فقد نزل المدينة عتبة بن حباد الدمشقي ، قرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته^(٧) ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر^(٨) الغساني عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويغلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

- | | |
|---|----------------------|
| (١) راجع في ابن عامر وقراءته وأساتيده كتاب السبعة | (٤) ابن الجزرى ٤٠٤/١ |
| لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١ | (٥) ابن الجزرى ٥١١/١ |
| وكتاب طبقات القراء لابن الجزرى ٤٢٢/١ | (٦) ابن الجزرى ٣٥٤/٢ |
| (٢) ابن الجزرى ٣٦٧/٢ | (٧) ابن الجزرى ٤٩٩/١ |
| (٣) ابن الجزرى ١٧٢/١ | (٨) ابن الجزرى ٣٥٥/١ |

ومرّ بنا ذكر ابن خالويه في بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر في حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم - فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضاً فإن له في توجيه تلك القراءات كتاباً معروفاً . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئاً كبيراً هو أبو الطيب عبد^(١) المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد في القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر^(٢) المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة في القراءات الثمان وهو أستاذ أبي عمرو الداني صاحب كتاب التيسير المشهور في القراءات . وذكرنا في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين ما اعتمدنا عليه في تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة في علل القراءات السبع لأبي على الفارسي تلميذ ابن مجاهد تحفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد المنعم بن غلبون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبي على الفارسي مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مرّ بنا . ويصنف عبد^(٣) الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المجتبي في القراءات . وتلتقى بالحسن^(٤) بن على الأهوازي شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعرى والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر - فيما بعد - كتابه : تبين كذب المقتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعرى ، وكانت له مؤلفات كثيرة في القراءات والقرآن وعلومه .

وما يزال التأليف في القراءات والقرآن وعلومه مستمرا في الشام حتى تلتقى بآب^(٥) الطحان عبد العزيز بن سلمة نزيل حلب المتوفى حول سنة ٥٦٠ وله تصانيف مفيدة في علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . وتلتقى في أيام الأيوبيين بآب^(٦) الكندي زيد بن الحسن نزيل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

الزاهرة ٥٦/٥

(١) انظر في عبد المنعم بن غلبون طبقات القراء ٤٧٠/١

وطبقات الشافعية للسيكي ٣٢٨/٣

(٥) انظر في ابن الطحان ابن الجزرى ٣٩٥/١

(٢) راجع في «طاهر» ابن الجزرى ٣٣٩/١

(٦) راجع في آب^(٦) الكندي ابن الجزرى ٢٩٧/١ ومعجم

(٣) انظر في عبد الجبار ابن الجزرى ٣٥٧/١

الأدياء ١٧١/١١ وخطط الشام ٤٧/٧ والبلدانية والنهاية

٧١/١٣ وإنباء الرواة ١٠/٢ وابن خلكان ٣٣٩/٢

(٤) راجع في الأهوازي ابن الجزرى ٢٢٠/١ والنجوم

ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثا وثمانين سنة . ومن تلاميذه علم^(١) الدين السخاوي على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفا وأربعين سنة حتى توفي سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة في القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الإقراء . ومن تلاميذه الذين تصدّروا القراءة في دمشق أبو الفتح^(٢) محمد بن علي ولي مشيخة القراءة بترية أم الصالح ، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ تولى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضي عبد السلام الزواوي المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالترية الصالحية بعد وفاة شيخها أبي الفتح وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام في القرن الثامن ابن^(٣) جبارة المقدسي ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر في بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفي سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان^(٤) الدين الجعبري استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفي سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصنّف في القراءات كتاب نزهة البررة في القراءات العشرة . وولتقى بابن البارزي قاضي حجة ومفتي الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشريعة في قراءات السبعة . وما نزال نقرأ عن مؤلفات شامية في القراءات حتى نصل إلى ابن^(٥) الجزري محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر في القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية في طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسي في الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملي بدمشق أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علمائها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه ، وتولّى مشيخة الإقراء بالجامع الأموي حتى توفي سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشيطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث ، يتجرّد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالتفسير أو الفقه أو علوم العربية .

وعلى نحو ما عُنيت الشام بالقراءات عُنيت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبري

(١) انظر في علم الدين السخاوي معجم الأدباء ٦٥/١٥

وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنباء الرواة ٣١١/٢ وطبقات

القراء ٥٦٨/١ والسبكي ٢٩٧/٨

(٢) راجع ابن الجزري ٢١١/٢

(٣) انظر في ابن جباره ابن الجزري ١٢٢/١ والدرر رقم

٦٦٧ والشذرات ٨٧/٦

(٤) راجع في الجعبري ابن الجزري ٢١/١ والدرر رقم

١٣٠ والشذرات ٩٧/٦

(٥) ترجم ابن الجزري لنفسه في كتابه طبقات القراء

٢٤٧/٢ وألحقت بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض

تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوي ١٤٠ ودائرة المعارف

الإسلامية

تفسيره أكتب عليه تدرسه ، ويلقانا لها مفسر مهم هو عبد^(١) الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربي واستخدمها في تفسيره لمعاني الألفاظ القرآنية . وولتقى بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير^(٢) للقرآن الكريم . ويلقانا في أيام نور الدين محمد بن ظفر المكي الذي عرضنا له في الحديث عن شعراء الزهد في الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة »^(٣) . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشري هو عالي^(٤) بن إبراهيم الغزنوي وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيراً كبيراً في مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفي الكبير ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفي لم يتمه وهو مطبوع . وللغزبن عبد السلام الفقيه الشافعي الدمشقي نزيل مصر الذي عرضنا له فيها بين فقهاء الشافعية تفسير بلاغي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقى في أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزي وابن تيمية ، أما هبة^(٥) الله فكان قاضياً لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعي بالشام وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وله روضات الجنان في تفسير القرآن في عشر مجلدات توفى سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مر بنا حديث مفصل عنه في الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه في التفسير القرآني وقد صورته في رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجملناه في مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير وعلى المعتزلة والشيعة الباطنية الذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة في تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عربي ، ورأى أن خير طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين الذين عايشوهم وعرفوا منهم معاني القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله وما يتصل به من إتقان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تذوقه لخصائصه البلاغية يستطيع المفسر أن يجتهد في التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبق منهجه على سورة النور وسورتي المعوذتين القصيرتين

(٤) راجعه في تاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٤٩ والبداية

والنهاية ١١٤/١٣

(٥) انظر في ابن البارزي الدرر ج ٣ رقم ١١٠٣

وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشذرات ١١٩/٦

(١) انظر في ابن عطية الدمشقي طبقات المفسرين

للسيوطي رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وبروكلمان ١٥/٤

(٢) خطط الشام لكرد على ٤١/٤

(٣) تنمة المختصر لابن الوردي ٨٧/٢

وخصَّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث في مضمونها من خلال القرآن جميعه .

ونهج نهج ابن تيمية في تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح في كتابه . « التبيان في أقسام القرآن » وفي تفسيره للمعوذتين . وكان يعاصره السمين^(١) الحلبي أحمد بن يوسف وكان نحويًا مقرئًا ونزل مصر وبها توفي سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخيم في عشرين مجلدا ، وكتاب في إعراب القرآن في ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون ، وكتاب في أحكام القرآن ، وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك في النحو . وولتقى بابن^(٢) كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرت تفسيره مطبعة المنار في تسعة أجزاء ، وعداده في التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين في تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثى الفقهاء » ويقول الشوكاني مثنيا على تفسيره : « جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها » ويصنف العليمى عبد الرحمن بن محمد الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيرًا للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشغلت الشام منذ دخلت في الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوى مكمل الدين القيم ومبينه وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون يحدثون به الناس من أمثال مكحول^(٣) مفتى الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد^(٤) بن شهاب الزهري أول من دون الحديث تدوينا عاما ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثة وعشرين عاما إذ توفي سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

خلكان ٢٨٠/٥ وميزان الاعتدال ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب

٢٨٩/١٠ والشذرات ١٤٦/١

(٤) انظر في الزهري صفة الصفوة ٧٧/٢ وابن خلكان

١٧٧/٤ وميزان الاعتدال ٤٠/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩

وطبقات القراء ٢٦٢/٢

(١) راجع في السمين الحلبي طبقات القراء ١٥٢/١

والدرر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشذرات ١٧٩/٦

(٢) انظر في ترجمة ابن كثير الدرر ج ١ رقم ٩٤٨

والشذرات ٢٣١/٦ والبدر الطالع ١٥٣/١

(٣) راجع في مكحول حلية الأولياء ١٧٧/٥ وابن

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوي وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعداده في الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عيينة وسفيان الثوري فقيها العراق . وعن تلاميذ الزهري والأوزاعي في الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذي مرّ بنا ذكره بين القراء . ومن حمل عنه الحديث القاضي عبد ^(١) الصمد بن عبد الله قاضي دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقي شيخ الشام في الحديث. وملتقى بخيثة ^(٢) بن سليمان الطرابلسي أحد الحفاظ الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣. ولا تلبث بلدة طبرية بالشام أن تقدّم سليمان ^(٣) بن أحمد الطبراني المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير، وقد جمع في الكبير أحاديث جميع الصحابة ما عدا أبا هريرة إذ أفرد له كتابا خاصا. وكان يعاصره الحسين ^(٤) بن محمد الماسرّجسيّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار، صنّف المسند الكبير مهذّبا معلّلا في ألف وثلاثمائة جزء ولم يصنّف في الإسلام أكبر من مُسنّده وجمع حديث ابن شهاب الزهري جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء. وملتقى بحافظ من صيّداء هو أبو الحسين ^(٥) محمد بن أحمد الغساني المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسماء الرواة. ويلقانا حافظ من صور هو محمد ^(٦) بن علي الصوري المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات. ويلقانا حافظ بيت المقدس محمد ^(٧) بن طاهر المقدسي المعروف باسم ابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات في الحديث النبوي متعددة، منها: «أطراف الكتب الستة» وهي صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٤) انظر في الماسرخسيّ النجوم الزاهرة ١١١/٤
(٥) راجع الغساني في النجوم ٢٣١/٤ وبيروكلمان ٢١٤/٣
(٦) انظر في الصوري تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣١١/٣ وبيروكلمان ٢٣١/٣
(٧) راجع في ابن القيسراني المنتظم ١٧٧/٩ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والوافي للصفدي ١٦٦/٣ وميزان الاعتدال ٥٨٧/٣ وعبر الذهبي ١٤/٤ والشذرات ١٨/٤

(١) راجعه في النجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر في أبي زرعة النجوم ٨٧/٣
(٢) انظر في خيثة تذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والشذرات ٣٣٤/٢
(٣) راجع في الطبراني تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٤٠/٦ وابن خلكان ٢٠٧/٢ والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وعبر الذهبي ٣١٥/٢

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين في مقدمتهم أبو القاسم^(١) بن عساكر المتوفى سنة ٦٧١ وبني له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله في الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها « الأطراف » جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة الثقات في الحديث ، وله وراء ذلك آمال كثيرة . وجاء بعده عبد^(٢) الغنى الجماعيلي المتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب في أحاديث الأحكام الشرعية سماه « عمدة الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام » وكتبت له الأجيال التالية شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزني الآتي ذكره تكملة بعنوان « تهذيب الكمال » وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مغلطاي بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، وملتقى بابن^(٣) الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق في علوم حديث الرسول ، طبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . ويلقانا محيي الدين النووي الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعون النووية وكتاب التقريب في مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرس بدار الحديث الأشرفية في دمشق وغيرها . وكان يعاصر النووي اليونيني على^(٤) بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخاري ، اذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة في أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين في العالم الإسلامي ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها في واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبي ذر الهروي وأصل ثان مسموع للحافظ أبي محمد الأصيلي وأصل ثالث مسموع لأبي القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبي الوقت بقراءة السمعاني . وكان بجواره في تلك المجالس الإمام النحوي ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جعله فيما بعد يملئ كتابا مستقلا

الحفاظ ١٤٣٠/٤ والسبكي ٣٢٦/٨ والبداية والنهاية

١٦٨/١٣ والشذرات ٢٢١/٥

(٤) راجع اليونيني في الدرر لابن حجر ١٧١/٣ والسلوك

٥٢٤/١ والنجوم الزاهرة ١٩٨/٨ والشذرات ٣/٦

(١) مرت مصادر ترجمته في ص ٥٦٣ .

(٢) راجع في الجماعيل تذكرة الحفاظ ١٦٠/٤ وطبقات

الحفاظ للسيوطي ١٨ وكتابه حسن المحاضرة ٣٥٤/١ والعبر

٣١٣/٤

(٣) انظر في ابن الصلاح ابن خلكان ٢٤٣/٣ وتذكرة

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليوناني في مجالسه المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفي أيديهم نسخ من صحيح البخاري للمقابلة . واتخذ اليوناني رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونانية ، وهي نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليوناني بسماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بسماعها منه . وهي ذروة في التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليوناني ، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا « البحث^(١) الأدبي » .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن الهجري الميزي^(٢) يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رئاسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف « طبع في الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزي من مفاخر دمشق في زمنهما وله في الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقي ومختصر الأطراف للمزي والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين المؤرخين . ومن محدثي القرن التاسع بدر^(٣) الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القاري في شرح صحيح البخاري » والخيزرى^(٤) الدمشقي محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخاري المسمى بالفتح الباري . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلاني على صحيح البخاري وشرح النووي على صحيح مسلم .

وطبيعي أن يكون الفقه نشيطا في الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى في القضايا الشرعية وما يعرض لهم منها في حياتهم اليومية ، وفعلا تكوّن للشام إمام أنشأ مذهبا فقهيا ظل فيها طويلا بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي

(١) البحث الأدبي (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها

(٢) انظر المزي في الدرر ٢٣٣/٥ والنجوم الزاهرة ٧٦/١٠ وشذرات الذهب ١٣٦/٦ والبداية والنهاية ١٩١/١٤ والسبكي ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردي ٣٣٢/٢ وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥١٧ والدارس في أخبار المدارس ٣٥/١

وتذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبدر الطالع ٣٥٣/٢
(٣) انظر في العيني حسن المحاضرة ٤٧٣/١ والفوائد البية ٢٠٧ والضوء اللامع ج ١٠ رقم ٥٤٥ والشذرات ٢٨٦/٧ والبدر الطالع ٣٩٤/٢
(٤) راجع في الخيزرى الضوء اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعي ^(١) صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفي سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده بعلبك ومنشؤه بيروت ، واتخذها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكي إنه : « لم يكن يلى القضاء بدمشق والخطابة والإمامة - قبل ظهور مذهب الشافعي فيها لأواخر القرن الثالث كما سيتضح عما قليل - إلا أوزاعي على مذهب الإمام الأوزاعي ^(٢) . ويذكر المؤرخون أنه ولي القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد ^(٣) إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكي يشملهما وأنهما كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعي . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تغرى بردي أنه توفي لسنة ٣٤٧ قاضي دمشق أحمد ^(٤) بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموي وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعي كان لا يزال حيًا في دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري . ومعروف أن الأمويين في أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا عنه إلى مذهب مالك في أواخر القرن الثاني للهجرة ^(٥) ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالا عن مذهب الأوزاعي .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة حين ولي قضاء القضاة لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاة في الدولة الإسلامية كان لا يولى قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمنتسبين إلى مذهبه الحنفي ، ونظن ظنا أنه كان يوجد في دمشق أحيانا قاض حنفي بجانب القاضي الأوزاعي ، وربما كانا يتداولان الحكم . ومن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضي دمشق علي ^(٦) بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظنا أن حلب كانت أسرع من دمشق في الانصياع لمذهب أبي حنيفة

(٣) انظر فيه وفي أبيه النجوم الزاهرة ٢/٢٢ ، ١١٣ ، ٢٦٠

(٤) راجع في ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣/٣٢٠ وفي السبكي ١٩٦/٣ : ابن خديم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي لبلانثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٣/٢٦٠

(١) انظر في الأوزاعي الجزء السابع من طبقات ابن سعد والأنساب للسمعاني ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتاريخ بغداد ١٠/١٩٩ وتذكرة الحفاظ ١/٥٨ وشذرات الذهب ١/١٤١ والنجوم الزاهرة ٢/٣٠ ومحاسن المساعي في مناقب الأوزاعي (طبع القاهرة) صنفه مؤلف مجهول سنة ٨٥٠ وضحي الإسلام ٢/٩٨

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/٣٢٦

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها في ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبي الفهم^(١) التنوخي الأنطاكي المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فقيها حنفياً بارعاً . وولتقى في حلب بأحمد^(٢) بن يحيى بن زهير الحلبي المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه من مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بني أبي جرادة هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكبت على المذهب تدرسه وتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم في القرن السابع كما سنذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة في دخول مذهب أبي حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثاني كانوا أحنافاً ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين يبغون اعتناقه ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفي . ويلقانا المفضل^(٣) بن محمد المعري الحنفي المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدوري الحنفي البغدادي وليّ القضاء بعلبك وناب في القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب في الرد على الإمام الشافعي . ويلقانا البلاساغوني^(٤) محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبي حنيفة ، وليّ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاة قبله في الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموي ، فحاول أن يقيم فيه إماماً حنفياً ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يملكوه وعُزل وعاد القضاء في دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أسست في دمشق - كما مر بنا - المدرسة الصادرة سنة ٤٩١ ويعدُّ ابن شداد من فقهاء حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيها حنفياً ، وذكر النعيمي بعده فقهاءها إلى نهاية أيام المالك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها في دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعاً وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهاءها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعيمي . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وما أنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجية سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق - على المذهب الحنفي من قديم كما مر بنا . واشتهرت فيها أسر بتوارث هذا المذهب مثل أسرة بني العديم ، وعنى نور الدين

(١) النجوم الزاهرة ٣/٣١٠ وتاج التراجم رقم ١٣٥
 (٢) انظر ابن زهير في تاج التراجم رقم ٤١ وقابل بمعجم الأدياء ٥/١٦ وما بعدها .
 (٣) راجع المفضل في النجوم الزاهرة ٥/٥٢ وتاج التراجم
 رقم ٢٢٤
 (٤) انظر في البلاساغوني النجوم الزاهرة ٥/٢٠٤ والسبكي ٣٢٦/١

بالمذهب وكان حنفياً وأسس له مدرستين : مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفي وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصري ^(١) الذي انتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني : شرح مفصل في ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر في مجلدين سماه الوجيز ، ومع إيجازه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشرح أيضاً للشيباني كتاب السير الكبير وهو في الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوات والحرب ، وله كتاب في الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعلم في المذهب حتى ألف فيه كتاباً ^(٢) . وليس ذلك فحسب ، فقد كلف الحصري وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتاباً في عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وتُظَلُّ الشَّامُ أيامُ الممالك ويقرر الظاهر بيبرس أن لا يُقْتَصَرُ في مصر على قاض شافعي كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه في القضاء قاض حنفي وقاض مالكي وقاض حنبلي وعمم ذلك في دولته بدمشق وحلب وغيرهما من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة في ازدهار المذهب الحنفي بديار الشام بجوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار بيبرس عبد ^(٣) الله بن محمد بن عطا الأذري المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاة الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذري المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرّس طويلاً بمدارسها الحنفية . وتتكاثر أسماء القضاة والفقهاء الأحناف في كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطاً وافراً أداه فقهاء الأحناف في ديار الشام بالحقب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان ^(٤) الدين الحلبي المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب مَلْتَقَى

(١) راجع في الحصري الفوائد البية في طبقات الحنفية

٨٤ والجواهر المضية لابن أبي الوفا ١٥٥/٢ وتاج التراجم رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٥٢/١٣ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٦

(٢) انظر في المعظم عيسى ونشاطه في الفقه الحنفي مختصر

مرآة الزمان ٤٢٦

(٣) انظر في الأذري النجوم الزاهرة ٢٤٦/٧ والسلوك للمقريزي ٦١٩/١

(٤) راجع في برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٤٣٣/٢

الأبهر في فروع الفقه الحنفي ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية . وصنف شمس الدين العرناشي الغزي المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار في الفقه الحنفي ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا في الشام المذهب المالكي ، ويأخذ في النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من البيمارستان النوري ، ويذكر ابن ترداد من أساتذتها المهمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مر بنا ذكره بين النحاة وله مختصران نفيسان في الفقه المالكي وعلم الأصول ، ودرس الفقه المالكي أيضا في زاوية المالكية الملاصقة لغربي الجامع الأموي ، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه في المدرسة الصلاحية عبد^(١) السلام الزواوي المتوفى سنة ٦٨١ وإليه انتهت رئاسة المالكية بالشام ومشيخة القراء ، وكان معمرا ، توفي عن ٩٢ عاما . ولا يذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هي مدرسة الشرايشي في حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكي كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم في بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكي ، وكان أول من تولى القضاء المالكي بدمشق حينئذ عبد السلام الزواوي المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية يدرسون للناس المذهب ، ومن أهمهم عيسى^(٢) بن مسعود مدرس الفقه المالكي بالجامع الأموي المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكي . لمصنفها سحنون ناشر المذهب في الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب في مناقب مالك ، وإليه انتهت رئاسة المالكية في الشام . ويلقانا في كتب التراجم كثيرون يتنقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكي . ويأخذ نشاط المالكية أيام العثمانيين في التضاؤل والشحوب .

وكان أول من أدخل مذهب الشافعي - فيما يبدو - إلى الشام أبو زرعة^(٣) بن عثمان الدمشقي ولي القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولي القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفي سنة ٣٠٢ ويقول

(٣) راجع أبازرعة في قضاة دمشق لابن طولون (طبع دمشق) ٢٢ والبداية والنهاية ١٢٢/١١ والشذرات ٢٣٩/٢ . والسبكي ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

(١) راجع في عبد السلام الزواوي النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداية والنهاية ٣٠٠/١٣ والسلوك ٥٤٢/١

(٢) انظر في ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

السبكي في كتابه طبقات الشافعية : لم يل القضاء بعده في الشام إلا شافعي المذهب غير ابن حنبل ، قاضي الشام فإنه كان أوزاعي المذهب كما مر بنا . ومر بنا أيضا أنه ولي قضاء الشام حتى توفي سنة ٣٢٥ . ويغلب أن يكون هذا شذوذا وأن تكون عبارة السبكي صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد ^(١) الله بن محمد القزويني قاضي الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين ^(٢) بن أبي زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا لدمشق في زمن الإخشيد ، وأبو ^(٣) يحيى البلخي زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا لدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر الميائنجي قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرد في القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعي ودراسته في مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ مقرر حلب يسلكه السبكي بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائري ^(٤) الحسن بن حبيب الدمشقي إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقانا في القرن الخامس فقيه شافعي هو أبو ^(٥) الخير المروزي يستوطن المعرة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب في فقه الشافعي يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . وملتقى من قضاة دمشق بأبي المظفر عبد ^(٦) الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر ^(٧) بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفتي ويحدث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالي منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب في الفقه الشافعي : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه في الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعي في مرحلة كبرى جديدة ينتشر فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأمينية في سنة ٥١٤ ويعتد ابن شداد في

-
- | | |
|--|--|
| (١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبداية والنهاية ١١/١٥٧ | (٥) انظر أبا الخير في السبكي ٤/٢٩٩ |
| والعبر ٢/١٦٢ والسبكي ٣/٣٢٠ | (٦) راجع في أبي المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكي ١٠٠/٥ |
| (٢) راجع الحسين في السبكي ٣/٢٨١ وقضاة دمشق ٢٧ | (٧) انظر نصر بن إبراهيم في تهذيب الأسماء واللغات ١٢٥/٢ والسبكي ٥/٣٥١ والعبر ٣/٣٢٩ ومرآة الجنان ٣/٣٩٥ |
| (٣) انظر البلخي في قضاة دمشق ٢٨ والسبكي ٣/٢٩٨ | |
| والشذرات ٢/٣٢٦ والعبر ٢/٢٢٢ | |
| (٤) راجع في الحصائري السبكي ٣/٢٥٥ وقارن مع ابن غلبون في السبكي ٣/٣٣٨ | |

كتابه «الأعلاق الخطيرة» من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرة من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين - وكانوا شافعية إلا ما كان من اعتناق المعظم عيسى للمذهب الحنفى - ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيًا ، وبلغت مدارس الشافعية - كما أحصاها ابن شداد - أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين النابيين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لا يقل عن مائة وستين فقيها نابيا ، واطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيما أحصاه بعدها النعمى فى كتابه «الدارس» وأيضا فيما قابلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاض لم يحدث أثرا عكسيا فى المذهب كما كان يُظنّ ، إذ كان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهورهم ، فمنهم ابن ^(١) أبى عصرون قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبني له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبلبك ، وبني هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكى عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه «صفوة المذهب» فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العزيز عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محيى الدين النووى ^(٢) المتوفى سنة ٦٧٦ عن

(٢) راجع فى النووى السبكى ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية ٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ والعبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك ٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

(١) انظر فى ابن أبى عصرون خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكى ١٣٢/٥ ونكت الحميان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والعبر ٢٥٦/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤

خمسة وأربعين عاما ، ومربنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته في فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المحرر للرافعي القزويني ، واختصر منهاج فيما بعد الشيخ زكريا الأنصاري ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووي في فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار في زمنه وبعد زمنه علاء^(١) الدين الباجي المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الزملاكاني حفيد عبد الواحد الذي ذكرناه بين البلاغيين توفي سنة ٧٢٧ . وتفيض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلّة من هؤلاء الفقهاء ، ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا ينزلون في الشام مثل تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموي مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعي مزدهرا بالشام أيام المماليك والعثمانيين .

وكان المذهب الحنبلي في الشام أقل أشياعا وأنصارا من المذهب الشافعي والحنفي ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلي هو أبو القاسم الخرققي عمر^(٢) بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دوت شهرته هو « المختصر » في الفقه الحنبلي ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لا يتعش في ديار الشام حتى قبض له في القرن الخامس أبو الفرج^(٣) الشيرازي المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه في بغداد على أبي يعلى صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيما حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا في دمشق فحسب بل أيضا في بيت المقدس وغيرها من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة في الفقه الحنبلي والأصول ، منها : المبهج والإيضاح ، ومختصر في الحدود وفي أصول الفقه ، والتبصرة في أصول الدين ، وله كتاب الجواهر في التفسير ثلاثون

(١) انظر في علاء الدين الباجي الدرر الكامنة ١٧٦/٣ الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعاني ١٩٥ وابن طبقات الشافعية للسبكي ٣٣٩/١٠ وفوات الوفيات ١٥٠/٢ وحسن المحاضرة ٥٤٤/١ والشنرات ٣٤/٦
(٢) انظر في الخرققي تاريخ بغداد ٢٣٤/١١ وطبقات خلكان ٤٤١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣
(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق) ٨٥/١ وما بعدها

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد^(١) الوهاب بن طالب التيمي نزيل دمشق وإمام مسجد الريحان .

وخلف أبا الفرج الشيرازي على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ وتخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون في دمشق والشام ببيت ابن الحنبلي ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف في الفقه الحنبلي والأصول ، منها المنتخب في الفقه الحنبلي في مجلدين والبرهان في أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب في الشام يد سابعة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبيلة ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه « الأعلاق الخطيرة » بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية في بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو ما يصوره ذلك النعيمي في كتابه « المدارس في تاريخ المدارس » . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة في ديار الشام - كما في ديار مصر - قاض في كل بلد كبير بجانب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط وتتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ موفق^(٢) الدين بن قدامة الجمّاعيلي المقدسي عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة في الفقه الحنبلي وأصوله وأصول الدين ، منها المغني شرح به مختصر الخرق المار ذكره في عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافي في أربع مجلدات ، وله في أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفي أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن . ومانكاد نبلغ نهاية القرن السابع أيام الماليك حتى يتألق في المذهب اسم الإمام ابن^(٣) تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانبا من تحرره الفكري واجتهاده في غير هذا الموضع ، ومربنا حديثنا عن منهجه في التفسير القرآني ، وله عشرات الرسائل والكتب في المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التي سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهي مطبوعة قديما في خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما في الناس وأضاف

(١) ابن رجب ٩٦/١

٢٥٦/٦

(٣) مرت مصادر ابن تيمية في الحركة العلمية ص ٥٥١ .

(٢) راجع في ابن قدامة ابن رجب ١٧٠/٢ والبداية

والنهارية ٩٩/١٣ والشذرات ٨٨/٥ والنجوم الزاهرة

إليهما كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى في دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنّف كثيرا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر في الدرر : هو طويل النفس في كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكاني في البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحبه القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقانا بأخوه من أيام الممالك مجير الدين العليمي عبد الرحمن بن محمد قاضي بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب في طبقات الحنابلة سماه « المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم في ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يحتدم بين أصحابها ، مما أتاح مبكرا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيها لهذا العصر كما يكثر التأليف في علم الأصول الذي وضعه الإمام الشافعي وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدى الذى سنلم به فى حديثنا عن علم الكلام بجزء مصر، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه « الإحكام فى أصول الأحكام » ربما كان أروع كتاب فى علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام - مثل مصر - انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التى نشأت فى بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذهبان . الشافعى والأشعرى فى كل مكان . ولم يلبث أن خاصمها الحنابلة الآخذون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين فى أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكى فى طبقاته ليصور تعصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبي ، فقد كان يتعصب تعصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك فى غير هذا الموضع . وفى الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردون على خصوم الأشعرية ، على نحو ما أشاد بفخر الدين بن عساكر فى رده المفحم على الحسن بن على الأهوازى المار بين القراء فى كتابه « تبين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى » . ويشيد السبكى

بصفي^(١) الدين بن الهندي المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعري ، ويقول :
إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه في نصرة المذهب كتابه
« زبدة الكلام » ويذكر له بجواره كتابا في الأصول هو « نهاية الوصول في دراية الأصول » ..
وظلت نصرة الشافعية لمذهب الأشعري على مدار السنين في أيام المماليك والعثمانيين .

٥

التاريخ

نشطت دمشق والشام في كتابة التاريخ بجميع صوره من السير المفردة وتاريخ المدن وتاريخ
الدول أو دولة معينة والتراجم أو كتب الطبقات . ونبدأ حديثنا بالسير المفردة ، وأولها سيرة الرسول
صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامي ندب نفسه للكتابة فيها أبو^(٢) زرعة عبد الرحمن بن
عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل
السيرة النبوية من يد الزمن . وعنى بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة
النبوية لابن أبي طى المتوفى سنة ٦٣٠ . وولتقى في أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقي محمد^(٣) بن
يوسف المتوفى سنة ٩٤٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتعنى
مصر بإخراجها الآن . وصنّف نور الدين الحلبي المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومر ذكرها في حديثنا
عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . ولتلقى بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها
حياتهم ، وأول مايلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة
الشاميين وحملة الصليب لزمه ، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبله ديرنبورج . ولأبى شامة
المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن
طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون
في أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

١٢٨/١ وتاريخ ابن عساكر ٢٧٤/٧ وابن حجر في التهذيب

٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٢١/٣

(٣) انظر في شمس الدين الشذرات ٢٤٩/٨

(١) راجع في صفى الدين طبقات السبكي ١٦٢/٩

والوفى بالوفيات ٢٣٩/٣ والدرر لابن حجر ١٣٢/٤ ومراة

الجنان ٢٧٢/٤ والشذرات ٣٧/٦ والبدر الطالع ١٨٧/٢

(٢) انظر فى أبى زرعة النجوم الزاهرة ٨٧/٣ وقارن بالجزء

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العباد الأصبهاني وفيه ألف كتابه « البرق الشامي » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفتوحاته وأحداث الشام في عهده ، وهو في سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفتح القُسيّ في الفتح القدسي » صوّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويراً أدبياً بديعاً . وصنّف بهاء^(١) الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لأبن أبي طى . ولابن عنين الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة^(٢) للملك العزيز سماها التاريخ العزيزى ، وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد^(٣) الجلية في الفرائد الناصرية » . وللنووى المذكور بين الفقهاء كتاب في سيرة الإمام الشافعى ، ولابن عريشاه^(٤) الدمشقى المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور في نوائب تيمور » مصوراً إفساده في الأرض وإهلاكه الحرث والنسل وما ارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره في عهد السلطان جقمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر » . ولبدر الدين العيني المار ذكره كتاب السيف المهند في سيرة السلطان المؤيد ، ولبدر الدين محمد^(٥) بن أبي بكر الدمشقى المتوفى سنة ٨٧٤ سيران : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباى . وله سير كثيرة في العصر . ولابن طولون الذى ذكرناه آنفاً بين الجغرافيين سيرة لابن العربى المتصوف . وصنف شمس الدين الدمشقى المار ذكره سيرة لأبى حنيفة ، ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية . ولمحمد بن يحيى الحنبلى سيرة صنفها عن عبد القادر الجبلانى المتصوف ، وهى مطبوعة ، ولمرعى^(٦) بن يوسف الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنفها في مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ما صادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها في

(١) راجع بهاء الدين فى ابن خلكان ٨٤/٧ والسبكى

٣٦٠/٨ وتاريخ ابن الردى ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ

١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبداءة والنهاية

١٤٣/١٣ والمختصر لأبى الفدا ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة

٢٩٢/٦ والشذرات ١٥٨/٥

(٢) انظر كشف الظنون لحاجى خليفة (الطبعة الثانية)

٢٩٨

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عريشاه فى ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته فى الضوء اللامع ١٥٦/٧

(٦) انظر فى مرعى الكرمى خلاصة الأثر ٣٥٨/٤

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ما اتصل منها بفضائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونبسط الكلام في كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولهما فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه في ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفتوحها وخططها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب . وهذبه بحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تهذيبه سبعة « مجلدات » حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقلما يذكر في المراجع باسم تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثاني الذي سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خططها ثم يسهب في ذكر الجامع الأموي وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها في باطنها وظاهرها وخوانقها وربطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها ومأمذحت به نثرا وشعرا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعي ثقافي حضاري . وقد عني ابن شداد بحلب كما عني بدمشق . ولعل أهم كتاب عني بها قبله كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » لابن العديم ^(١) عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه في عشر مجلدات أرّخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأجدى وجعل له تاريخا لحلب على السنين في كتابه : « زبدة الحلب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامي الدهان بدمشق . ولا بن خطيب ^(٢) الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تنمة لبغية الطلب في مجلدات سماها « الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب » وأكملة محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وسمى تكملة « نزهة النواظر » . وعني بكل ذلك أيام العثمانيين ابن ^(٣) الحنبلي محمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزبد والضرب (عسل النحل) في تاريخ حلب » مع تكملة إلى سنة ٩٥١ . ولجير الدين العليمي المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأئیس الجليل في تاريخ القدس والخليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذكر أولا حلب ثم حمص فالخليل فداريا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فحسقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية في الضوء اللامع ج ٥

رقم ١٠١٦ والشذرات ٢٤٧/٧

(٣) انظر ابن الحنبلي في الشذرات ٦٦٥/٨

(١) انظر في ابن العديم معجم الأدباء ٥/١٦ وفوات

الوفيات ٢٠٠/٢ والشذرات ٣٠٣/٥ وتاج التراجم ص ٤٨

ومقدمة الدكتور سامي الدهان لكتابه : زبدة الحلب

في الشام إلا تجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ماوصلنا ومنها ما لم يصلنا وضاع مع الأيام .
ونترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام ، وأول مايلقانا فيه ابن القلانسي حمزة^(١) بن أسد
المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذيل به على كتاب التاريخ
لهلال الصابي ابتداءً به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره
العظيمي^(٢) الحلبي المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ولمحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حياة وتاريخها
وله أيضا تاريخ على السنين . وجاء بعدهما ابن أبي الدم^(٣) الحموي قاضي حجة المتوفى سنة ٦٤٢
وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام في ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزي الحنفى
المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة
الزمان في تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليفة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة
وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات في كل سنة ، وكان في أربعين مجلدا ، ونُشر منه في حيدر
آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ما أوضحنا ذلك في حديثنا عن المؤرخين بالعراق في الجزء
السالف . ولموسى^(٤) بن محمد اليونيني البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرآة في نحو النصف مع
ذيل في أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير
هو أبو الفدا صاحب حجة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر في أخبار
البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة
٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديما إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى
المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها «تمة المختصر» طبعت مثل أصلها مرارا .
ونلتقى بالذهبي^(٥) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير
الأعلام في ١٢ مجلدا رتبه على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكي تلميذه في

(٤) راجع موسى في الدرر ١٥٣/٥ والشذرات ٧٣/٦
والبداية والنهاية ١٢٦/١٤
(٥) انظر في الذهبي الدرر ٤٢٦/٣ ونكت الحميان ٢٤١
وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبداية والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ
ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القراء ٧١/٢ ومرآة الجنان
٣٣١/٤ والسبكي ١٠٠/٩ والوفاء بالوفيات ١٦٣/٢
والنجوم للزاهرة ١٨٢/١٠ والشذرات ١٥٣/٦ والبدر
الطالع ١١٠/٢

(١) راجع في ابن القلانسي تاريخ دمشق لابن عساكر
٤٣٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥
والشذرات ١٧٤/٤
(٢) انظر في العظيمي بروكلمان (الترجمة العربية) ١٣١/٦
(٣) راجع في ابن أبي الدم : السبكي ١١٥/٨ وتاريخ
ابن الوردى ١٧٥/٢ والشذرات ٢١٣/٥ والمختصر لأبي الفدا
١٨٢/٣

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الحياد في عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جام غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى ليقول السبكي أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ما أمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كالإمام الحرمين الجويني والغزالي وأمثالها لا يبالغ في وصفه ويكثر من قول مَنْ طعن فيه ، ويبعد ذلك ويبدیه^(١) . وكان ينبغي أن يكون منصفاً في تاريخه وتراجمه فيه بريثا من العصبية في المذهب ، ويقول السبكي : « هذا وهو الحافظ المذره والإمام المبجل فما بالك بعوام المؤرخين » . وللذهبي تاريخ عام في مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتبته على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر في خبر من غبر » وذكره يتردد في الهوامش .

وكان يعاصر الذهبي أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدوادار صاحب صرخد ، وله كتر الدرر وجامع الثغر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو في تسعة أجزاء أولها في بدء الخلق وثانيها في الأمم القديمة وثالثها في السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع في الدولة الأموية ، والخامس في الدولة العباسية ، والسادس في الدولة الفاطمية ، والسابع في الدولة الأيوبية ، والثامن في دولة المماليك البحرية ، والتاسع في دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر . ونلتقي بابن كثير الذي مر ذكره بين المفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو في التاريخ العام ، عني فيه بالسيرة النبوية مميزا بين الوثيق والمتهم في الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة^(٢) الحلبي المتوفى سنة ٨١٥ وله في التاريخ العام « روض المناظر في علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير . ونلتقي بعده ببدر الدين العيني الذي مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بحلب وتفقه على أبيه وكان قاضيا حنفيا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختلف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب مختلفة في القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

والشدرات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩.

(١) انظر السبكي ١٣/٢ وما بعدها

(٢) راجع في ابن الشحنة الضوء اللامع ٣/١٠

ومن نلتقى بهم في أيام العثمانيين الجنابي مصطفى ^(١) بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله في أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنابي يؤرخ فيه لثلاث وعشرين دولة إسلامية في مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أر كتابا جامعا لدول العالم مثله . وكان يعاصره القرماني ^(٢) أحمد بن سنان الدمشقي المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه : « أخبار الدول وآثار الأول » طبع قديما ببغداد في ٥٠٠ صفحة .

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة في التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتبًا فرعية خاصة ببعض الدول ، من ذلك : « نُصْرَةُ الْفِطْرَةِ وَعُصْرَةُ الْقَطْرَةِ » للعماد الأصبهاني ، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم ، اختصره الفتح البنداري سنة ٦٢٣ بكتابه « زبدة النصره ونخبه العصرة » طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . ونلتقى بأبي شامة ^(٣) الحافظ المقرئ المؤرخ المقدسي الشافعي عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : دولة نور الدين ودولة صلاح الدين في وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حملة الصليب ، وعادة يسرد المعركة ، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التي تصور مجد العرب الحربي تصويرا رائعا ، وكيف كان هذا البطلان : نور الدين وصلاح الدين يسحقان الصليبيين سحقا ذريعا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكتب للروضتين ذيلًا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ . وكتب البرزالي ^(٤) القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبي شامة باسم « المقتنى لتاريخ أبي شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذيله تلميذه الحافظ مدرس النورية تقي الدين محمد ^(٥) بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية . ونلتقى بابن ^(٦) واصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » نشره

١٥٠١/٤ والدرر ٣٢١/٣ وفوات الوفيات ٢٦٢/٢ والشذرات ١٢٢/٦ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٩ والبدر الطالع ٥١/٢

(٥) انظر في ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والشذرات ٢٣٤/٦ (٦) راجع في ابن واصل نكت الهيان للصفدي ص ٢٥٠ والشذرات ٤٣٨/٥ ومقدمة كتابه مفرج الكروب وخطط الشام لكرد على ٤٤/٤ وله تجريد الأغاني لأبي الفرج جرده من أسانيده ، ونُشر في القاهرة

(١) انظر في الجنابي دائرة المعارف الإسلامية . وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورتان من كتابه

(٢) راجع في القرماني خلاصة الأثر ٢٠٩/١

(٣) انظر في أبي شامة ترجمة شخصية بقلمه في ذيل الروضتين ص ٣٧ والسبكي ١٦٥/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٢٧/١ والبداية والنهاية ٢٥٠/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء ٣٦٦/١ والشذرات ٣١٨/٥

(٤) راجع في البرزالي السبكي ٣٨١/١٠ وتذكرة الحفاظ

الدكتور جمال الدين الشيال في ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبي بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ في تاريخ الممالك حتى أيامه كتابه « درة الأسلاك في دولة الأتراك » ابتداءً به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب في تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمرعى الكرمي السابق ذكره أيام العثمانيين نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتقى بكثيرين من كتاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب عامون لم ينجسوا قطراً عربياً بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينها ، نذكر منهم الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ويقع في نحو خمسة عشر مجلداً ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزاءه . ومنهم ابن^(١) شاعر الكتبي الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكملة لما فاتته ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لعلماء من كل صنف ولكتاب وشعراء وصوفية وحكّام . وكان يعاصره الصفدي خليل بن أبيك المتوفى أيضاً سنة ٧٦٤ وسلم به في حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبهم الشام في كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الضخم الوافي بالوفيات ويدخل في نحو ثلاثين مجلداً نشرت منها طائفة . وله بجانبه « نكت الهميان في نكت العميان » في تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكفاء في العالم العربي على توالي الحقب ، وأيضاً « أعيان العصر وأعيان النصر » في مشاهير معاصريه في نحو تسعة مجلدات ، وهو حري بالنشر . ويعني نجم^(٢) الدين الغزي المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وعُنت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف المحبي^(٣) محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » كما يصنف المرادي^(٤) محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » .

ويؤلف العماد الاصبهاني كتابه « خريدة القصر وخريدة العصر » وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أجزاء العراق . وصُنِّفت بعد العماد في الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد^(٥) بن عمر بن شاهنشاه

(١) انظر في ابن شاعر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر

٧١/٤ والشذرات ٢٠٣/٦

(٢) راجع في الغزي خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء

الأول من الكواكب السائرة

(٣) انظر في المحبي سلك الدرر ٨٦/٤

(٤) راجع في المرادي تاريخ الجبري ٢٣٣/٢

(٥) انظر مختصر المرأة لسبط ابن الجوزي : ٤٠١

صاحب حياة المتوفى سنة ٦١٧ وكان في عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدي الزمن .
ومما وصلنا نفحة الرحانة ورشحة طلاء الحانة للمعجب المذكور في بيان محاسن الشعراء بدمشق
وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طُبِعَ في مجلدين كبيرين .

واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام في هذا العمل عن طريق ابن
أبي أصيبعة الذي مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن
وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتُعنى الشام بكتب الرجال من رواة
الحديث ، ويصنف عبد الغنى الجماعيل - كما مر بنا - كتاب « الكمال في معرفة أسماء الرجال »
عن رواة الحديث النبوي في كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المزى المار ذكره بين المحدثين
تكملات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال في اثني عشر مجلدا ، وللنووي كتاب في رجال
أصحیحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين في ذكر رجال الصحيحين . وعنى الذهبي باختصار
هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسمى كتابه « تهذيب تهذيب الكمال » في
خمس مجلدات . وللذهبي كتاب المشتبه في الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المتشابهة في
رواة الحديث وغيره . وللذهبي أيضا ميزان الاعتدال في نقد الرجال أى رواة الحديث النبوي رتبة
على حروف المعجم وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات ، .

ولللذهبي كتابان في حفاظ الحديث النبوي وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ في أربعة مجلدات
ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطي الأخير مع تكملات وأبقى لصنيعه الاسم ،
والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبي كتاب في طبقات القراء لم يكتب له الذبوع إنما كتب لغاية
النهاية في طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتردد في
الهوامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون
المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللفقهاء كتب كثيرة في رجالهم وطبقاتهم ،
وقد صُنِفَ كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فللأحناف كتبهم وكذلك للشافعية
والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن فقهاءهم ، ولعل في هذا ما يبدل على أنهم ظلوا
في الشام قليلين . وكثر التأليف في الحنفية بأخرة من العصر ، فلا بد طولون السابق ذكره كتاب
الغرف العلية في متأخرى الحنفية .

وللحنفية كتب في طبقاتهم كانت متداولة ومشهورة مثل الجواهر المضية في طبقات الحنفية
لعبد القادر بن أبي الوفا وتاج التراجم لابن قطلوبغا . وكان التأليف كثيرا في طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح أثار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووى ورتبه على حروف المعجم ،
ومن أشهر كتابه فى تلك الطبقات السبكى وكتاب مذكور مرارا وتكرارا فى الهوامش. وكتاب
ابن (١) قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو
مطبوع . ونشط الحنابلة فى كتابة تراجم فقهاءهم ولابن ارجب (٢) الدمشقى الحنبلى المتوفى سنة
٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع فى مجلدين .
ولمحمد (٣) بن عبد القادر النابلسى المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع ، ونختم كلامنا فى هذا
الفصل بالإشارة إلى كتاب المدارس فى تاريخ المدارس للنعمى (٤) المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور
الحركة بل النهضة العلمية التى ظلت أضواؤها تشع فى الشام ، حتى مع ما غشيها من سحب
العثمانيين .

(٣) راجع محمد بن عبد القادر فى الدرر لابن حجر
١٣٨/٤ . و بروكلمان (الترجمة العربية) ٣٩/٦
(٤) انظر النعمى عبد القادر بن محمد فى الكواكب
السائرة ٢٥٠/١ والشذرات ١٥٣/٨

(١) راجع فى ابن قاضى شهبة الضوء اللامع ج ١١ رقم
٦١ والشذرات ٢٦٩/٧ والبدر الطالع ١٦٤/١
(٢) انظر فى ابن رجب ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٧
والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ وشذرات الذهب ٣٣٩/٦
ومقدمة الدكتور سامى الدهان لطبعة الذيل بدمشق

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربي لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التي نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط في مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فتحها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتل الرومان الشرط الأكبر منها في أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعتها الشام ، وتآلق فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم في التعبير الوجداني والفكري .

وهياكل ذلك لأن تعدد اللغات في الشام قبل الفتح العربي الإسلامي ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل في الشام من قديم ، لاجلواره للجزيرة العربية وموقعه شمالي الحجاز وغربي بادية السماوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وحفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام ، وهي دول الأنباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألمنا بها في فاتحة الفصل الأول ، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط^(١) . أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات

الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العل الجزء الأول وكتابتها العصر الجاهلي ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي في مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفليب حق (الترجمة العربية) وكذلك كتابه « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » ١/١٦٦ وما بعدها ، وتاريخ

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت في مطالع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه في سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثاني النبطي دمشق وغطتها الخصب ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسى ، إذ كانت تضم شمالى الجزيرة العربية وشرق الأردن وجنوبى فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها في مطالع القرن الثانى للميلاد . والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية في حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولاريب في أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التى سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلماتها العربية ، ومضى خطهم يتطور في بيئتهم وشمالى الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والذى يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية تدمر أقامت القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالى الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزا كبيرا للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها في منتصف القرن الثالث الميلادى لعهد أذينة الذى بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية في دولته التغلغل في ديارها ، وكان عاملا في تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة في عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكمش ثانية التأثير اللغوى العربى في ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته في عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الغساسنة ، وقد أخذت في الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقتهم بعد خراب سد مأرب ، واستقرت في شرق الأردن . وشقت - فيما بعد - طريقها شمالا إلى حوران ، واصطدمت في تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول في هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جفنة بن عمرو مزيقياء ، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحيانا باسم آل جفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩ م .) وقد منحته الدولة البيزنطية لقب فيلارك أى شيخ القبائل وأميرها ، كما منحته لقب البطريق وهو أعظم

الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشييه بتعيين يعقوب البرادعي أسقفا على الكنيسة المونوفيسيتية السورية ، وكانت تخالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونصّب تسعة وثمانين أسقفا في البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد في سوريا والشام ، ولذلك دلالة البعيدة في نفوذ القبيلة بالشام وفي مدى ما حدث حينئذ من تعرب بعض الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة اليهيقوية . وكان الغساسنة كثيرون الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على السنة مادحي ملوكهم من الشعراء ذكر جلق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بردى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جلق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرق .

ولما أطلعنا في بيان ذلك كله لندل على أن الشام كانت قد أخذت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولا ريب في أن الفتح الإسلامي العربي زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الغساسنة وقضاة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبذوا سريعا الدين المسيحي ودخلوا في الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا في شريعته السمحة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذي لا فصلح حياة أمة بدونه . وكان حكمهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروبا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة إرهابا لا يطاق ، بينما رأوا حكمهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل في الضرائب مسوين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح في جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأنفسهم بشيء ، مهما يكن قليلا أو تافها . فلاعجب أن يدخلوا في الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثير من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل مختلفة شمالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيول طوال الحقب الأولى للحكم الأموي ، واستقرت منها عشائر وبطون في بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لا عن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومي بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها في الإسلام ، إذ جزء لا يتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سديدة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعرابه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذي مربنا في الفصل الماضي عن أبي الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا في تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لا يحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم . ونظن ظنا أن الاستعراب في الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحي لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التي كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبي كالعربية ، ولا كان لها جماها في الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين في الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكب كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغي أن لا ننسى ما كان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة اليعقوبية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ما كان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين في إدارة الشئون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس (وفي بعض المصادر سرجون) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربي الإسلامي واتخذ معاوية مستشارا له في الشئون المالية مع بقاءه معتقنا لدينه المسيحي ، وكان حفيده يوحنا الدمشقي يشرف على الشئون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان ، وما زالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء في شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ما ذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء ^(١) . ولا شك في أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد ما نقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان في ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومي الذي أخذ عنه خالد علم الكيمياء أو كما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداها ما جرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها ^(٢) .

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ (٢) انظر ترجمة خالد في ابن خلكان ٢٢٤/٢

ولم نتحدث عن اليونانية التي كانت معروفة في الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفاً أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان في علم الصنعة وماترجم إليه منه براهب رومى ، وأكبر الظن أن الرهبان في دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا في التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيي الشام المستعربين ، ولعل في كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التي دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر في تاريخ الشعر العربى لا عند الغساسنة ولا عند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط في الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو ما يلقانا في المعارك التي نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفي مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . وملتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرقاع العاملى اليمنى والطرماح الطاللى اليمنى ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامى بين شعراء بنى أمية ، وأما الطرماح فنشأ في الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة في كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بنى أمية تَعَصَّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء لمديحهم وأخذ نوالهم وعطائهم . وما نبغ شاعر واشتهر في هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أوذاك ، والخلفاء يُعَدِّقون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ما هو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجريرو عبد الله بن الزبير وذى الرمة والعجاج وابنه ربيعة . ومثلهم من شعراء الحجاز كثير والأحوص وابن قيس الرقيات . ومدحهم من شعراء نجد كثيرون في مقدمتهم الراعى التميمى . وكان الأمويون يعدُّونهم ألسنتهم ودعاتهم في بيئاتهم ، فأجزلوا لهم في العطاء ، وكانوا مازالون غادين عليهم راتحين بقصائدها يروونها الرواة في كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ما قدمناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بني أمية ، فقد شارك غير خليفة في هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم في قصره ، وشعره يستغرقه الغزل والتغنى بالخمر حتى بعد خلافته ، مما أعدَّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي .

وتنتقل الخلافة في العصر العباسي إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها في الشعر ، وهو نشاط لا يقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصدرون في شعرهم عن النزعات التجديدية التي نُظِم الشعر العربي على أضوائها في صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماؤهم في القرن الثاني الهجري عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي معاصر الرشيد ، وكان من الفلّجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز في كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . ومن كان يعاصره من الشعراء الشاميين البعثاني وكان يحتذى - كما يقول الجاحظ - حذّو بشار بن برد في البديع وله ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وعلى غرار تلميذه منصور النمرى الشامي ، وله أيضا ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وبالمثل في هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامي مهم عاش في القرنين الثاني والثالث هو ديك الجن . فالشام لم تنشط في الشعر طوال العصر العباسي الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابيين شاركوا في نهضته وازدهاره . بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التجديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربي مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التنميق الحسي والفكري ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام أستاذ هذا المذهب الذي أعطاه صيغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إيضاحا تاما في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » . وتلاه تلميذه البحتري ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه في النفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسي مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربي وتقاليده في الصياغة ، وكان لا يباري في الضرب على قيثارة الشعر العربي واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكّبت الأجيال التالية في العالم العربي على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربي وصياغته ، كما اتخذت من أستاذه نموذجا للبديع الحسي والمعنوي الذي يرضى المتفلسفة والمتعمقين في المعاني . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صنفين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ولأبي تمام ترجمة

في كتابنا « العصر العباسي الأول » وللبحتري ترجمة في كتابنا « العصر العباسي الثاني » . ونشرف بعد البحتري على نهاية القرن الثالث ، ولا تزال للعصر العباسي الثاني بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبي الصنوبري وله ترجمة في كتاب هذا العصر .

ونغض في عصر الدول والإمارات ، وقد عُني بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجري ومطالع القرن الخامس الثعالبى في يتيمة ، متحدثا عن الشعراء النابيين في أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . ويلاحظ في فواتح كتابه أن كِفَّة الشعر العراقي التي كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خَفَّت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل يتيمة بقوله : « الباب الأول من القسم الأول في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب في ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام .. والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قريهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحى) العراق ومداخلتهم لإياهم .. ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان .. وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر ويتقده ، ويشيب على الجيد منه فيجذل ويفضل » . ولنا نريد أن نناقش الثعالبى في هذا الحكم ، فإنه - على ما فيه من مبالغة - يدل على ما حدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبىء عنها الأبواب التالية في اليتيمة ، فقد جعل الثعالبى الباب الثاني لسيف الدولة الحمداني أمير حلب وشام الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبي فراس الحمداني الشاعر والفارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء الشام وقضاتهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للمتنبي شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومررنا كيف أن حلب في زمن سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) استحوطت أكبر مركز علمي وفلسفي ولغوي ، إذ نزها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابي وأبي علي الفارسي وابن جني غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولا يهمننا الآن بيان ذلك إنما يهمننا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء في تلك الحقبة ، إذ لم يبق شاعر كبير في الشام أو في العراق أو في إيران إلا أمثها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى ليقول الثعالبى إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك - بعد الخلفاء - مااجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر» منهم كُشاجم - ويقال إنه كان طبّاخة - والخالديان - وكانا خازنى مكتبته - والسّلامى والسّرى الرّفاء والوآواء الدمشقى والنامى المصيصى وابن نباتة السعدى والببغاء ، وكل هؤلاء كانوا شعراء ، وترجم لهم الثعالبى ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثنين .

ومضت الشام فى نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصورى وأبى الرقعمق والواسانى وجميعهم ترجم لهم الثعالبى ، ويعنى الباخريزى فى دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقى نظام الملك ، وترجم لأبى العلاء المعرى وابن سنان الحفاجى تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصهبانى فى الخريدة . ولم يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثانى من القرن الخامس ومطالع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين فى تلك الحقبة ابن حيوس وله ديوان ضخم فى مجلدين . ويعرض العماد الأصهبانى فى خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة فى أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بنى أيوب ، ونراه فى مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهل العراق ، بالضبط كما صنع الثعالبى ، يقول : « شعر الشاميين أصح وزنا ، وأسحُ مُزنا ، وأمتن صيغة ، وأحسن صبغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم مبنى » ويشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحتري وأبى تمام وطائفة من محدثهم بعدهما مثل عبد المحسن الصورى وابن سنان الحفاجى وابن حيوس ، وكأنى به نسى أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويترجم فى هذا الجزء لابن الخطاط الدمشقى تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبهم الشام فى القرن السادس الهجرى من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسى والقيسرانى وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيان الشاغورى وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموى وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد بيوتا وشعراءها كبيت آل المعرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصين ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الخراط . وكأن العماد لم يترك فى الشام لزمه شاعرا كبيرا ولا صغيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام بعد زمن العباد في أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاعر الكتبي والوفاء بالوفيات للصفدي ومطالع البدور للغزولي والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي وريحانة الألبا للخفاجي ونفحة الريحانة للمعجمي وسلك الدرر للمرادي . فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شعراء الشام في حقبة وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابهيم في تلك الأزمنة والحقبة أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتي والصاحب شرف الدين الأنصاري وأيدمر الحيوى والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمساني وابن الوردى وابن النقيب الدمشقي ، وتموج رفوف المكتبات في العالمين العربي والغربي بدواوين كثيرة لشاميين لاتزال مخطوطة .

٣

شعر دورى - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات

(١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء في العصر العباسي الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ، وتتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثر من منه في جميع الأقاليم الإسلامية ، وهى ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويغلب أن يكون كل دور بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرع عن هذا النمط من قديم عند أبي نواس وأضرابه نمط المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته في كل الأدوار ، بينما تنوع القوافى في الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ، وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوته في عقد تلتقى عندها أسلاكه المختلفة ، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا في العصر كثرت هذه المسمطات ، وهى قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى المكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية أو تساعية ، وممن عني بالنظم فيها أسامة بن منقذ فى ديوانه منها أربعة مسمطات خماسية ، ومن أقوله فى أحدها (١) :

كم رُضْتُ نفسى بالسُلوان فامتنتُ وكم أضاعوا موائقَ الهوى ورَعَتُ
وما نَقِمْتُ عليهم غدرَةً فصغتُ^(١) ولا أضعتُ لهم عهداً ولا اطلّعتُ
على ودائعهم فى صدرى التَّهَمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة فى الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن المسمط خماسى
الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسمطات فى دواوين ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى
وأبى المر الحبوى زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء فى الحقب التالية يكثرُونَ منها وخاصة صلاح الدين
الصفدى ، ونظّل نلتقى بها فى الحقب المتأخرة .

(ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تتولّف بيتين ، وتتحد الشطور : الأول والثانى والرابع فى
القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث فى القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما :
« فَعْلَن فَعْلَن مُسْتَفْعَلَن مُسْتَفْعَلَن » و « فَعْلَن مُتَفَاعِلَن فَعْلَوْن فَعْلَن » وقد أخذت تشيع على السنة
الشعراء فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قُسيم الحموى المتوفى سنة
٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفى خاتمة ديوانه منها اثنتا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفّف الميّاس ما أحسنه ولو بقلبٍ قاسٍ
يهترُّ كأنه قضيبُ الأسر سكرانٌ ولم يَدُقْ حميًّا الكاسِ

وذكر ابن خلكان أنه كان للعماد الأصبهاني ديوان صغير جميعه دُوِّيَّياتٍ أو رباعيات ، وطائفة
فيها كانت بلسان نور الدين فى الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل
أقوله^(٢) :

لا راحة لى فى العيش إلا أغزو سبى طرباً إلى الطلى يهترُّ^(٣)
فى ذلٍّ ذوى الكفر يكون العزُّ والقدرة فى غير جهادٍ عَجَزُ

(١) صغت : مالت

وادی النيل (٢٠٧/١) .

(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة (طبع مطبعة

(٣) الطلى : جمع طلاة أو طلية : العنق أو صفحته .

وكان لفتيان الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دوبيئات ، رآه ابن خلكان وأنشد منه في ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْنَتَيْكَ زَاهٍ زَاهِرٌ وَالسَّحَرُ بِمَقْلَتَيْكَ وَافٍ وَافِرٌ
وَالْعَاشِقُ فِي هَوَاكَ سَاهٍ سَاهِرٌ يَرْجُو وَيَخَافُ فَهُوَ شَاكٍ شَاكِرٌ

ونظّل نلتقى بالرباعيات في دواوين الشعراء أيام الممالك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وبهاء الدين العاملي وعبد الغنى النابلسي وغيرهم من الشعراء^(١) وحين شاعت التورية بشها الشعراء في رباعياتهم كقول علي بن المظفر الوداعي الحلبي المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا^(٢) :

لَمَّا حُجِبَ الْكَرْنَى عَنِ الْآثَارِ وَانْقَادَ مَعَ الْعِدَا عَلَى الْعُشَاقِ
نَادَيْتُ وَقَدْ تَزَايَدَتْ أَشْوَاقِي يَا غُصْنُ رَضَيْتُ مِنْكَ بِالْأَوْرَاقِ

والتورية واضحة في كلمة الأوراق ، إذ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبه ، وهو المراد .

(ج) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشارقة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا ، ومن خُرْجَةٍ يسمّى بها القفل الأخير في الموشحة . ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسمطات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإسبان - خاصة - قائلين إنها فن أندلسي خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسمط نظمه ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقي للموشحات الأندلسية إذ يجري على هذا النمط^(٣) :

قولي لَطِيفُكَ يَنْشِينِي عَسْ مَصْجَعِي عِنْدَ الْمَنَامِ

عند الرِّقَاقِ عند المهجوعِ عند المهجودِ عند الوَسَنِ
فَعَسَى أَنَامُ فَتَنَطَفَى نَارُ تَأَجَّجُ فِي الْعِظَامِ
فِي الْفَوَاقِ فِي الْفُلُوعِ فِي الْكَبُودِ فِي الْبَدَنِ

ويستمر المسمط الموشح على هذه الصورة، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت بروي جديد . وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أو قل هذا الموشح الفريد لمقدم بن معافى شاعر الأمير الأندلسي عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكتب هذه الصورة عنده أن تشيع بعده في الأندلس باسم الموشحات على نحو ما أوضحنا ذلك مرارا في كتاباتنا . وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية في كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصاريعها للمشاركة كي ينظموا على غرارها منذ زمنه في أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجليلاني الأندلسي الطبيب نزيل دمشق في زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهريّة ، ويقول ابن أبي أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودوبيّات » أوربا عيات . ونظّل في زمن الأيوبيين والمماليك نلتقى بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب في الموشحات سماه : توشيع ^(١) التوشيع ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٢١ ، ويقول ابن شاكر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان ، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغني فيه المغنون ^(٢) ، ويسوق نفس الموشح الذي ذكره الصفدي ، ويستهلّه بقوله :

بأبي غُصْنُ بَانَةٍ حَمَلَا بَدَرَ دُجَى بِالْكَمَالِ قَدْ كَمَلَا أَهْيَفُ
فَرِيدٌ حُسْنٍ مَامَاسٍ أَوْسَفَرَا
إِلَّا أَغَارَ الْقَضِيْبَ وَالْقَمَرَا
يُبْدَى لَنَا بَابِتْسَامِهِ دَرَا

(١) حقق هذا الكتاب ألبير مطلق ونشره بدار الثقافة

(٢) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوافي ٢٠٩/٤ وانظر عقود اللآل للنواجي ص ٧٧ .

بيروت .

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم. وذكر الصفدى بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفي المتوفى سنة ٧٥٠، وهو يفيض بالعدوبة وجمال اللفظ والصور كقوله:

ساحرٌ بالدلال ساحرٌ بالصَّب فائقٌ في الكمان لائقٌ بالحب

بَشْدًا المسك فاح ثغرُ هذا الغزال
باسمُ عن أقاح كفريدِ اللآلِ
رُدُّ نورَ الصباح كظلام السليان

وأنشد الصفدى لنفسه في كتابه سبعا وثلاثين موشحة ، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين ، وقلما يخلق إلى أفق الموشحات التي يعارضها ، ويغلب التكلف على موشحاته ، وفي أحيان قليلة يسلس في بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله في معارضة موشحة لابن اللبانة الأندلسي :

بات بدري وهو معتقى أحسى فاه وأرتشف
وبه أمسيت مٹحدا
بعد ماقد كنت منفردا
وغدا بدر السما كميذا

وقد أنشد النواجي في كتابه عقود اللآل تسع موشحات لابن حبيب الحلبي وموشحتين لابن حجة الحموي^(١).

ويلقانا وشاجون مختلفون في زمن العثمانيين على نحو ما يذكر المحبي عن أبي بكر العمري وأبي بكر العصفوري^(٢). ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورا للسان الدين ابن الخطيب استلهه بقوله^(٣) :

يالياي السَّفْح من عهد الصُّبا ياسقَي مغناكِ صوبُ الدِّيمِ
كم تسرَّقتُ بها بين الرُّبى خلَّسًا مرَّتْ كطيفِ الحُلُمِ

(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجمع العلمي العربي بدمشق
ص ٢٦٣

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجي
(٢) نفحة الرحانة للمحبي ٢٢/١ ، ٢٥٤

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسي كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشاحين مهمين هما أيدير المحيوى والمخار الحلبي .

أيدير المحيوى^(١)

لأنعرف شيئا عن نشأة هذا الشاعر ومرباه ، وكل ما بأيدينا عنه أنه عتيق محي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلطينها من الأيوبيين ، وقد طبع له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيدا بانتصاره على حملة الصليب في موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح في الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلى شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعيش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة في الطبيعة ، وله - بجانب ذلك - موشحان في المديح يستهلها بغزل بديع ، وقد عارض في موشحه الأول ابن زهر في موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسقه .

هَرُّ عِطْفَ الغصن من قامته
مُطْلَعاً للشمس من طلعت
ثم نادى البدر في ليلته
أيها البدر تغيب ويحك ما احتياجُ الناس للبدر معي

وعذوبة موسيقاه واضحة في هذا الموشح ، وكان يضيف إليه في أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولاتفارقه هذه العذوبة حتى حين ينجح إلى التكلف على نحو ما نلقاه في موشحه الثاني وفيه يقول :

بات وسُماره النجوم	ساهر	فن ترى	علمك السُّهدَ	يا جفون
صبا إلى مذهب التصابي	صابي	لا يعدل		
فجئته خافق الجناح	نابي	مُبَلِّل		
والطُّرف من دائم انسكاب	كابي	مُجَبِّل		

(١) ١٠٩/٤ ونخطت المقرئ (طبعة دار التحرير) ٧/٢ وديوانه
طبعته دار الكتب المصرية .

(١) انظر في أيدير فوات الوفيات ١٤٠/١ والانتصار
لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق (طبع مطبعة بولاق)

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لا بالقفل ، وتلا القفل بالدور في ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكوّن من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثاني مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصاى مستخرج من التصاى وبالمثل ناي مستخرج من الجناى ، وكاى مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه في الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

المحار^(١) الحلبي

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبي الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمَحِر الكتان أى يغسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيهما ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ - ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر المحيوى في موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط :

مَناحِتُ الوُرُقُ في الغُصونِ إلّا هاجتْ على تُغريدها لوعةَ الحزينِ
 هل ماضى لى مع الحبايبِ آيبُ بعد الصدودِ
 أوهل لأيامنا الدواهب واهبُ بأنْ تعودِ
 بكل مصقولة الثرائبُ كاعبُ هيفاء رُودِ

والموشح يمج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثاني في الدور من آخر كلمة في جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالاً بديعاً للتلحين والتنظيم على نحو ما يتضح في كلمات « آيب - واهب - كاعب » . . ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة في النغم موشحته التي عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلي المار ذكره في العراق ، افنتحها بقوله :

مَدشِمتُ سَنا البروق من نَعمانِ باتت حَديق

(١) انظر في المحار فوات الوفيات ٢/٢١٩ ، ٥٠٦ ،
 ٥٠٨ ، ٥٠٩ والنجوم الزاهرة ٩/٢٢١ والوفاء ٤/٢٨٠
 وانظر توشيح التوشيح للصفدي إذ توارد مع صاحب الفوات
 على أربعة من الموشحات وانظر عقود اللآل رقم ٥٢ ، ٧٦

تُذَكِّي بمسيل دمعها الهتّانِ نارَ الحُرْقِ^(١)
 ما أومض بارقُ الحِمَى أو خَفَقَا
 إلا وأَجَدَّ لى الأَسَى والحُرْقَا
 هذا سببٌ لمحتى قد خُلِقَا

وتصويره لمسيل الدموع المتدفق بأنه يضرع نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المخار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقتها وما يُطَوَّى فيها من جمال التصاوير .

(٥) البديعيات

مرّ بنا أن الشام - منذ أواخر القرن الثاني الهجرى - تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ما هو معروف عن أبي تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد فى فن الشعر سمّيته فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » باسم مذهب التصنيع أى التنيق الناشئ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضاً عن استخدام طرائف فكرية لا تكاد تُحصى . وتبع البحترى - كما ذكرنا - أستاذه أبا تمام فى المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره فى الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى فى هذا الإكثار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبي فراس الحمدانى^(٢) :

وما السلافُ دهثنى بل سَوَّأَفُهُ ولا الشُّمولُ دهثنى بل شَمَّأَلُهُ

ولعل شاعراً شامياً لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألواناً من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حيّوس المتوفى سنة ٤٧٣ وكان يتابع أبا تمام فى الإكثار من المحسنات البديعية جناساً وغير جناس . ونرى العباد الأصبهاني فى الخريدة يتوقف مراراً ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجّل ذلك مراراً على الشعراء

الفرنسى بدمشق (٣٠٢/٢)

(١) تذكى : تضرع .

(٢) الديوان تحقيق . د . سامى الدهان (طبع المعهد

الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيسرائى وفيه يقول :
« صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » ^(١) . وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لافى
استخدام الجناس وحده بل فى استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من
الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية
وأشاعتها فى شعرها ونثرها مضيئة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين
وميلهم من قديم إلى النكتة ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية
ابن قادوس وابن قلاقس ، وحمله بعدهما القاضى الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار
الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ما وجدنا ذوق هذه المدرسة
المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حجة الحموى فى خزانته إذ
ذكر السابقين فى المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم
وتأزر نصرهم » وعدّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز
الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠
ومجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة
٦٨٨ ومحيى الدين بن قزناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة فى خزانته بأشعارهم فى
محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا فى باب التورية ، واستطاعوا فى أحوال كثيرة
أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التى تلقانا فى توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ ^(٢) :

يمرُّ بى كلَّ حينٍ وكلما مرَّ يحلو

. وهو لا يريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر فى أول البيت ، وإنما يريد مر من
المرارة عكس الحلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن تميم ^(٣) :

أياحُسْنُها من روضة ضاعَ نَشْرُها فنادتْ عليه فى الرياضِ طيورُ

ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يَضوع إذا فاحت رائحته ، وثانيها من ضاع الشيء

(٣) فوات الوفيات ٥٤٢/٢

(١) الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٨

يضيع إذا فقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه ^(١) :

ولقد أتيتُ إلى جنابك قاضيا باللثم للعتبات بعضَ الواجبِ
وأُتيتُ أقصد زورةً أحظى بها فرِدْتُ - ياعيني - هناك بحاجبِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البُواب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على السنة الشاميين ، ويشيد الحموي في خزائنه باستخدام الوداعي على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها ولا كثره منها كقوله ^(٢) :

قال لي العاذلُ المفنَّدُ فيها يومَ وافَتْ فسَلَّمْتُ مُخْتَالَه
قم بنا ندعى النبوةَ في العَشِى فقد سلَّمْتُ علينا الغزَاله

وللغزالة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبته الجميلة التي تشبه الغزالة وهو المراد .

ويتتبع ابن حجة ماأخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعي ، وبالمثل يتتبع ماأخذه الصفدى من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدى يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيهما كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدى - كشعراء مصر يعنون بتلك المحسنات بقية زمن المالك ، يشترك في ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وعلى بن أيبك الدمشقي المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمي المتوفى سنة ٨١٦ وابن حجة الحموي صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية في أيام العثمانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين شطور أو أبيات في قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس صاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى فواصل « سورة الشمس » في قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله ^(٣) .

قسماً بِشَمْسٍ جَبِينِهِ وَضُحَاهَا وَنَهَارٍ مَبْسِمِهِ (إذا جَلَّاهَا)

(٣) ديوان صاحب شرف الدين الأنصارى (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق - تحقيق د. عمر موسى) ص ٥١٥

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٣٤

(٢) الخزانة ص ٣٤٣

وتوالت قوافيه : (يَغْشَاهَا - زَكَّاهَا - تَقَوَّاهَا - أَشَقَّاهَا) . ومن طريف الاقتباس في الغزل قول
فتح الدين بن الشهيد ^(١) :

فِي صَدْرِهَا رُمَّانٌ نَهْدٍ زَانُهُ حَلْيٌ (يُوسُوسُ فِي صَدُورِ النَّاسِ)

ويريد بوسوسة الحلي صوته الخفي ، واقتبس - كما هو واضح - آية سورة الناس وما فيها من
الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لانفع فيه الذي (يوسوس في صدور الناس) . وأكثر الشعراء
من التضمن لأبيات المتنبي وغير المتنبي من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن تميم مضمنا لبيت
من أبيات المتنبي في وصفه لزهر اللوز إذ يقول ^(٢) :

أَزْهَرَ اللَّوْزُ أَنْتَ لِكُلِّ زَهْرٍ مِنْ الْأَزْهَارِ يَا تَيْنَا إِمَامُ
« لَقَدْ حَسَنْتَ بِكَ الْأَيَّامَ حَتَّى كَأَنَّكَ فِي قَمَرِ الدَّهْرِ ابْتِسَامُ »

وعنى كثيرون باقتباس الشطور الثواني من معلقة امرئ القيس وتضمنها في قصائدهم . وسنلتقي
بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات في ترجماتنا للشعراء .

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت - على لسان أبي تمام - إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق في الشعر
العربي ، فإنها هي أيضا التي نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد في الشعر أو قل هي التي
أعطته صيغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء - منذ أوائل هذا العصر - يتكلفون في صورهم البيانية
ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي »
ومانصل إلى أبي العلاء المعري حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه في ديوانه : « لزوم مالا يلزم » وهو في
مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفاً حرفاً ، وفي كل حرف يأتي بالروى
ساكناً ومتحركاً بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفاً معيناً
يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويان يلزمانها في حتمية
شديدة . وليس هذا كل ما في الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف ما فيه من ألوانه ، إذ نراه
يعنى فيه بعرض كلمات غريبة لاتكاد تحصى ، وشغف بالجناس وعقده بدوره إذ طلبه بين القافية

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لا يزال شيئاً سهلاً فطلب أن يكون بين أول كلمة في البيت وبين القافية كقوله (١) .

أشراك ذنبك والمهيمن غافر ما كان من خطئ سوى الإشراك

ومعنى أشراك : أغراك وأوقعك في الإثم . ويكثر هذا الجناس المعقد في لزوم ما لا يلزم أوفى اللزوميات ، ولا يكتفى أبو العلاء بعقد الجناس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب عقداً أخرى من ألفاظ الثقافات وما يتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير فلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل (٢) .

بقائ الطويل وغى البسيط وأصبحت مضطرباً كالرجز

والطويل والبسيط والرجز من محور الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطراباً لكثرة ما يجري فيه من زحافات وعلل .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أرسى أبو العلاء في الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لا في قصيدة واحدة أو في قصيدتين ، بل في ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لا ينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها ما لا يلزم من اللوازم التي التزمها جميعاً ، ولكنهم يستخدمونها في الحين بعد الحين كقول ابن حيوس متغزلاً (٣) :

أوصابُ جسمي من جنابة بُعدكم والصبرُ صبرٌ بعدكم أوصابُ

فقد جانس بين أول كلمة في البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أي مر . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عثين (٤) :

خبروها بأنه ما تصدئ لسلو عنها ولو مات صدأ

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين . ويقول الحموي في خزانته : « كان الشيخ صلاح

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف

(٣) الديوان ٥٨/١

الطبعة العاشرة) ص ٤٠١

(٤) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص

(٢) نفس المصدر ص ٤٠٣

الدين الصفدى يستسمن ويرمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ويملاً بطون دفاتره (شعرا ونثرا)
ويأتى فيه بتركيب تخفُّ عندها جلاميد الصخور . ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها
قول الصفدى (١) .

وكم شئتُ لما قِستُ مقدارُ ودُّكم بوارقَ بأسٍ في بوارٍ قياسِ

والجناس فى الشطر الثانى ، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه
غير قليل من الثقل فما بالناس بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولانعدم أن نجد بين
الشعراء من يرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها
تصك الآذان صكاً عنيفاً ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة
٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهباً فى نظمه ، يقول ناصحاً شعراء عصره (٢) .

إذا أُحْبِيتَ نَظْمَ الشَّعْرِ فَاخْتَرْ لِنَظْمِكَ كُلَّ سَهْلٍ ذِي امْتِنَاعِ
وَلَا تَقْصِدْ مِجَانِسَةً وَمَكَّنْ قَوَافِيَهُ وَكِلَهُ إِلَى الطَّبَاعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء فى القرنين الرابع
والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم فى ذلك كثير من الأفانين
وينشد العباد الأصهبانى فى خريدته صوراً كثيرة من هذه الأفانين ، وخاصة عند ابن قسيم الحموى
المتوفى سنة ٥٤١ . وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العباد بصورة معقدة من تصنعه فى
القوافى إذ نظم أبياتاً على خمسين قواف ، يقول فيها مادحاً (٣) :

قل للأمر أخى الندى والنائل	المطال	للشعراء	والقصيد
لازلت تستهك العدا بالذابل	العهبالي	فى الاحشاء	والأكباد
ووقيت من صرّف الردى والنازل	المغفالي	للأعداء	والحساد

وواضح أنه يمكن أن تُفصل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة
التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرة على

التصنع والتعقيد . وينشد العبادلا بن قُسيّم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولاهما من صاد وثانيتهما من سين أو العكس^(١) . ومما أنشده العباد في خريدته من هذه الصور المتكلفة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم في كل كلمة من كلماتها أن لا تخلو من حرف النون^(٢) ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تُقرأ على سبعة أوزان^(٣) . ولا بن عنين حين ألم في رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازي في « هراة » قصيدتان^(٤) في مديحه تشتمل كل كلمة في أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسُنْتُ سِرِيرْتَهُ وَقُدُّسَ سِنْحَهُ وَسَمَا بِأَسْلَافٍ سَرَاةٍ شُوسٍ^(٥)

بينما تشتمل كل كلمة في ثانيتهما على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء في العصر بصنع الألغاز والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا في دواوينهم على نحو ما يلقانا في ديوان ابن عنين وأيضا في ديوان مامية الرومي الدمشقي في زمن العثمانيين . وظل غير شاعر يتصنع للملايلزم في بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصاري مجلد كبير فيه^(٦) .

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح في الشام منذ القرن الثاني الهجري ، وذكرنا أسماء نفر منهم في غير هذا الموضع ، وقد أهدت الشام في القرن الثالث إلى الشعر العربي أكبر شاعرين مدّاحين فيه ، وهما أبو تمام والبحتري . ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة في أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمداني الذي تحول بها إلى أكبر مركز علمي وفلسفي وأدبي ، على نحو ما مرّ بنا ، وغدت مقصد الأدباء وحلبة الشعراء ، وجاءوها من كل بلد في العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفي مقدمتهم المتنبي . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله ينثرون عليه قصائدهم

(٥) السنج : الأصل ، شوس جمع أشوس : الشجاع

المقدام

(٦) فوات الوفيات ٥٩٨/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٧/١

(٢) الخريدة ٤٥/٢

(٣) الخريدة ١٠٨/٢

(٤) الديوان ص ٩٦ ، ٩٨

ومدائحهم بالعشرات - إن لم يكن بالآلاف - مسجلين للبطل العربي مجده الحرى العظيم ، وقد صورنا في قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربي مدائح المتنبي فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبي الفرج البغدادى ، فكتاب اليتيمة للشعالى يحمل من مدائحها ومدائح غيرها لسيف الدولة روائع بديعة . ويكفى أن نشير إلى من تحفوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقى وأبي العباس أحمد بن محمد المصيصى المشهور باسم النامى ، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب فى المنزلة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه (١) :

أَمِيرَ الْعُلَا إِنْ الْعَوَالَى كَوَاسِبٌ علاءك فى الدنيا وفى جَنَّةِ الْخُلْدِ
يَمُرُّ عَلَيْكَ الْحَوَلُ ، سَيْفُكَ فى الطَّلَا وَطَرَفُكَ مَا بَيْنَ الشُّكِيمَةِ وَاللُّبْدِ (٢)
وَيَمُضَى عَلَيْكَ الدَّهْرُ ، فَعَلَّكَ لِلْعَلَا وَقَوْلُكَ لِلتَّقْوَى وَكَفَّكَ لِلرَّفْدِ

فسيف الدولة دائما محارب يديق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكى السلاح وبصره مصوب إلى فرسه الذى يعلك باستمرار شكيمته استعدادا للنزال . وما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلا ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى وخافة الله ، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة - ومثله الحمدانيون عامة - من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتقدون هذه النحلة ، ومربنا أن تفرعت عنها فرقة التَّصِيرِيَّة الشديدة الغلو لما ترعمه - كما مرَّ بنا - من ألوهية على بن أبى طالب . ومكَّن لانتشار التشيع فى الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام يتزلون القاهرة معتنقين - على ما يبدو - لتلك النحلة ويتغنون بمديح الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلَّس وفى مقدمتهم أبو الرِّقْعَمَقْ أحمد بن محمد الأنطاكى ، وله فى الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله فى ابن كلَّس بإحدى قصائده (٣) :

لَمْ يَدْعُ لِلْعَزِيزِ فى سَائِرِ الْأَرَضِ ضُ عَدُوًّا إِلَّا وَأَخْمَدَ نَارَهُ

اللجام

(١) اليتيمة ٢٢٥/١

(٢) اليتيمة ٣١٠/١

(٢) الطلا : جمع طلية أو طلاة كما مر . وهى العنق أو

صفحة الشكيمة : الحديدية المعترضة فى فم الفرس من

كلُّ يومٍ له على نُوبِ الدَّهْرِ وَكَرَّ الخطوبِ بالبذلِّ غارةٌ

ولأبي العلاء المعري ديوان معروف يسمى «سَقَطَ الزُّنْدُ» أكثره مدائح نظمها على سبيل
التمرين لا قصدًا لمديح شخص بعينه إلا ما ندر ، فهو لم ينظم كثرتها طلبا للكسب ونيل العطاء ،
ولأنما على سبيل التدريب اتباعا لشعراء المديح المنتشرين بزمناه في كل مكان ، ومن قوله على
طريقتهم في المديح بأولى قصائد سقط الزند :

مَكْلُفٌ خَيْلُهُ قَصَصَ الْأَعَادَى وَجَاعِلٌ غَايَهُ الْأَسْلَ الطُّوَالَا
تَكَادُ قِسِيَهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ تُمَكِّنُ مِنْ قُلُوبِهِمُ الثُّبَالَا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال . وإنه لأسد حقا غير أن
عريته ليس غابا بل رماحا طولا تخطف الأرواح خطفا ، وإن قسيه لتصيب أعداءه في الصميم
دون رام يتزع عنها النبل والسهام ، وهي مبالغة مألوفة عند أصحاب المديح لأيامه .
ومررنا أن بني مرداس خلفوا الحمدانيين في حلب ، وعنى منهم خاصة محمود بن نصر يجمع
الشعراء حوله فاجتمع في حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبي الربيعي وابن حيوس الدمشقي
وابن النحاس الحلبي وابن سنان الخفاجي . وحدث أن قطبان أنطاكية أو بطريقها استولى في
شعبان سنة ٤٦١ على حصن «أسفونا» ونكّل تنكيلا شديدا بأهله ، فحاصره محمود بن نصر
وفتك بجميع رجاله ، وكانوا نحو ألفين ، وردّ محمود الحصن على أهله ، وهنأه ابن سنان الخفاجي
بهذا النصر المبين قائلا في إحدى قصائده (١) .

إِنْ أَظْهَرْتَ لِعَلَّاكَ أَنْطَاكِيَّةً حُزْنَا فَقَدْ ضَحَكْتُ عَلَى قُطْبَانِيهَا
لَا أَطْلُ لَهُ لَوَاؤُكَ خَافَقًا عُرِفَتْ وَجْوهُ الدُّلِّ فِي صُلْبَانِيهَا

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي قدّم له كثيرون من شعرائها
مدائحهم ، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك سيّوسا بعيد النظر ، فساس الدولة السلجوقية خير
سياسة ، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية في العراق وإيران ، وله يقول محمد بن أحمد
الشاطرنجي الحلبي من مدحة طويلة على أبواب حلب (٢) .

(٢) دمية القصر ١/١٩٩

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ١٤/٢ وما

بعدها والديوان. طبعة بيروت ص ١١٣ .

ياخَيْرَ من خَفَقَتْ عَلَيْهِ رَايَةٌ وَأَجَلٌ مَعْقُودٌ عَلَيْهِ لَوَاءٌ
لَكَ كُلَّ يَوْمٍ مِئَّةُ سَيَّارَةٍ فِي الْخَافَقَيْنِ وَغَارَةٌ شَعْوَاءُ

وذكرنا - فيما أسلفنا - أن بني عمار استطاعوا أن يكونوا لهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إمارة طرابلس ، وكانوا يُقَرَّبون منهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، وذكر العماد الأصبهاني في الخريدة نفرا من شعرائهم في مقدمتهم ابن العَلَّافِي المَعْرِي ، وله من مدحة في عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم (١) :

يَحْتَاطُكَ التَّوْفِيقُ لَا يَأْلُوكُ فِي تَسْهِيلِهِ لَكَ كُلَّ صَعْبٍ أَوْعَرَ
دَامَتْ لَكَ النِّعْمَاءُ مَوْصُولٌ بِهَا تَوْفِيقٌ مَنْصُورٌ اللَّوَاءُ مَظْفَرٌ

وسقطت من يده طرابلس في حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العَلَّافِي - فيما يبدو - شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقُدِّمَ مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وله يقول في إحدى مدائحه (٢) :

لِيَزْدَدْ عُلُوءًا مَلِكُ مِصْرَ فَلَانِهَا بِهِ حَرَمُ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَرَمُ
فِكَّةُ مِصْرَ ، وَالْحَجِيجُ وَفُودُهُ وَيَمْنَاهُ رَكْنُ الْبَيْتِ ، وَالثَّلِيلُ زَمْرُ

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا في حجر بني عمار واستظلوا بما أحدثوا في طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقي ابن الخطاط وسنخضه بترجمة مستقلة .

وأمرأه حصن شيرز : بنو مقلد بن منقذ على شاكلة بني عمار في طرابلس يتردد مديحهم على ألسنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن منقذ « شيرز » من أيدي الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعدها وأهلك سكانها . وتغنى الشعراء طويلا باسم محررها في القرن الخامس على بن منقذ وبخلفائه في حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقيصري .

ويلقانا في أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطيني هو العزّي إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ وقد ترك غزاة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف إلى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثي كثيرين من علماءها ، ثم تركها

إلى كَرَمَانَ وشيراز في فارس وهرارة في أفغانستان وكلما لم يبذل مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جَوَّال ، وله أشعار كثيرة رائعة في المديح وغير المديح ، وله في ابن مكرم وزير كَرَمَانَ مدائح بديعة من مثل قوله^(١) :

مادعوناه من بني الدهر إلا | أَهْلَ الدَّهْرِ نفسه للثَّهَانِ
جُمُيعُ الْأَسْدِ والكواكب والأبد | حُرُّ والنَّاسُ منه في إنسان
واستجابت له مناقبُ شَتَّى | لم تُجَلَّ في خواطر الإمكان

ويتنبه البطل المغوار أتابك الموصل عماد الدين زنكي منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجري إلى أن تخاذل المسلمون أمام حملة الصليب مرجعة إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لا بد من جمع كلمتها تحت لواء واحد . ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوا في سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بجمعهم ، ويستولى على حصن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حينئذ من سباته الطويل . ويتبارى الشعراء في مديحه والإشادة بانتصاره ، وفي مقدمتهم ابن منير والقيصري . ولم يلبث في سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرُّها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء في كل مكان لهذا الفتح المبين ، وفيه يقول ابن منير^(٢) :

فتحُ أعَادَ على الإسلام بهجتهُ | فافتَرَّ مَبْسِئُهُ واهتَرَّ عِطْفَاهُ
أين الخلائفُ عن فتحٍ أُنِيجَ له | مَظْلَلٌ أَفْقَ الدنيا جَنَاحاه

ومضى ابن منير في القصيدة يُعلَى - بحق - هذا الفتح على فتح المعتصم لعمورية أكبر مدن آسيا الصغرى في زمنه ، فقد قضى زنكي على المملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالى العراق . وبدا حينئذ - في الأفق - أمل كبير في أن ممالكهم التي أسسوها في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لا بد أن تسقط في أيدي المسلمين مهما طال الزمن . وامتدت إلى عماد الدين سنة ٥٤١ يدُ آئمة في الظلام ففتكت بالبطل الباسل ، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يجهاد الصليبيين ، وغرَّت الأمانى جوسلين فعاد إلى الرُّها ، واستردها

لابن واصل تحقيق الدكتور الشيال ٩٣/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥١/١

(٢) الروضتين لأبي شامة ٣٩/١ وانظر مفرج الكروب

سريعا نور الدين وفرّ جوسلين ، وهنّاه الشعراء بهذا الفتح المبين ، وفي مقدمتهم ابن قُسيم الحموي بمثل قوله (١) :

تبدو الشجاعة من طلاقه وجهه كالرمح دلّ على القساوة لينه
والدين يشهد إنه لمعزّه والشرك يعلم إنه لمهينه
فتح الرّها بالأمس فانفتحت له أبواب ملك لا يذال مَصُونُهُ (٢)

وولّى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ .
ونازل صاحب أنطاكية وجموعه ، وخرّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وفرّت جموع الصليبيين
مهزومة مدحورة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير في مطلع قصيدة
له (٣) .

أقوى الضلال وأقفر عرصاته وعلا الهدى وتبلّجت قسامته

وظلت أيام نور الدين محمود أعياد نصر على حملة الصليب ، وظل الشعراء يدبجون فيه مدائح
رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على أفامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغتكين على مدينة
دمشق سنة ٥٤٩ وبعثه عالمها وحافظها ابن عساكر قائلا (٤) .

لقد بلغت بحمد الله منزلة عالية فاقصدي العالی من القرب
وطهر المسجد الأقصى وحوزته من التّجاسات والإشراك والصُّلب

وفي نفس السنة يهزم الصليبيين بدلولك من ثغور حلب ، ويتنازل له حملة الصليب في أنطاكية
عن نصف أعمال حارم . واستولى على شيزر وبعلبك وصرخد ، وشغل بإرسال نور الدين شيركوه
وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور
الدين محمود يُعَدُّ بحق منشئ الدولة الأيوبية . ولم يلبث في سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ،
وأخذت حصون كثيرة تساقط في يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العباد الأصبهاني قائلا في مطالع
إحدى قصائده (٥) .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٧٤/١ وما بعدها

أقفر . عرصاته : ساحاته . تبلّجت : أضاءت .

(٢) يذال : يهان .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٢٧٧/١

(٣) الروضتين ٥٨/١ ومفرج الكروب ١٢٢/١ أقوى :

(٥) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤ .

ياواحدا في الثَّصِرِ غيرَ مشارِكِ أقسمتُ مالك في البسيطة ثانِ
كم وقعة لك في الفرنج حديقها قد سار في الآفاق والبُلدانِ
وجعلت في أعناقهم أغلالهم وسحبتهم هُونًا على الأذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين في منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، وفتوحه العظيمة مصورة في الجزء الخاص بمصر، وما وافقت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التي استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامي، ولم يبق في الشام ولا في الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل، تغنى بها سبط بن التعاويذى البغدادي وموفق الدين الإربلي والشاتالي الموصلی وابن الساعاتي الدمشقي وله مدائح كثيرة متناثرة في كتاب الخريدة، وللعماد في هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة في الجزء الخاص بمصر، ولابن الشحنة الموصلی فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين^(١):

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعتُ بها والأذنُ كالعين تُعشقُ
وقالت لي الآمالُ إن كنت لاحقًا بأبناء أيوبٍ فأنت الموفقُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام - بعد صلاح الدين - لأخيه العادل ، ولابن عَنِين الدمشقي فيه وفي ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائية بديعة في العادل يستعطفه بها في العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه في أهلها ، وأذن له العادل في العودة ، وفيها يقول (٢) :

العادلُ الملك الذي أسماؤه في كل ناحية تشرف منبرا
نسختُ خلائقه الكريمة مأتى في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
ملكٌ إذا خفت حلوم ذوى النهى في الرُّوع زاد رزاةً وتوقرا

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذي يتغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شحنة دمشق ابن أخي صلاح الدين لأمه ،

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦

صادر) ص ٦

(٢) ديوان ابن عَنِين (تحقيق خليل مردم - طبع دار

وهو ممدوح فتیان الشاغوري دُبج فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حماة الأيوبيين ، وكانوا ممدوحين . ومن أسبغ عليهم مدائحه الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ، وله في صاحبها المظفر محمود (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ - ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثاني موقف محمود حين أحس بأن التار سيفزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتار في عين جالوت كان في مقدمة المحاربين البسلاء ، وثوّه الصاحب الأنصاري بهذا الموقف الشجاع طويلا بمثل قوله ^(١) :

بَعَيْنَ جَالُوتَ خُضَّتْ بَحْرٌ وَغَى يُخَالُ فَلُكَا بِالْأَسَدِ مَشْحُونَا
وَكُنْتُ لِلْجَيْشِ غُرَّةً شَدَخْتُ أَنْوَقَهُمُ فَاثْنُونَا مُؤَلِّينَا

وطوال أيام الممالك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم . وكان لانتصاراتهم على التار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر ، ومرّ بنا في قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم في الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرق فخاض إليها لُجْجَةً وخاضها جيشه معه ومزقهم شرّ ممزّق ، وفي هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصاري الدمشقي ^(٢) .

الْمَلِكُ الظَّاهِرُ سُلْطَانُنَا نَفْدِيهِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَهْلِ
اِقْتَحَمَ الْمَاءَ لِيُطْفِئَ بِهِ حَرَارَةَ الْقَلْبِ مِنَ الْمُغْلِ

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخر حصونهم أخذ شعر المديح في الشام يتحوّل إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريين من إستمبول وكانوا لا يزالون غادين عليها راثمين ، مما جعلهم يكثرّون من مديح سلاطينهم ، على نحو

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى - نشر مجمع اللغة . (٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مايلقانا في ديوان مامية الرومي المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلطين سليمان وسليم الثاني ومراد الثاني . ويكثر حيثذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثرثون مثل المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك في آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجمل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نقرأ من شعراء المديح النابيين .

ابن الخياط^(١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقي . ودائما يلقانا في كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ في المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيبا ، وكانت المساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات غاصة بالكتب في كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب في كل بلد عربي أن يتزود بما شاء من الثقافة علمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لا حصر لهم .

وشهد ابن الخياط في صباه دمشق نائرة على حكم بدر الجمالي ، حتى لقد أشعل أهلها النار في قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائدا في دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تُتُش أخو السلطان ألب أرسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سوءا شديدا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزلها تتش مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها في هذه الأثناء ابن الخياط وكان لا يزال في بواكير شبابه ، وولَّى وجهه نحو حماة ، ووفد على أمير بها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذة كاتباً له ، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبَانِي جَوْدُهُ عَيْشًا كَأَنِّي ظَفَرْتُ بِهِ مِنَ الدَّهْرِ اسْتِرَاقًا

خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ترجمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ وذيل تاريخ دمشق لابن القلائسي ٢٣٤ والخريدة (بداية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن

وكان شاعرٌ بلدته ابنُ حَيُوس حين اضطربت الأحوال في دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها في كنف بني مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حَيُوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تنويهه بشعره . وأوصاه أن يفد على بني عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو ما يلاحظ من مدحه للأمير الحلبي وثاب بن محمود بن صالح وله يقول :

لقد لبستُ بك الدنيا جمالاً فلو كانت يدًا كنت السّوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلّد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شيزر ، فاتصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وما اشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لحصنهم الأشم من مناعة ، وفي ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزّ حصباء أرضهم أعزّ منالا من نجوم الغياهبِ

ونرى ابن الخياط في سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حَيُوس ، فينزل طرابلس قاصداً بني عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ - ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولها داليتة ، وفيها نحسّ فرحته بلقائه من مثل قوله :

كفى يندى جلال الملك غيّا إذا نرحت قِوارة كلّ وادٍ
فمن ذا مُبلغ الأملاك عنا وسؤاسِ الحواضر والسبوا
بأنّا قد سكنا ظلّ ملكٍ مخوفٍ البأسِ مرجو الأيادي
فما نخشى محاربة الليالي ولا نرجو مسالة الأعادي

وهنئ بمقامه في ظل بني عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأدباء كانوا يخرجون للمتزهات وينعمون بمشاهدتها الطبيعية البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك في المناسبات كمرور الأعياد . وله في أخيه فخر الملك قصائد لاتقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله في إحداها :

أأرتجى غيرَ عمارٍ لنائبةٍ إذن فلا آمتننى كفه الثوبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له منعا لضاق به ذرعًا وإن رَحِبَا
البازلُ المالَ مستولًا ومبتدئًا والصَّائِنُ المجدَ موروثًا ومكتسبًا

وظل في طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث ، فحزن حزناً شديداً.

وعَبَثَ بابن الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلَّاته بها أيام الشباب ، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقي وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهاني ، واصطحبه معه إلى « الرى » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بني كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش غضب الدولة آبق أبوابه فمدحه بقصيدة بائية ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفي سنة ٥٠٢ ومن قوله في البائية :

وما آبقُ إلا حَيًّا مُتَهَلِّلٌ إذا جَادَ لم تُقْلَعِ مواطرُ سُحْبِهِ
أغرُّ غياثُ للأنام وعصمةٌ يُعَاشُ بُنْعَاهُ وَيُحْصَى بِذَبِّهِ
ولم يُرَ يوماً راجياً غيرَ سَيْفِهِ ولم يُرَ يوماً خائفاً غيرَ رَبِّهِ
حُبَيْتَ حياءَ في سماحٍ كأنه ربيعٌ يَزِينُ النَّوْرَ ناضراً عُشْبُهُ

والقصيدة رائعة حقاً ، نوه بها القدماء طويلاً كما نوهوا بغزلها وسنشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامي في السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُعْتِكَيْن صاحب دمشق على سواد طبرية سنة ٤٩٩ وفي السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صيدا ، وفي ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عصب الدولة أمير الجيش في دمشق على منازل الصليبيين ، وفيها يقول مستنفرًا الدمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرضِ إفْرِنجيةٍ جيوشٌ كمثلِ جبالٍ تَرْدَى
أنومًا على مثلِ هَدِّ الصَّفَاةِ وهزلاً وقد أصبح الأمرُ جِدًّا
وكم من فتاةٍ بهم أصبحت تَلْبَقُ من الخوفِ نَحْرًا وخَدًّا

فحاموا على دينكم والحريم محاماة من لا يرى الموت فقد
فقد أبتعت أروُسُ المشركين فلا تُغفلوها قطافاً وحَصداً

وله وراء هذه القصيدة مراثية لبطل استشهد في حرب حملة الصليب سنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة غضب الدولة المتوفى - كما مرّ بنا - سنة ٥٠٢ . ولا نجد له وراء هاتين القصيدتين شعراً حماسياً ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن ظناً أن شعراء الشام في الربع الأول من القرن السادس على الأقل قَصُرُوا في استشارة الأمة ضد حملة الصليب حيثئذ . وله في هذه الفترة التي عاشها بعد غضب الدولة مدائح في بعض الرؤساء والوزراء ورجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها في مرضه الأخير يسترفد ابن القلانسي المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

له فَقَرُّ لو تجسّدن لم يُفَضِّلن إلا بين العقود
فَيُظَلَمَنَّ إن قيل نُورٌ نَصِيرٌ وَيُبَحِّسَنَّ إن قيل دُرٌّ نَصِيدٌ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون في اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نُزْةٌ كثيرة في الغوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب الترد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها العماد الأصبهاني في خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الحياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغرابة أو ما يشبه الغرابة ، ومع جمال الموسيقى والجرس الصوتي وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة الفذة .

ابن القيسراني^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بعكا سنة ٤٧٨

الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والشذرات ١٥٠/٤
وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود
إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه - وهي مختارات منه -
بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة ابن القيسراني وشعره الخريدة (قسم
الشام) ٩٩/١ وابن القلانسي : ٣٢٢ ومرآة الزمان لسبط
ابن الجوزي (طبع حيدر آباد) ٢١٣/٨ ومعجم الأدباء
٦٤/١٩ وعبر الذهبي ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤
والنجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروضتين ٥١/١ في حروب عماد

وانتقل به أبوه وهو في صباه إلى قيسارية^(١) ، فنسب إليها وقيل ابن القيسراني إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد في هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقلماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأي الأول أننا سنجدده عما قليل أهم شاعر شامي عُني بتصوير البطولة العربية في الفتك بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ماتشتبك مع الصليبيين في حروب وتتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث في عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طغتكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبرية سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم في البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لانبجدها أي ذكر أو صدى في شعر ابن القيسراني مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق في أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثاني من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها في عهد بوري بن طغتكين (٥٢٢ - ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشده أولى قصائده في الحروب الصليبية حين هزم حملة الصليب على أبواب مدينته في أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جدّة ففارقوها وفي أيديهم العدم
وغادروا أكثر القُرْبان وانجفلوا وخلفوا أكبر الصُّلْبان وانهمزوا^(٢)

وكان - كما قال مترجوه - يتولى في أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بوري (٥٢٦ - ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسراني ، مما جعله يهجو ، وعلم بهجائه فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وفر منه بعيدا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكي على حملة الصليب واستيلائه منهم على المعرة وبعرين ، وتؤكد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربي حلب في الطريق إلى حماة ، ويشعر في عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

(٢) انجفلوا : تشردوا

(١) كانت ثغرا كبيرا من ثغور فلسطين .

حَذَارِ مِنَّا وَأَنَّى يَنْفَعُ الْحَذَرَ وَهَيَّ الصَّوَارِمَ لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ
وَأَيْنَ يَنْجُو مَلُوكُ الشُّرْكِ مِنْ مَلِكٍ مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ بَلْ مِنْ جُنْدِهِ الْقَدَرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرها من يدجوسلين ومحو عار هذه المملكة أو الدولة التي أقامها الصليبيون شمالي العراق آمليين في الانحدار منها إلى الجنوب ، وإذا عماد الدين يستولى عليها بجيوشه وبطولته الخارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم في نفس ابن القيسراني ونفوس المسلمين وينشد :

سَمَتْ قِبْلَةَ الْإِسْلَامِ فَخْرًا بِطَوْلِهِ وَلَمْ يَلِكْ يَسْمُو الدِّينَ لَوْلَا عِمَادُهُ
مَصِيبُ سَهَامِ الرَّأْيِ لَوْ أَنَّ عَزَمَهُ رَمَى سَدَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَضْمَى سِدَادَهُ
فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْكُفْرِ تُسَلِّمُ بَعْدَهَا مَمَالِكُهَا إِنَّ الْبِلَادَ بِلَادُهُ

ونرى ابن القيسراني - بعد هذا الفتح المبين - بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العماد زارها. لحاجة عرضت له ، ولاندرى هل كانت حاجة سياسية لأمير أوكانت حاجة شخصية ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية ، والمهم أنه شُبِّبَ بإفرنجيات وبراهبات وتمادى في التشبيب ، وسندكر طرفا منه في حديثنا عن شعراء الغزل . وعاد من رحلته إلى عماد الدين و جمال الدين بن أبي منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقتل عماد الدين بيد آئمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده المملكة العادل نور الدين ، وتغرجوسلين الأمانى ووقوف الأرمن معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه الدين منكلا بالأرمن ، ويهنيئ ابن القيسراني الوزير ابن أبي منصور بهذا الانتصار قائلا

لِيَهْنِكَ مَا أَفْرَجَ النَّصْرُ عَنْهُ وَمَانَالَهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ
وَأَنَّ يَكْ فَتَحَ الرُّهَا لُجَّةً فَسَاحِلُهَا الْقُدْسُ وَالسَّاحِلُ

وحقا عظم الأمل في نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل السادة الشامي جميعه . ويحشد حملة الصليب في سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم في بقعة تسمى (يَعْرِفُ) ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسراني :

مظفرٌ في دِرْعِهِ ضَيْعَمٌ عليه تاجُ الملكِ معقودٌ
وصارمٌ الإسلامَ لا يَنْثِنِي إلا وشِلُّوا الكفرِ مَقْدودٌ^(١)

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب لحشودهم عند حصن «لُنْب» ولقيهم نور الدين فحقهم محققا . وقُتل في المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاقى ، ولم يفلت من القتل إلا من خبّر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسراني بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :

هذي العزائم لا ما تدعى القُصْبُ وذى المكارمُ لاماقلت الكتبُ^(٢)
أغرّت سيوفك بالافرنج راجفة فؤادُ رومية الكبرى لها يَجِبُ^(٣)
غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْكَ رضا وكان دين الهدى مرضاته الغُصْبُ
من كان يغزو بلادَ الشُّركِ مكتسبا من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ^(٤)
فأنهضُ إلى المسجد الأقصى بذي لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتَقِبُ^(٥)

ولابن القيسراني مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحربيين ضد حملة الصليب وما يأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامي على أصحابها المسلمين . ودائما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب في سبيل الله لا يبتغي مغنا ، إنما يبتغي ما عند الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة .

إلا تكنُ أحدَ الأبدال في فلكِ الـ شَقْوَى فلا نَنَارِي أنكَ القُطْبُ

وكانه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعيش ابن القيسراني حتى يمجّد بقية انتصاراته المجيدة على الصليبيين ، إذ توفي قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح في بني منقذ وفي مجير الدين آبق صاحب دمشق . ويقول العماد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يتصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل في شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخطاط فهو تلميذه وخريججه وراوى ديوانه .

(١) الشلو : العضو وبقيّة الشيء . مقدود : مشقوق

(٢) القُصْب جمع قضيب : السيف القاطع

(٣) راجفة : نفخة مميتة : يَجِبُ : يخفق

(٤) مُحْتَسِب : يحسب أجره على الله

(٥) ذولجب : الجيش . اللجب : الصباح والجلبة .

ابن^(١) الساعاني

هو بهاء الدين علي بن محمد بن رستم الدمشقي خراساني الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ هـ وكان ماهرا في صنع الساعات الفلكية ، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التي وُضعت على باب الجامع الأموي ، وأتاح له ذلك ثراء ، نعم به ابنه على إذ شُغف بالفروسية وبيع بعض ضروب اللهو مثل الزرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين في الجامع الأموي ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شب أرسل به أبوه إلى البديع الأسطُرلابي بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفي قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعي صلاح الدين ماصلحتُ شَمُّ الممالك بعد الزَّيغ والميل
فليعلم القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ حلوله وعلى الآفاق فليطُل^(٢)

وتحققت سريعا نبوءته بفتح القدس ، ونراه بين من حَفُّوا بصلاح الدين في موقعته الماحقة :
موقعة حِطَّين على حافة طبرية ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وما أنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبدا ، إذ كُتبت الكثرة منهم على وجوهها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم في أسر البطل العربي ، وله يقول :

جَلَّتْ عِزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمِينَا	وقد قَرَّتْ عِيُونَ الْمُؤْمِنِينَ
قَضَيْتَ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهُ	وَصَدَّقْتَ الْأَمَانِي وَالظَّنُونَا
فَأَلَمَ بِالسَّوَاهِلِ فَهَى صُورُ	إِلَيْكَ وَالْحَقُّ الْهَامَ الْمُتُونَا ^(٣)
وَقَلْبُ الْقُدْسِ مَسْرُورٌ وَلَوْلَا	سُطَّاكَ لَكَانَ مَكْتَنَبَا حَزِينَا
أَدْرَتَ عَلَى الْفَرْنِجِ وَقَدْ تَلَاقَتْ	جَمُوعُهُمْ عَلَيْكَ رَحَى طَحُونَا

أنيس المقدسي (طبع المطبعة الأمريكية - بيروت)

(٢) يطول : يفخر تبا

(٣) صور : مائلة أو ناظرة . الهام : الرءوس

(١) انظر في ابن الساعاني شعره وفيات الأعيان لابن

خلكان ٣٩٥/٣ وعبر الذهبي ١١/٥ ومراة الزمان : ٣٧٥

والغصون البانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب

١٣/٥ وابن أبي أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حملة الصليب في ييسان وغير ييسان ، وتراءى له مدن الساحل الشامي ، وهي تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعلا لم تمض شهور حتى فتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصبح مبهجا فرحا :

لقد ساغ فَتَحُ القدس في كلِّ منطقٍ وشاع إلى أن أسمع الأسْلُ الصُّمَّ (١)
فليت فتي الخطَّاب شاهدَ فَتَحَها فيشهد أن السهمَ من يوسفِ أَصْمَى
حبَّا مكةَ الحُسْنَى وثنى بيثربٍ وأطرب ذِيَّكَ الضَّرِيعَ وماضِمًا
وأصبح ثغرُ الدينِ جَدْلانَ باسمًا والسنةُ الأغْدادِ تُوسعه لَشَمًا

لقد فُتِحَ القدس عنوة ، وإن قعقة السلاح لتكاد تسمع الصُّمَّ ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحًا حربيًا بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلما . ويصور ابتهاج مواطن الوحي في مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثغر الدين ، وكأنما ألسنة الأغْداد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد في صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وبمن حول نور الدين كما يتضح من قوله في مدحة له :

أبَكْتَنَى الأَيَّامُ مذ ضحكْتَ لي عن نيوبِ نوابِ عُصْلٍ (٢)
أفسدن خلاني فمالي في الـ سَرَّاءِ والضَّرَّاءِ من خِلِّ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعد له صديق وفي في موطنه سببا في أن يشد رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا في شعره ، وكان قد وطد علاقاته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه في القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور في مديحه منادمته له ومجالس أنسه . وله مدائح في السلطان

(١) الأسْل : الرماح والسيوف .

(٢) عَصْل : معوجة كَأَنِيَاب الأسد

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يتملى بمشاهد الطبيعة وصوّر ذلك فى كثير من شعره ، وفى دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسندكر بعضا من قصائده فى طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضا بعضا من خمرياتة .

الشهاب^(١) محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبليا ، فحفظ القرآن صبيا . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك فى النحو وابن الظهير الإربلى فى الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يحلّه ويوده مودة مخلصه ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكتّه معاليه ولم يُرْ قبله كريمٌ مضى والمكرّماتُ نوادبه

وبرع محمود فى الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء فى دمشق يعينونه فيه وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محبى الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان فى عهد السلطان بيبرس البندقدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمرى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتباً محسناً وظل يعمل بديوان الإنشاء فى دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله فى الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متفوقا كما كان كاتباً بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامى الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تغرى بردى يقتصر فى أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرق

(١) انظر فى الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن

شاكرو فى ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١

وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن

والتاسع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء

والبداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن

حجر ٩٢/٥ والدارس فى تاريخ المدارس للتبعينى ٢٣٦/٢

الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار ونحاض إليهم الفرات وفتك بجمعهم وكاد أن لا يبقى
 باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول
 فيها :

سِرَّ حَيْثُ شَتَّ لَكَ الْمُهَيْمَنُ جَارُ وَاحْكُمُ فَطَوَّعُ مَرَادِكَ الْأَقْدَارُ
 خُضَّتِ الْفُرَاتُ بِسَابِحِ أَقْصَى مَنَى هَوَّجُ الصَّبَا مِنْ نَعْلِهِ آثَارُ
 حَمَلْتُكَ أَمْوَاجَ الْفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى بَحْرًا سَوَاكَ تُقْلُهُ الْأَنْهَارُ (١)
 رَشَّتْ دِمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَطِرْ مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّعِيدِ غِبَارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقدوا
 على منازلة بيبرس ، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم
 يغن ذلك عنها شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البواسب الأهوال كالأسد الضارية إلى أن انكسر
 التتار والروم وفروا معتصمين بجبال وراءهم ، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة
 عظيمة وفي ذلك يقول الشهاب محمود :

كَذَا فَلْتَكُنْ فِي اللَّهِ تَمْضَى الْعِزَائِمُ وَإِلَّا فَلَا تَجْفُو الْجَفُونَ الصَّوَارِمُ (٢)
 بِجَيْشٍ تَظَلُّ الْأَرْضُ مِنْهُ كَأَنَّهَا عَلَى سَعَةِ الْأَرْجَاءِ فِي الضِّيقِ خَاتِمُ
 يَحِيطُ بِمَنْصُورِ اللَّوَاءِ مَظْفَرٍ لَهُ النَّصْرُ وَالْتَأْيِدُ عَبْدٌ وَخَادِمُ
 مَلِيكٌ بِهِ لِلدِّينِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ بِشَائِرِ الْكُفَارِ مِنْهَا مَاتِمُ
 مَلِيكٌ لِأَبْكَارِ الْأَقَالِمِ نَحْوَهُ حَنِينٌ كَذَا تَهْوَى الْكَرَامُ الْمَكَارِمُ

وسنذكر في جزء مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم
 مثل قيسارية وصُفد والرملة ويافا وأنطاكية مزيلا منها مملكتهم ، ولم يدون ابن تغرى بردى شيئا
 من شعر الشهاب محمود في هذه الفتوح الضخمة . ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر في منازلة
 الصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التي أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك
 تكون جميع ممالكهم التي شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق في أيديهم إلا عكا وصور وصيدا.

(١) نقله : نحملة

السيف القاطع

(٢) جفن السيف : غمده . الصوارم جمع صارم

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجّد فتوحه الشهاب محمود قائلا .

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لاماتزعم السير
هذا الذى كانت الآمال إن طمحت إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فأنهض وسير واملك الدنيا فقد نحلّت شوقا منابرها وارتاحت السرر^(١)
إن لم يؤفّ الورى بالشكر ما فتحت يداك فالله والأملك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف السطوة قوى البطش ، وبمجرد أن استهلت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا في شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعتهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعصى الداوية والإسبترية في أول الأمر معتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدف أن فتحها تم في السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار في نفس الموعد الذى كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفي هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهنّا « الأشرف خليل » مفتتحها لها بقوله :

الحمد لله ذلت دولة الصليب وعزّ بالترك دين المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمال لو طلبت رؤياه فى النوم لاستحيث من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدُها فى البحر للشرك عند البرّ من أرب^(٢)
لم يبق من بعدها للكفر مذ خربت فى البحر والبر ما يُنجى سوى الهرب
يا يوم عكا لقد أنسيّت ماسبقّت به الفتوح وما قد خطّ فى الكتب
بُشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت بك الممالك واستعلت على الرتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيدا

(٢) أرب : مطلب وأمنية

(١) السرر : جمع سرير : العرش

وقلعة جبيل وعثليث وأنطربوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويمد فتوحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربى الفرات ، ويهتبه الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلا من مدحة طويلة .

وفتحُ بدَا في إثر فتح كأنما سماءُ بدتْ تترى كواكبها الزُّهرُ

وعلى هذا النحو سجّل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلاوون وخليل تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها في ديوان سماه : « أهنا المنائح في أسنى المدائح » وهو مفقود ، وستنشد له قطعا في حديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوى .

منجك^(١) بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ في بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعليم ، فحفظ صغيرا القرآن الكريم ، حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يختلف إلى علماء دمشق ، آخذا القراءات على الشيخ عبد الرحمن العمادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوفاى ، وأبى العباس المقرئ . أما الأدب الذى شغف به منذ نشأته فقد أخذه عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا في إسرافه ، فأنفق ما خلفه له أبوه ، حتى إذا تَرَبَّتْ يداه وضاعت به دنياه ولَّى وجهه نحو إسطنبول ، ولكنه لم يحقق فيها ما كان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر جمعه فضل الله المحبى والد صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات والخمريات ، وأكثر مدائحه في الفقهاء والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفي مقدمة من مدحهم شيخه في القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تَنَدَى أَنَامِلُهُ وَيُشْرِقُ وَجْهُهُ فَيَجُودُ بِالْآلَاءِ وَاللُّلَاءِ
يَقْظُ لَأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا جُلِيَتْ عَلَيْهِ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ

طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم ديوان منجك .

(١) انظر في منجك ربحانة الألبا طبعة عيسى الحلبي ٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤٠٩/٤ ونفحة الربحانة ، وقد

ومهابةً سادَ الولاة ولاؤها محفوفةً بجلالةٍ وبهاء
وشمائلٍ رقتَ كما خطرتُ على زهرِ الربيعِ بواكرُ الأنداءِ

والصياغة رصينة جزلة ، والألفاظ مختارة منتخبة . والمعاني مكررة في المديح التقليدي ، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها لإخراجاً طريفاً على نحو ما يتضح في البيت الأول الذي جمع فيه بين الكرم والبشر المترقق في وجه الممدوح ، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بلآلاء الوجه وإشراقه وما يجري فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء والآلاء جناس بديع . وواضح كيف لاءم في البيت الثاني بين معناه وبين الممدوح وكان مفتياً لدمشق ، فوصفه بالفطنة ودقة الحدس ، وبالمثل البيت الثالث وما جمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصياغة . وقل ذلك نفسه في البيت الرابع فشمائل المفتي رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسائم والأنداء .

وولى القضاء في دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء في الدولة العثمانية وعم فضله وبره أدبائها ، وله ألف البديعي كتابيه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » و « الصبح المنبى في الكشف عن حيشة المتنبي » ويقول منجك في تهنئة له بالعيد :

آلى الزمانُ عليه أن يُواليكَا يُثنى عليك ولا يأتي بثنائيكَا
إذا سَطَا فبأحكامٍ تنفَّذها وإن سَخَا فبِفَضْلٍ من مساعيكَا
من ذا يُضاهيك فيما حُزَّت من شرفٍ ومن يُدانيك في حِلْمٍ ويَحْكِيكَا
أعيادُنَا كُلُّهَا يومُ نراك بهِ وليلةُ القَدْرِ وَقتٌ من لياليكَا

والملاءمة بين معاني الأبيات ومنصب المفتي - وكان حينئذ قاضياً بدمشق - واضحة ، والمبالغة واضحة في البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثنى وثنائيكَا » وعاد إليها بقوة في البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضي أعياداً ، ولكنه أبقى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتاً من ليالي الشيخ . ولأريب في أن صياغته ناصعة ، وأنه يغلب على شعره السلاسة ، مع ما يوشيه به من جناس وطباق كما في البيت الثاني . ودائماً محسنات البديع عنده مقبولة ، وقلماً يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة في أستاذه المقرئ - وهو صاحب نفح الطيب - ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفا » وهو في مدح المصطفى سيد المرسلين ، وتموج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بآراءٍ مسددةٍ ويقطع الليلَ تسييحاً وقرآنا

وتلقانا وراء مدائحهم في الديوان وعند من ترجموا له أُلغاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجري ، وكثرت زمن المالك والعمانيين . وله غزليات وخمريات بديعة ، سندكر منها بعض أبيات في غير هذا الموضع .

٥

شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي على نحو ما نجد عند زهير ، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربيها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع في فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم في سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلي يحاكون الجاهليين في تغذية أشعارهم بتلك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسي أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عتادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ النابهن منهم يعتمدون على عقولهم الخصبية في استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُخصى حكمه بالعشرات ، بل أحيانا بالآلاف على نحو ما عرف عن أبي تمام الشاعر الدمشقي ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدوها ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش المتنبي أكثر سنوات عمره في الشام وبواديها وقد بلغ الذروة في تضمين مدائحه حكما رائعة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعمائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة ما يتناثر في شعره من حكم أفردتها بعض الأسلاف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهي مبالغة مفرطة في التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة . وظل شعراء الشام يستظهرون - بعد المتنبي وأبي تمام - الحكم في جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربي حكما وفيلسوبا كبيرا ، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ وسنترجم له عما قليل .

وكان الطُّغْرَائِي قد لَمَعَ اسمه بنظمه لامية العجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أبي العتاهية التي سماها ذات الأمثال ، والتي ضمنها أربعة آلاف مثلي . ولامية الطُّغْرَائِي لا تبلغ مبلغها في حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هي من البسيط على شاكلة نونية البُسْتِي المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن يخصوا بعض

قصائدهم برصف طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسي قصيدة من هذا الطراز يقول فيها (١) :

وإذا الكريم رأى الخمول نزيلةً في منزلٍ فالخزم أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءل جدًّا في طلب الكمال فحازه متنقلا
سَفَهَا لحلمك أن رضيت بمشربٍ رنقٍ ورزقُ الله قد ملأ المَلَا
فارقُ تُرقُ كالسيف سُلُّ فبان في مَتْنِهِ ماأخفى القِرابُ وأخملا
للقفر لا للفقر هَبْهَا إِنَّمَا مَعْنَاكَ ماأغناكَ أن تتوسلا

وهي أمثال وحكم يراد بها النصيح لسلوك الشخص الكريم على نفسه في الحياة . فلا يرضى بمنزل هون ، بل يرحل ويتنقل ، فكمال البدر وعز الشخص في تنقله . ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملا أو الأرض وملأها بالطيبات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسلُّ من قرابه أو غمده ، وعار ما بعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفر المجذب الخراب خير من أن يقف بباب .

ودائما تلقانا هذه الحكم في تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضا منشورات في كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصي (٢) :

: الدهر كالطيف بُؤْساه وَأَنْعَمُهُ عن غير قَصْدٍ فلا تَحْمَد ولا تَلْم
لا تسأل الدهر في البأساء يَكْشِفُهَا فلو سألتَ دوامَ البؤس لم يدم

فكل شيء حائل وزائل ولادوام لضر أو نفع ولا لبؤس أو نعيم ، ولادخل لدهر في شيء من ذلك ، ولا يأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولا ضر يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الأمثال والحكم في العصر المملوكي قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهي في أكثر من سبعين بيتا . وفيها يقول (٣) :

(١) ابن خلكان ١٥٦/١
(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧
(٣) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة عيسى البابي الحلبي) ٣٠٦/١

اعتزل ذكر الأغاني والغزل. وقل الفصل وجانب من هزل
 واتق الله فتقوى الله ما مازجت قلب امرئ إلا وصل
 قاطع الدنيا فمن عاداتها تخفض العالی وتعلی من سفل
 لا تقل أصلي وفصلي أبدا إنما أصل الفتي ما قد حصل
 مل عن النمام واهجرة فما بلغ المكروه إلا من نقل

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدي الإنسان في سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردي ينظمون مثل هذه الحكم أيام المماليك وأيضا أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكما وأمثالا منتشرة في أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزري الحلبي المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة^(١) :

حاذِرْ عِدَاكَ الْأَقْرَبِينَ مِنَ الْوَرَى فَأَضْرُهَا الْقُرَبَاءَ وَالْقُرَنَاءَ
 وَتَوَقَّ مِنْ كَيْدِ الْحُقُودِ وَلَيْنِ مَا يُبْدَى فَقَدْ يُصْدى الْحَسَامَ الْمَاءَ

ويذكر ابن معصوم لشاعري يسمى نجيب الدين علي بن محمد العاملي رحلة أودعها أشعارا على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن الهبارية ومافيه من حكم ومعان خلقية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله^(٢) :

المرء لا يسلم من حاسدٍ أوشامتٍ في اليسر والعسر

وتكثر الحكم أيضا في كتاب نفحة الريحانة للمحبي ، وهي من قديم كثيرة في الشعر العربي كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلا عند أبي العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافي الشام وحدها بل في العالم العربي جميعه . وتتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

(١) ريحانة الألبا ١٢٢/١

(٢) سلافة العصر لابن معصوم ص ٣١٠

أبو العلاء^(١) المعري

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التَّنُوخِي ، ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة في بلدة تسمى « مَعْرَةَ النعمان » من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته « أبي العلاء » وفي ذلك يقول :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَيَّنُّ أولكنَّ الصحيحَ أبو التَّزُولِ

وأُسْرته تنحدر من قبيلة تَنُوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدري وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لأعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنني ألبستُ في الجدري ثوبا مصبوغا بالعُصْفُر ، لأعقل غير ذلك » . وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، وألم بهم ياقوت في ترجمته له بمعجم الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعي أن يقتدى بهم فيكبَّ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضا فإن فقد بصره مبكرا جعله يُعْنَى بطلب العلم . وتلمذ على أبيه أولا ومن في بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ما عندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو في نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة والشهر إلا في العيدين .

ورحل إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوي أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمتنبى ، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد لبث نداء ربه . وأخذ نفسه منذ

والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٦٥ وفصول في الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقاد ص ٧٠ وأبو العلاء المعري للدكتورة عائشة عبدالرحمن ومقدماتها لتحقيقها لرسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشروح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لميتر ١١٠/٢ .

(١) انظر في ترجمة أبي العلاء وشعره معجم الادباء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبي العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا في المراجع القديمة ومن أهمه رسالة الإنصاف والتحرى في دفع الظلم والتجريح عن أبي العلاء المعري لابن العديم الحلبي وهي دفاع قوى عنه ونفى لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبي العلاء لطله حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتبنا : كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦

هذا التاريخ في سنة ٤٠٠ هـ بحياة زاهدة خشنة ملازما داره وبلدته لايرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث^(١)
لفقدى ناظري ولزوم يتي وكون النفس في الجسم الخبيث

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه في جسده وسجن داره وسجن فقهه لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ هـ إلى سنة ٤١٥ هـ وكان أول ولايتها للحاكم بأمر الله الفاطمي عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدثا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألفه لفاتك بسبب حق على بعض أقربائه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كلية ودمنة ، ولم يكمل يتم الجزء الرابع منه حتى توفي فاتك سنة ٤١٣ هـ فعدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سدد الدولة الكتامي سنة ٤١٤ هـ وقدم له أبو العلاء الرسالة السندية في مجلد واحد .

واعتقل صالح بن مرداس أمير حلب في سنة ٤١٨ هـ سبعين رجلا من المعرة هم مشايخها وأماثلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » . وعاد إلى داره وهو ينشد :

بُعثت شفيعا إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مئى : سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

ومنذ حبس نفسه في داره أصبح ملاذا لطلاب العلم في العالم العربي ، فهم يغدون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحها ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفي مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمري : « أخذ عن أبي العلاء خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبخر وديانات .. وكان له أربعة من الكتاب المجودين يكتبون عنه مايكتبه إلى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم في كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحري » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

(١) النبيث : الخفى .

وكان أبو العلاء آية خارقة في الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب النرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعبُّ وينهل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعا سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثلهُ أبو العلاء تمثلا حيا خصباً ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثل صاحبها التراث الإنساني جميعه .

ومنذ سنِّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك في شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميهما البلسن والبلس رافضاً ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يقنعني بُلْسُنُ بُارَسُ لى فإن أتتني حلاوة فَبَلَسُ

ويقول ناصر خسرو في رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ هـ فوجده في سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك في أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لنرى القفطى - وهو أحد من تحاملوا عليه ورموه بالإلحاد - يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلِّفَ له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِيز ، فشئ حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذاك خشن الملابس والمأكول والزهد في ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له في السنة مقدار ثلاثين دينارا قدَّر منها لمن يخدمه النُصف ، وأبقى النصف الآخر لمثونته ، فكان أكله العدس - إذا أكل - مطبوخا وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) في الشتاء وحصيرة من البردي في الصيف ، وترك ما سوى ذلك . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذاً بمذاهب الحكماء ولا اتباعاً لمذهب البrahمة الهندي ، كما قيل ، بل لضيق ذات يده وإشفاقا على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة في الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسّ بعمق آلام الإنسان في دُنياه ، ولعل ذلك ما جعله يعزف عن الزواج حتى لا يرزق بولد يكابد من دنياه ما كابدته وصُرح بذلك قائلا :

هذا جناهُ أبى عيسى وما جنيتُ على أحدٍ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا في سنة ٤٤٩ هـ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيراً الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني نحو أربعين رسالة ، ونشرها في ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنيحية التي أرسل بها إلى الوزير البغدادي أبي القاسم المغربي وتلاها بالرسالة الإغريقية المرسلة إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل في غير هذا الموضع . ولأبي العلاء أيضاً رسالة الملائكة وهي في مسائل التصريف ، طبعت قديماً بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسنلم بها وبكتابه الفصول والغايات في حديثنا عن النثر . وله « ملق السبيل » في الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثراً ثم يصوغه شعراً . وله ديوان صغير سماه الدرعيات وهو أشعار في وصف الدروع ، وقد طبعت ملحقة بديوانه الكبير سقط الرند .

ونقف قليلاً لتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثاني اللزوميات ، والسقط أول ما يخرج من نار الرند وشره ، سمي أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول ما نظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها في رثاء أبيه وهو في الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعره في الكهولة ومنه قصيدة نظمها في رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرًا مثنياً إلى خازن دار العلم ببغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمى شرحه « ضو السقط » وقد طبعت في مصر قديماً . وطبعت دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزي وشرح لأبي محمد البطليوسي الأندلسي وشرح لأبي الفضل قاسم الخوارزمي ، وهو في خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره في المديح ، وجمهوره في مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك في مقدمته قائلاً « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلباً للثواب وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذي ستر بَغْفَةً (بُلْغَةً) من قوام العيش » . ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجه إليهم مديحه - كما قال - طلباً للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يحبهم شعراً ، وربما مدحهم شاكرًا صنيعاً لهم على نحو ما ذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفاً عونه الحميد له في أثناء ترده على تلك الدار ومكتبها الكبرى المشهورة . وطبيعي أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد . وهو في الديوان - بعامة - يحاكي المتنبي ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرح ديوانه وسماه معجز أحمد بينما سمي شرحه لديوان أبي تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحري « عبث الوليد » ويفجؤنا في الديوان فخر عنيف على نحو ما نقرأ في قصيدته :

ألا في سبيل المجد ماأنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتي بما لم تستطعه الأوائل

وهذا الصوت القوي الفاخر المباهى بالمجد والعبقريّة يكاد يحتفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقي : صوت اليأس من الناس والحياة والمعرفة بالدهر وتصارييف أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقدّه لبصره ، وأيضا بسبب تشاؤمه وما حمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكّا كثيرا من أنه لا يجد في الدنيا صديقا ولا أخا يُضيفه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى يقول :

ولو أنّي حُبَيْتُ الخُلْدَ فَرَدًّا لما أَحْبَبْتُ بالخُلْدِ انفرادا
فلا هطلتْ عَلَيَّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

وببالغ أبو العلاء في سوء ظنه بالناس في نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عطارٍد المنسوب إليه السُّلَم لو خبرت الناس خبرته وبلاءه وجربت من كيدهم ماجرب وعرفت من خُبث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولا تراءت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

ففظنَّ بسائر الإخوان شرًّا ولا تأمنُ على سِرِّ فؤادا
فلو خبرتهم الجوزاء خبري لما طلعتْ مخافة أن تُكادا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكانه في السؤدد فوق السموات السبع رفعة وعلاء ، وإنه ليفلُّ نوايب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومضائه . وفي رأينا أن أروع قصائد أبي العلاء في سقط الزند مراثيه لأنها تفصل من ذات نفسه ومن أهمها مراثيه لصديقه الفقيه .

غير مُجْدٍ في مِلَّتِي واعتقادي نوحُ بالكِ ولا ترنُّمُ شادي
وشبيهُ صوتِ الثَّعْبِيِّ إذا قِيدَ سَسَ بصوتِ البَشِيرِ في كل نادى

وواضح أنه يقول في مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرّح دلالتها واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود - مها طالت حباته - صراخا عليه ، حتى لكان الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجوة الحماة فلا يدري السامع أتبكي محزونة أم تغني مبهجة . ويمضي

أبو العلاء في مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وطء أقدامه على الأرض ، لأن ترابها من أديم آبائه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحدٍ فيها يضحك من تزاحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولا يلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لا ضفاف له ، وإن الحزن على الميت والفجعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبى العلاء مرثية ثانية يرثي بها صديقا من أبناء عمومته ، وهي تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقدارهُ لم يَفْخَرْ المولى على عبْدِهِ
أضحى الذى أُجِّلَ فى سِنِّهِ مثلَ الذى عُوْجِلَ فى مَهْدِهِ
ولا يبالى المَيِّتُ فى قبرِهِ بِذِمِّهِ شَيْعٍ أَمْ حَمْدِهِ
والواحدُ المُفْرَدُ فى حَقِّهِ كالحاشدِ المكثِرِ فى حَشْدِهِ
ورُبُّ ظَمآنٍ إلى مَوْرِدٍ والموتُ لو يعلم فى وَرْدِهِ

وديوانه الثانى اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفى بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه - كما يقول فى مقدمته - ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويته يحىء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لا يلزم من بقاء أو تاء أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفاً كان يشغل بها الفراغ الطويل الذى نظم فيه اللزوميات إذ امتد الى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمة ومنها العارضة أما الدائمة فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد ، كما مررنا فى غير هذا الموضع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة فى البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستم نسق الجناس . وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين فى اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة ، بحيث يُعدُّ أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون فى أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التى ضيق بها الممرات إلى قوافى الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنهما فلسفته أو تفكيره الفلسفى المتشائم وهو تفكير شغل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقضية التى طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذى يُصَب على الإنسان والحياة الإنسانية صَباً دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردّاً . ويتسع به

التفكير في شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولى عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستولى عليه
يأس يثقل عليه ثقلاً طويلاً ويملاً نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر
ففيهم إذن تلقى الأبناء لها من آباءهم وفيهم الزواج وهي شر متصل ، شر يؤذن دائماً بالكوارث
والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يَأْبَقُ الإنسانُ من مُلْكِ رَبِّهِ وَيُخْرِجُ من أَرْضٍ له وسماً

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاً كما ولا خلاصاً ، وحرى به أن لا يتخذ ولداً حتى
لا يَرْمَى به في أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء في لزومياته الشرور الكبرى التي تقع
دائماً على عاتق الإنسان بل تشغله أيضاً الشرور الصغرى التي تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور ؟
شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعائهم بهالة قدسية ، حتى
زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولججوا في نعمتهم بصفات الله
حتى آمنت طائفة في زمن أبي العلاء تتجسد الألوهية في الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي .
وهذا البهتان في العقيدة كان يروج له دعائهم وخطبائهم في المساجد ، وفي رأينا أنهم
المقصودون بحملة أبي العلاء على علماء الدين في أيامه بمثل قوله :

نادتْ على الدين في الآفاق طائفةٌ ياقومُ من يشتري دينًا بدينارٍ
جَنُّوا كبائرَ آثامٍ وقد زعموا أنَّ الصغائرَ تجنِّي الخُلْدَ في النارِ

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمي دينهم بثمن بخس دراهم معدودة . وكما
حمل على علماء الدين المروّجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخر كثيراً
من ذكرهم وتواجدتهم فيه ، وسماه رقصاً ومن قوله فيهم :

تزيّوا بالتصوف عن خداعٍ فهل رُزّتِ الرجالَ أو اعتميت^(١)
وقاموا في تواجدتهم فداروا كأنهم ثمالٌ من كُميت^(٢)

وهاجم الخكّام عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له
أو أى مصلحة ، وفي ذلك يقول :

(١) راز : اختبر ، اعتمى : اختار

(٢) الكيت : الخسر ، ثمال : سكارى .

وأرى ملوكاً لاثخوط رعيّة فعلام تؤخذ جزية ومكوس

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعَدُوا مصالحها وهم أجراؤها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدّه ويعتصرونها من عرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويبنون عليه ويكيدون له ويأتمرون به . ويتسع بحملته ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق الزرى المشين . ولم ينس المرأة في إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لاتنصف في الود ولا تفي للعهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبها في رأيه - الغزل والنسيج والرذن أو الحياكة :

علموهنّ النّسج والغزل والرّدن ونخلوا كتابة وقراءه

وإنما دفعه إلى ذلك - في رأينا - فساد المجتمع في بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمته والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس في السراء والضراء ، يقول :

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشطر الأكبر في اللزوميات ، فقد أودعها كما مرّ بنا آنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه في دنياه إزاء ما يُصَبُّ عليه من شرورها وهمومها وأفاعيها التي تلدغه صباح مساء .

ويُشيع أبو العلاء في أشعاره حيرة تترأى ظلالتها في اللزوميات مما جعل بعض القدماء والمعاصرين يقولون إنه كان يشك في كل شيء ويتخذ الشك عقيدة له - كما اتخذها السوفسطائيون - ويسلطه على ماحوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارت والمجوس مُضَلَّلَة

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دین لاعقل له

والبيتان في هجاء أصحاب هذه الديانات لزمته لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفر أختها في داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلي الفاطمي قائما في مصر ويدعوله الحكام وعلماء الدين في الشام . وطبيعي أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المسرف

في الغلو غلوًّا شديدًا ، بل المسرف في الانحراف عن الإسلام انحرافا مفرطا . وقد استعرضنا في مقالنا عن التفكير الفلسفي في شعر أبي العلاء بكتابتنا « فصول في الشعر ونقده » الأشعار التي قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولا كثيرا انتحله عليه خصومه . ويبدو أن أيادي شريرة امتدت إلى اللزوميات قديما وأدخلت عليها فسادا غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامت إلى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الأديانُ

والبيت على هذا النحو يلصق تهمة الإلحاد بأبي العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبي العلاء لابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ بعد أبي العلاء بسبعين عاما وجدناه ينشده على هذا النمط .

قد ترامت إلى الفساد البرايا ونهتتا - لو نتهى - الأديانُ

ورواية البطليوسي للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التي اعتمدت عليها وأيضا من النسخ الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات ^(١) مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدتين أدخلت على اللزوميات من قديم . ومن المؤكد أنه أضيفت إليه بعض أشعار الزنادقة ^(٢) مثل ابن الراوندى . وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتا ظنوا منها أنه يؤمن بقديم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفا بذلك رأى المتكلمين المسلمين في حدوثها جميعا وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهى فى واقع الأمر أبيات شُبِّهت عليهم من مثل قوله :

أرى زَمَنًا تقادم غيرَ فاني فسبحانَ المهيمِ ذى الكمالِ

وقوله :

يا شُهْبُ إنك فى السماءِ قديمةٌ وأشرتِ للحِكماءِ كلَّ مُشارِ

(٢) انظر «أبو العلاء المعرى» للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباه الرواة للقفطى ٧٥/١ .

(١) أشار د. حامد عبد المجيد محقق شرح البطليوسي في مقدمته إلى أن المختار فيه من اللزوميات يصحح بعض ما حُرِّف من شعر أبي العلاء ووضَّع عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

وهو في البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيراً بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ما هناك أنه قال إن الزمان تقادم أى تعمق في القدم ، وجعل الشهب في البيت الثاني قديمة وهو لا يقصد بالقدم في البيتين ما يناقض الحدوث إنما يقصد ما يناقض الحدثة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلودَ النجومِ ولا مذهبي قِدَمَ العالمِ

فهو لا يقول بخلود الأفلاك والكواكب والمادة ولا بقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم في مثل البيتين السالفين - كما قلنا - بأنه يعنى نقيض الحدوث وهو إنما يعنى نقيض الحدثة ، وقد بسطنا ذلك في مقالنا عن أبي العلاء بكتابنا المذكور آنفاً ، وأوضحنا أنه في أشعاره مؤمن بإيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الخفيف ورسالته السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ما يتصل به من بعث ونشور من مثل قوله :

أقيم خَمْسِيَّ وَصَوْمَ الدهرِ أَلْفُهُ وَأُدْمِنِ الذِّكْرَ أَبْكَارًا بِأَصَالِ

فهو صائم الدهر ، فرض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مربنا ، وهو دائماً يتجه إلى ربه مصلياً الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلاً صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مراراً بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته ، يقول :

قد راعنى للحساب ذَكْرٌ وغَرَّنِي أَنَّهُ بَعِيدُ
وعن يميني وعن شمالي بصحبتى حَافِظٌ قَعِيدُ

وهو يستلهم في البيتين قوله تعالى : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكرو نكير فيه للناس ، يقول مخاطباً الليالى :

خَلَّصْنِي مِنْ ضَنْكِ مَا أَنَا فِيهِ وَاطْرَحْنِي لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ
ويشعر في عمق بأنه مقصّرٌ منها قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائماً في عفوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعاً :

ومغفرة الله مرجوة إذا أصبحت أعظمى في الرمم
وباليتنى هامد لا أقوم إذا نهضوا ينفضون اللمم
ونادى المنادى على غفلة فلم يبق في أذن من صمم
وجاءت صحائف قد ضمنت كبائر آثامهم واللمم^(١)
وليت العقوبة تحريقة فصاروا رمادا بها أو حمم^(٢)

فهو آمل في غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليرتجى أن لا يبعث يوم القيامة (يوم يُنادى المُنادِ من مكان قريب) كما جاء في سورة ق ، فيهبُّ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بأذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : (وكلُّ إنسانٍ أَلَمَنَّا طائرَه في عُنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) . وما يلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقا يصبح العصاة به رمادا أو حمما فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيرا مثل : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . ولعل في ذلك ما يسقط كل ما قاله عنه بروكلمان في ترجمته له من أنه كان لا يعترف برسالة الإسلام وأيضا ما قاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكرا للنبوات جاحدا بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يحجدها ، وله قصيدة رائعة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم نختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية :

فصلَّى عليه الله ما ذرَّ شارق ومأفت مسكاً ذكَّره في المخافل

واقترن ذلك عنده - كما مر بنا - بالزهد والتقشف وهو فيها يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملأ حنايا نفسه ، ولكن كان لا يزال يومض له بريق الأمل في رحمة ربه وعفوه ، يقول :

وما أنا بائسٌ من عفو ربِّي على ما كان من عملي وسهوي

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إماما له ، لا يثق ولا يستسلم ولا يلقي مقاليدَه إلا إليه ، لمثل قوله :

كذب الظنُّ لإمام سوى العَقْد لي مشيراً في صُبْحِهِ والمساء

- (١) اللمم : الذنوب الصغيرة

(٢) الحمم : ما أحرق من خشب وغيره

وظنوا أن في ذلك ما يتصل من بعض الوجوه لإنكاره - في رأيهم للنبوات ، وفاتهم أنه متابع في تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الأول أبيات بشر بن المعتز المعتزلي الرائعة في تمجيد العقل ، وما زال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجبائي وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحي السماوي وهي لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائي وابنه ، وكان يخالفها الأشعري ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء في رسالة الغفران . وكان - مثل المعتزلة - يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس ما يصل إليه الإنسان من اليقين وفي ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهدى أن أظنَّ وأُحدِثا

فبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه في الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسي أبي العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكررا أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كرهاً ورحلتى إلى غيرها بالرغم والله شاهدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر في حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختيارا ولا نرحل عنها اختيارا ، وهو ما لا ينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة - وهو معتزلي مثلهم - إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلا :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبِرًا فعقابه ظلمٌ على ما يفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه - عند القائلين به - نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية في أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وإرادته العليا ولذلك يقول :

لا تَعِشْ مُجْبِرًا ولا قَدَرِيًّا واجتهدْ في تَوْسُّطِ بَيْنَ بَيْنَا

فذهب في حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولا يخالفه معتزلي في ذلك ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية في إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف في أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريحته في مهب رياح القضاء والقدر تسيّره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأي الأول ، وهو ما اختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بال مخلوقات : ولعل ما أسلفنا من الحديث يوضح في إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يُردُّ إلى فقدده لبصره صيبا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمه من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردُّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التي ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب في فلسفته ، وجانب ثان استمدّه من الدين الحنيف وما فيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكل ما فيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث في فلسفته استمدّه من الاعتزال وما فيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية في أفعاله الشريرة والآثمة والخيرة الطيبة .

منصور^(١) بن المسلم

هو منصور بن المسلم النحوي الحلبي المعروف بالذُمَيْك وبابن أبي الخُرَجين ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته واختلف إلى شيوخها ، وشُغف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة في تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان في مسجد الرماحين وغيره ، وظل في هذا العمل يشغل به حياته حتى توفي سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا في الرد على ابن جني في كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق في العربية وجودة

غَوْص . ويقول يا قوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدلَّ على تبحره في علم العربية . وروى العماد الأصبهاني في الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رهاقة حسه ودقة شعوره من مثل قوله :

أَحِبَابُنَا إِنْ خَلَّفَ الْبَيْنُ بَعْدَكُمْ قُلُوبًا فِيهَا لِلتَّفَرُّقِ نِيرَانُ
رَحَلْتُمْ عَلَى أَنْ الْقُلُوبَ دِيَارُكُمْ وَأَنْكُمْ فِيهَا عَلَى الثَّأْيِ سُكَّانُ

ونمضى معه في هذا الغزل الملتاع وإذا هو يذكّر غربته في دمشق ، ويتقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له في الحياة ، مما تعمق نفسه في غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلّائه ، يقول :

وَمَا بَاخْتِيَارِ الْمَرْءِ تَشَعَّبُ نِيَّةُ فَتَبَرَّحُ أَوَاطَارُ وَتَتَرَحَّ أَوْطَانُ (١)
عَسَى مُورِدٌ مِنْ مَاءِ جَوْشَنَ نَاقِعُ فَإِنِّي إِلَى تِلْكَ الْمَوَارِدِ ظَمَانُ
وَمَا كُلُّ إِنْسَانٍ يَنَالُ مُرَادَهُ وَيُسَعِدُهُ فِيمَا يَحَاوِلُ إِمْكَانُ
وَعِيشُ الْفَقِي طَعْمَانُ حُلُوٌّ وَعَلَقَمٌ كَمَا حَالُهُ قِسْمَانُ : رِزْقٌ وَحِرْمَانُ

وهو يألم لغربته ونزوحه عن وطنه ، ويتمنى جرعة من ماء الآبار في جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لبيب ظمئه إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك في عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثاني حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر في حياته كما يذوق الرضا والحُرمان . ويستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا وما يلبث أن يفضي إلى الحكم قائلا :

رَأَيْتُ الْفَقِي يَأْتِيهِ مَا لَا يَنَالُهُ بِسَعْيٍ وَلَوْ أَنْضَى الرُّكَائِبَ وَالرَّكْبَا (٢)
وَمَنْ رَامَ إِدْرَاكَ الْمُنَى بِفَضِيلَةٍ فَقَدْ رَامَ أَمْرًا لَيْسَ يَدْرِكُهُ صَعْبًا
وَيَذْهَبُ بِالْوَدِّ الْمِرَاءَ وَيَمْتَرِي حَفَائِظَ لَا تَبْقَى عَلَى صَاحِبِ صَحْبَا (٣)
تَوْقٌ قَلِيلَ الشَّرِّ خَوْفَ كَثِيرِهِ وَلَا تَحْقِرَنَّ النَّزَرَ رَبُّمَا أَرْبَى
فَإِنْ صَغِيرَ الشَّيْءِ يَكْبُرُ أَمْرُهُ وَكَمْ لَفْظَةٍ جَرَّتْ إِلَى أَهْلِهَا حَرْبًا

(٣) يمتري : يستير : حفاظ جمع حفيظة وهي الغضب والحمية .

(١) تشعب : تبع

(٢) أنضى : أتعب . الركائب : الابل

وهو يتكلم في أول الآيات عن الحظ وما يقدقه على الإنسان ، دون سعى ، من منى لو أضنى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومهما تذرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لا ينشب بينهم مرء ولا جدال مقيت لأنه يثير حفائظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع ما بينهم من صلوات . ويوصي الإنسان أن يتجنب قليل الشر حتى لا يقع في وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لا يظنه - مها صغر وتضائل - شيئا لا يؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستفحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر في قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحِبُّ الإنسانُ ما فيه نَقَصُهُ وَيُبْغِضُ ما يَنْمِي به وَيَزِيدُ
نريد من الأيام تَصْفُو من الأذى وَتَصْفُو ولا يَقْضِي بذاك وجودُ (١)
وكيف نروم العيش خِلُوا من القذى وللماء من بعد الصِّفاء ركود
إذا كان يُعْطَى المرء ما يستحقُّه تساوى شقى في القضا وسعيد
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلها يعيبُ ذميمَ العيش وهو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابعة رغدة ولا تقضى بذلك سنة الوجود ، حتى في الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفاء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ما تمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقى وسعيد ، وجدير بمن خبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح في رأيه حميدا لا كرها مدموما . ومن طريف شعره .

الناسُ كالأرضِ ومنها هُمُ من خَشِنَ اللَّمسِ ومن لَيِّنَ
مَرُّهُ تَوَقَّى الرَّجُلُ منه الأذى وإِثْمُهُ يُجْعَلُ في العين (٢)

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأهمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصِّلْد الذي لا يأتي بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذي يبرئ العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجالاً . ولنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد في الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

(١) تصفو: تصبح رغدة هائلة

(٢) المرو: الحجر الصلد. الإثم: الكحل

حسين^(١) الجزرى

هو حسين بن أحمد الجزرى الحلبي ، ولد بحلب وبها نشأ لزمّن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام في دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفا أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيرا من مدائحه ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض . . العالم بشعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار . . راقى بدائع آدابه ورقت ، وملكت روائعه حرّ الكلام واسترقت » ويقول الشهاب الحفاجي : « أديب له أوصاف حسنى ، ومناقب هن الوشى بهجة وحسنا » توفي سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر في بيروت أولا ثم نشره الطباخ مع ديوانى مصطفى البابي والفتح بن النحاس في مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها في الشعر قائلا :

الشعرُ ما شأقتك منه حكمةً لا ما يشوقك الكتيبَ الأوعسا^(٢)

فليس الشعر في رأيه ما يصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر ما يفيد تجربة وخبرة وبصراً بالحياة . وهو لذلك لا يعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدا من كثران وعساء وغير وعساء شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه ما يزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرّفك كنهها وحقيقتها ، يقول في تضاعيف غزل له :

إن المحبة محنة لا منحة ومن الغرام برى المحب المغرما
وإذا مُنعت الماء أول مرة ووردته أخرى تذكّرت الظما
في كل يوم روعة أولوعة والفدّ تُقعه الحوادث توأما
ولقد ملئت تحاربا وتجاربا لن تلقى إلا إناء مُفعا

وهي أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثالا ، فالحب محنة لا منحة يضنى صاحبه ، ومن تصدّه صاحبه أول مرة كمن يُصدّ عن الماء وهو شديد الظما إذ لا يزال يذكر ذلك حتى لو

(٢) الكتيب : تل الرمل . الأوعس : الذى تغيب فيه
الأرجل للينه

(١) انظر في ابن الجزرى وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣
وريجانة الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه في
مجموعة العقود الدرية

أُتِيحَ لَهُ الْوُرُودُ ، فَظَمُّهُ وَلَهْفَتَهُ الْقَدِيمَانِ لَا يَبْرَحَانِ ذَاكِرَتَهُ ، وَهَلْ فِي الْحُبِّ إِلَّا صَدٌّ وَامْتِنَاعٌ وَعَذَابٌ ، وَالْحُبُّ يَصِلِي الرُّوعَةَ بَعْدَ الرُّوعَةِ وَاللُّوْعَةَ بَعْدَ اللُّوْعَةِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ مُفْعَمٌ بِالتَّجَارِبِ كَمَا يُفْعَمُ الْإِنَاءُ بِالْمَاءِ ، وَيَنْشُدُ :

أَرَى الْيَأْسَ عِزًّا وَالرَّجَا ذَلَّةً الْفَتَى وَطَوَلَ الْمَنَى عَجْزًا وَحُبُّ الْغَنَى فَقْرًا
فَلَا تَضْجَرُنْ مِنْ حَالَةٍ مُسْتَحِيلَةٍ كَمَا نَلَتْهَا عُسْرًا سَتَرَكَهَا يُسْرًا
وَإِنْ الْفَتَى كَالْفُضْنِ مَا دَامَ نَابِتًا فَآوَنَةٌ يُكْسَى وَآوَنَةٌ يَعْرِى

وَهُوَ يَرَى الْيَأْسَ مِنَ النَّاسِ وَتَحْقِيقَ الْأَمَالِ لَا إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ فَحَسِبَ ، بَلْ عِزًّا مَا بَعْدَهُ عِزٌّ ، كَمَا يَرَى الرَّجَا وَخَاصَّةً فِي النَّاسِ ذَلًّا مَا بَعْدَهُ ذَلٌّ ، وَاتَّسَاعَ الْأَمَانِي عَجْزًا لَا يَشْبَهُهُ عَجْزٌ ، وَالتَّطَلُّعَ إِلَى الْغَنَى فَقْرًا لَا يَمِثَلُهُ فَقْرٌ . فَخَيْرٌ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقْنَعَ وَأَنْ يَرْضَى مِنْ دُنْيَاهُ بِالْكَفَافِ . وَيُوصِيهِ أَنْ لَا يَضْجَرَ مِنْ شِدَّةٍ تَنْزِلُ بِهِ لِأَنَّهَا لَا بَدَّ أَنْ تَسْتَحِيلَ وَتَتَحَوَّلَ ، فَكُلَّ عُسْرٍ مَعَهُ يَسِرْ ، وَمَا أَشَبَهُ الْإِنْسَانَ بِغَصْنِ شَجَرَةٍ يَعْرِى مِنَ الْأَوْرَاقِ وَيُكْسَى بِهَا كُلَّ عَامٍ . وَيَقُولُ :

إِنْ خَصَّنِي بِالْبُؤْسِ دَهْرِي دَائِمًا دُونَ الْوَرَى فَأَنَا بِذَلِكَ أَفْضَلُ
هَذِي عَقَاقِيرُ الْعِطَارَةِ كُلُّهَا لَمْ يَحْتَرَقْ مِنْهُنَّ إِلَّا الْمَنْدَلُ

فَهُوَ يَقْبَلُ الْبُؤْسَ رَاضِيًا وَيَتَعَلَّلُ لِبُؤْسِهِ بِأَنَّهُ أَشَبَهُ مَا يَكُونُ بِالْمَنْدَلِ أَوْ الْعُودِ الطَّيِّبِ الرَّائِحَةِ فَإِنَّهُ يَحْتَرِقُ وَحْدَهُ دُونَ مَا عِنْدَ الْعِطَارِ مِنْ صُنُوفِ عِطَارَةٍ كَثِيرَةٍ . وَيَتَرَدَّدُ فِي أَشْعَارِهِ ذِكْرُ الْحَرَمَانِ وَأَنَّ الْكَرِيمَ لَا تَضُرُّهُ قَلَّةُ الْمَالِ بَيْنَمَا اللَّئِيمُ لَا يُجَدِّدُهُ وَلَا يَنْفَعُهُ الثَّرَاءُ ، وَيَحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ لَهُ وَلَا مِثْلَهُ مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالْفُضَلَاءِ تَعْلِيلَاتٍ لِلتَّضْيِيقِ عَلَى نَفَرٍ مِنْهُمْ فِي الرِّزْقِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ :

لَا تُحْسِبِ الْأَرْزَاقَ تُقْسَمُ بِاطْلَا كَلَّا لَقَدْ سَاوَى الْمُهَيْمَنُ بَيْنَهَا
فَإِذَا رُزِقْتَ الْجَهْلَ أَدْرَكَتْ الْمُنَى وَإِذَا حُرِمْتَ الْجَدُّ أُعْطِيتَ التُّهَى

وَكُنَّ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي رَأْيِهِ اثْنَانِ : جَاهِلٌ ثَرِيٌّ لَهُ كُلُّ مَا يَأْمَلُ وَيَتَمَنَّى وَكَأَنَّ الدُّنْيَا طَوَّعَ أَمْرِهِ ، وَعَاقِلٌ (أَدِيبٌ أَوْ عَالِمٌ) فَقِيرٌ حُرِمَ الْجَدُّ أَوْ الْحِظُّ وَحَرُمَ مَعَهُ إِكْسِيرُ الْحَيَاةِ مِنَ الْمَالِ وَالثَّرَاءِ وَالنَّعِيمِ . وَيَقُولُ :

غَيْرُ بَدْعٍ إِذَا ظَلَمْتَ بَدَهْرُ رُزْقِ الْغَمْرِ فِيهِ حَظًّا عَظِيمًا
فَالْهَوَاءُ الصَّحِيحُ يُدْعَى عَلِيًّا وَاللَّدِيعُ الْمَصَابُ يُدْعَى سَلِيمًا

وهو يواسى من يحشون بأنهم مظلومون فى دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعى من الرزق والعيش الكرم ، بينما المغمورون يعيشون فى بجموحة من الثراء والنعم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عليلا واللدغ يدعى سليما من تسمية الأضداد ، ولعل فى ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رُوَيْدَكَ إِن بَعْدَ الضُّيْقِ مَخْرَجٌ وَصَبْرُكَ عِنْدَهُ أَهْيَى وَأَبْهَجُ
وَكَمْ مِنْ كُرْبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ وَعِنْدَ حُلُولِهَا الرَّحْمَنُ فَرَجٌ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لابد من رباطة الجأش دون أى تبرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم فى رحمته ، وأنه لابد كاشف الكرب والأهوال مهما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لدائما مع الصابرين الذين لا يياسون أبدا من عونه . ولا بن الجزى وراء هذه الحكم وما يماثلها فى أشعاره - كما قدمنا - مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُلبِّيكَ مِنْ قَبْلِ السُّؤَالِ نَوَالُهُ وَيَأْتِيكَ دُونَ الْإِنْتِظَارِ نُضَارُهُ

وله أبيات مختلفة فى الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفى غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجودا .

٦

شعراء التشيع

مرَّبْنَا فى حديثنا عن التشيع أنه عُرِفَ فى سَلَمِيَّةَ بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القدّاح حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى لمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع الغالى المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون ^(١) :

ووسيلتى منها إليك طريفةٌ شامٍ يدين بحبِّ آلِ محمدٍ

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٥٥/٢

وقد ذهبنا في كتابنا العصر العباسي الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر في مثل ذلك للمؤمن عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المؤمن كتب إلى الآفاق بتفضيل عليّ على أبي بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بعلي ومواقفه في عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبي تمام إذ نجد عنده أشعارا في أهل البيت ومراثي تندب الحسين وتبكي مصرعه من مثل قوله في افتتاح إحدى مراثيه (١) :

يا عَيْنُ لالِغَضَا ولا الكُتْبِ بُكا الرّزايا سوى بُكا الطُّرْبِ (٢)
يا عَيْنُ في كَرْبلا مقابرُ قد تركنَ قلبي مقابرَ الكُربِ
من البَهاليلِ آلِ فاطمةِ أهلِ المعالي والسادةِ الثُّجُبِ
كم شَرِقتُ منهم السيوفَ وكم رُوّيتِ الأرضُ من دمٍ سَرِبِ (٣)

ويقول أبو الفرج عن هذه المراثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا (٤) ، فتشيعه كان تشيعا معتدلا . ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالي إلا منذ القدّاح ودعوته الإسماعيلية التي اتخذ لها سَلْمِيّة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطة يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائي صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسألوه عن معاوية وما رُوي من فضائله فأبى أن يفضلّه ، فما زالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعية - لقيت لها آذانا صاغية بجلب منذ مطلع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع - فيما يبدو - تشيعا معتدلا . ونراه يذكر - ماثوْمَن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلي بالإمامة بعده ، وله مراث في الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله (٥) :

(١) الديوان (في طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شبر ٢٨٤/١
(٢) شجر الغضا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكتبان شعر النسيب
(٣) شرقت : غصت . سرب : سائل .
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٥١/١٤
(٥) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢

يَوْمَ الْحُسَيْنِ هَرَقَتْ دَمَ حَ الْأَرْضِ بِلْ دَمَعَ السَّمَاءِ
 مَنْ ذَا لِمَعْقُورِ الْجَوَا دِ مُمَالِ أَعْوَادِ الْخِيبَاءِ
 مَنْ لِلطَّرِيحِ الشُّلُو عُرَّ يَانَا مَخْلَى بِالْعَرَاءِ
 مَنْ لِّلْمَحْنَطِ بِالثُّرَا بِ وَلِلْمَغْسَلِ بِالدَّمَاءِ
 ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إمامية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتحها بقوله (١) :

الدينُ مُحْتَرَمٌ والحَقُّ مُهْتَضَمٌ وَفِي آلِ رَسُولِ اللَّهِ مُقْتَسَمٌ

والفيءُ : غنيمة الحرب ، وهو يشير إلى فلبك وكانت فيثا لرسول الله في غزوته لخبر والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت في إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فاستجابت ثوبا الرأيه وكان ينبغي أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة في واحد وستين بيتا . ويعلن في ديوانه مرارا أنه شيعي إمامي ، ويذكر أئمتهم الاثني عشر في مثل قوله (٢) :

شَافِعِي أَحْمَدُ النَّبِيُّ وَمَوْلَا عِيَّ عَلِيٍّ وَابْنَتُ وَالسُّبَّاطِ
 وَغُلِيٍّ وَبَاقِرُ الْعِلْمِ وَالصَّامِ دَقُّ ثَمِّ الْأَمِينِ ذُو التَّيْبَانِ
 وَعَلِيٍّ وَالمُتَّقِي ابْنُ عَلِيٍّ وَعَلِيٍّ وَالْعَسْكَرِيُّ الدَّانِي
 وَالْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ فِي يَوْمٍ لَا يَدُ فَعُ إِلَّا غُفْرَانُ ذِي الْغُفْرَانِ

والأئمة الاثنا عشر في الأبيات مرتبون ، وهم علي بن أبي طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلي زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم علي الرضا وابنه محمد الملقب بالمتقي والجواد ثم ابنه علي الهادي ونجله حسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي ويسميه القائم في مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثني عشر حتى انتهى إلى العسكري بن الهادي قائلا (٣) :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (نشر وتحقيق د. سامي

(٢) الديوان ٣/٣٩٧

(٣) راجع ٣/٤٢٩ وما بعدها .

وابنه العسكري والقائم المظهر حقي محمد بن علي

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدي لم يموت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا في حديثنا عن بهاء الدين العاملي . ويلقانا في القرن الخامس الهجري ابن سنان الحفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعي إمامي ، ومن آثار تشيعه في شعره قوله ^(١) :

وقالوا قد تغيرت الليالي وضُيِّعت المنازل والحقوق
وأقسم ما استجدَّ الدهرُ خلُقًا ولا عدوانه إلا عتيق
أليس يُردُّ عن فديكَ عليٌّ ويملك أكثر الدنيا عتيق

وهو يأسى لعلى وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فديكَ وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا في أن ترثها ، وذكرها أبو بكر بحديث أبيها عليه السلام واستجابت له راضية . وكبرت كلمة تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصديق الزاهد الذ أنفق أمواله في دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتانا وزورا .

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخُصّه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام في القرن الخامس الهجري ابن حيوس الشاعر الدمشقي ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند العباد الأصبهاني في كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا في القرن السادس الهجري ، غير أنه لا يُعنى بشعرهم الشيعي إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبها أو نحلة ، منهم ابن قسيم الحموي المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العباد في حب آل البيت قوله ^(٢) :

وَيْدٍ بِآلِ مُحَمَّدٍ عَلِيقَتْ مَنِي فُلَسْتُ بِغَيْرِهِمْ أَرْضَى
جَعَلَ الْإِلَهَ عَلِيٌّ حُبَّهُمْ وَعَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ فَرَضَا
فَأَنَارَ ذَلِكَ مِنْ زَنَادِقِهِ حَسَدًا فَسَمُّوا حُبَّهُمْ رَفْضَا
وَعَجِبْتُ هَلْ يَرْجُو الشَّفَاعَةَ مَنْ يَنْوِي لآلِ مُحَمَّدٍ بُغْضَا

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٤٥٣/١

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو في هذا الحب غلو الرافضة ، إذ يسمى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر في شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ويقول عنه العباد : كان غاليا متشيعا^(١) ولم يرو شيئا من شعره الشيعي الغالي . وكان طلائع بن رزّيك وزير الخليفين الفاطميين : الفائز والعاقد شيعيا إماميا ، وكان من مقريه ثقة الملك الحسن من بني أبي جرادة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة^(٢) ، ويبدو أن أسرته كانت تعتنق مذهب الشيعة الإمامية مثلها في ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة في الخزينة عرقلة الدمشقي حسان بن نمير المتوفى سنة ٥٦٧ هـ وينشد العباد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا^(٣) :

أنا من شيعة الإمام حسينٍ لستُ من سُنّة الإمام يزيدٍ
وهو يريد يزيد بن معاوية الذي قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام تهكما وسخرية . ونظّل في زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكي الحسين أو تمدح آل البيت على نحو ما نجد عند فتيان الشاغوري الدمشقي المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا في مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفاً عليه الدمع مدراراً منشداً^(٤) :

لَمْ لَا أَسُحُّ بِيَوْمِ عَاشُورَاءٍ مِنْ مَقْلَتِي دَمًا يَمَازِجُ مَاءَ
يَوْمًا بِهِ قُتِلَ الْحُسَيْنُ بِكَرْبَلَا قَتَلَا حَوَى كَرْبًا بِهِ وَبَلَاءُ
ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة في حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسالته المحمدية الكبرى ، ويسترسل في التنويه بعلي بن أبي طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وبنوه بعلمه وزهده وتقشفه ، ثم يفيض في الحديث عن مصرع الحسين المفجع بمثل قوله^(٥) :

أَلْهَفِي لِلْحُسَيْنِ غَدَاةَ أَضْحَى هُنَاكَ « بِكَرْبَلَا » سِلْوًا قَتِيلًا

- | | |
|--|--|
| (١) الخزينة ٧٦/١ | بدمشق) ص ٦ |
| (٢) الخزينة ١٩٩/٢ | (٥) الديوان ص ٥٨٠ والشلو: العضو من الإنسان |
| (٣) الخزينة ٢٠١/١ | والجمع أشلاء ، كناية عن الموت |
| (٤) ديوان فتیان الشاغوري (طبع مجمع اللغة العربية | |

يَمَزُّقُ جِسْمَهُ دَوْسُ الْمَذَاكِي وَقَدْ أَعْلَتْ وَايَاهُ الْعَوِيلَا (١)
شَكَا ظَمًا فَمَا عَظَفُوا عَلَيْهِ وَلَا أَلَوَا وَلَا أَرَوَا غَلِيلَا
رَسُولُ اللَّهِ سَمَاءَ «حُسَيْنًا» وَقَبَّلَ ثَغْرَهُ زَمَنًا طَوِيلَا

ويقسم فتیان مرارا وتكرارا بعلى والحسين وأصحاب العباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعهما الرسول في حجره فقبلهما واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار » . ولم يكن فتیان غالياً في تشيعه بل كان معتدلاً ، يشهد لذلك قوله في على والحسين وآلهما (٢) :

لَمْ أَهْوَهُمْ أَبَدًا يَبْغِضِي غَيْرَهُمْ كَلَّا وَمَنْ قَرَضَ الصَّلَاةَ وَوَقْتَا

فهو يقسم بربه فاض الصلاة أنه لم يحب آل البيت مبيغضاً لأبي بكر وعمر مثل غلاة الشيعة ، بل هو يحب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر ، كما تشهد بذلك قصيدته السالفة .
ونلتقي في زمن الماليك بالوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفوات : كان شيعياً ، ومما يدل على ذلك قوله (٣) :

سَمِعْتُ بَأْنَ الْكَحْلَ لِلْعَيْنِ قُوَّةً فَكَحَلْتُ فِي عَاشُورَ مُقَلَّةً نَاطِرِي
لَتَقْوَى عَلَى سَحِّ الدَّمُوعِ عَلَى الَّذِي أَذَاقُوهُ دُونَ الْمَاءِ حَرَّ الْبَوَاتِرِ

فهو قد تكحل في يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذي قتلوه دون جرعة ماء يحتسيها بالسيوف القواطع ، وكان بعض معاصريه يتهمة بالرفض والغلو في التشيع فكان ينكر ذلك منحيها على من يتهمة بالسب واللعن ، وفي ذلك يقول (٤) :

قُلْ لِلَّذِي بِالرَّفْضِ أَتُ هَمْنِي أَضِلُّ اللَّهُ قَصْدَهُ
أَنَا رَافِضِيُّ الْعَنِّ الـ شَيْخَيْنِ أَبَاهُ وَجَدَهُ (٥)

وواضح أنه يقول إنه رافضي تهكما على خصومه . ونظّل نلتقي بشعر شيعي على هذه الشاكلة

(١) المذاكي : الخليل ، ولاياه : نساء أسرته .

(٤) الفوات ١٧٥/٢

(٢) الديوان ص ٦٨

(٥) أباه مشددة الباء لصحة الوزن

(٣) فوات الوفيات لابن شاکر ١٧٦/٢

لا في أيام الممالك فحسب ، بل أيضا في أيام العثمانيين ، ومن يُظَنُّ تشيعه حينئذ درويش^(١) الطالوي المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين^(٢) بن عبد الصمد العامل وهو أبو بهاء الدين العامل أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسنترجم له عما قليل .

كُشَاجِم^(٣)

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندی بن شاهك اشتهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفي تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجي أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفي ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله في الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السندی من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان في ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكل به في مدة حبسه السندی بن شاهك » وربما تلقن عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ في بيته . وأصبح السندی بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمين ، ويقال إنه ولاه الشام ، وربما توفي بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسَلَّك حفيده كُشَاجِم في شعراء الشام ، وكان يسكن في شبيته بلدة الرملة بفلسطين . ونظن ظنا أنه ولد لأبيه حوالي سنة ٢٩٠ للهجرة . ويارح الرملة والشام جميعا في سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولي الموصل مرارا بين عامي ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالدين . ويتزل عند سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن علي أمير الزاب قصيدة في مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

(١) ربحانة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أعيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) انظر في كشاجم وشعره شذرات الذهب لابن العماد

٣٧/٣ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٠/١ والمنتخل للثعالبي

ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيرواني وذيل زهر

الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشي في شرحه لمقامات

الحريري طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبوع ببيروت ،

وراجع في السندی جده ترجمة موسى الكاظم في ابن

خلكان والحيوان للجاحظ ٣٩٣/٥ والتنبيه والإشراف

للمسعودي (طبعة الصاوي) ص ٣٠٢ وطبعة أوربا ص

القيرواني ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد .
 قد كان شوقى إلى مصرٍ يؤرّقنى فالآن عدتُ وعادتُ مِضرٌ لى دارا
 وتُرَوّى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، فقليل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل
 التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول فى شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح وثناء وشكوى وهجاء وخمريات
 ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة فى الصيد والطرده وله كتاب فيها
 سماه المصايد والمطارد ، وأيضا له كتاب فى أدب النديم وهما منشوران . وكان شيعيا إماميا إما - كما
 قلنا - مثل أهل بيته وإما استقلالاً منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك مارواه
 ابن شهر آشوب * إن صحَّ مارواه - من قوله :

نَبِيّ شَفِيعِي وَالبَتُولُ وَحَيِّدٌ وَسَيِّطَاهُ وَالسَّجَّادُ وَالبَاقِرُ الْمُجَدِّ
 بِجَعْفَرٍ بِمُوسَى بِالرُّضَا بِمُحَمَّدٍ بِنَجَلِ الرُّضَا وَالعَسْكَرِينَ وَالمَهْدِيَّ
 وَالبَتُولَ : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام على ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى
 عشرية وهم اثنا عشر إماما : على ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : على
 زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورخّم جعفر فى قَسَمِهِ ، والترخيم فى غير المنادى
 شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو على الرضا ابنه ، ومحمد هو محمد
 الجواد نجل الرضا ، ويلىه على الهادى فالحسن العسكرى ، وقد سماهما العسكرين والمهدى هو
 محمد المهدي المنتظر الذى مات صبيا حوالى سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماهم جميعا كشاجم - كما
 رأينا - فى بيته واتخذهم شفعاء له عند ربه ، مما يقطع - إن صحَّ أنه ناظم البيت - بشيعه
 وإماميته أو اعتناقه نخلة الإمامية .

وفى ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكى فى أولها الحسين ومن قُتلوا معه من آلِه فى
 كربلاء قائِلا فى مطالعها :

يَا بُوْسُ	لِلدَّهْرِ	حِينَ	آلُ	رَسُو	لِ	اللّٰهِ	تَجَتَّأَهُمْ	جَوَائِحُهُ
أَظْلَمَ	فِي	كَرْبَلَاءَ	يَوْمَهُمْ	ثُمَّ	تَجَلَّى	وَهُمْ	ذَبَائِحُهُ	
لَا بَرَحَ	الْفَيْثُ	كُلَّ	شَارِقَةٍ	تَهْمِي	غَوَادِيهِ	أُورَوَانِحُهُ (١)		

وتسيل .

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس . والفوادی

والرَوَائِحُ : السحب للمطرة صباحا ومساء . تهنى : تصب

على ثرى حله ابن بنت رسول الله مجروحة جوارحه
وسيق نسوانه ثلاثح أح زان تهادى بهم ثلاثحه

والقصيدة تفيض - على هذا النحو - أسى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمى ذلك ذبحا ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعوه له الغيث أن يظل يهيم كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبوه نساء آل البيت منهكات مغييات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتهن ما أصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى هزمية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر ما يعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غدير خم ، ويذكر أن له معجزات جمّة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وثر القوم فى بذرهم لقد نأّر القوم فى كربلاء
بها هتكت حرّم المصطفى وحلّ بين عظيم البلاء
وساقوا رجالهم كالعبيد وحازوا نساءهم كالإماء
ولو كان جدّهم شاهدا لشيع أظعام بالبكاء

والآيات بالغة التأثير فى وصفها لهول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك لحرمة نساء آل البيت ورجالهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ما اكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دفاعا عن سبطه وآله .

ويُلمّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وما أصابهم فى كربلاء إلاما سريعا ، وكأنما أراد أن يفرد لها لعل سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلا :

وكم شبهة بهداه جلا وكم خطّة يهيجاه فصّل
وكم أطفأ الله نار الضلال به وهى ترمى الهدى بالشعل

وكم ردُّ خالقنا شمسهُ عليه وقد جَنَحَتْ للطفَلِ
وكم ضربَ الناسَ بالمرهفاتِ على الدِّينِ ضَرْبَ غِرَابِ الإِبْلِ

وحقا كان عليُّ ملهما في معرفة الحكم الفاصل في أي مشكلة تعرض له أو لغيره ، حتى قال فيه عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرفهة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تُردُّ عليه حين تجنح للغروب فتلك مبالغة ، عليُّ في غنى عنها ، بل هي بهتان ، ومثلها بهتاننا مازعمه في القصيدة من تفضيل عليُّ درجات فوق أبي بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة بعده . وتمادى في بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نحاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبَضْ نبيٌّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . وكلُّ ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه . ولا يلبث أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو - غير خجل ولا مستح - أبا بكر وعمر ، لأنها منعا السيدة فاطمة حقها في ميراث الرسول ومآل إليه في غزوة خيبر ، وهما إنما صدعا في ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورث وما تركناه صدقه » ولعل في ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه في تشيعه .

ابن حيَّوس (١)

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقي ، كان جده حيوس على شيء غير قليل من الثراء مما جعله يشيد بدمشق داراً فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت قاضي غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفي مقدمتهم خاله ابن الجندى الفسافي ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويبدو أن أباه كان موظفا في دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمي المسمى أنوشتكين الدزبري يتزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦ . ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره في مجلدين
(طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤
وزبدة الحلب (نشر د. سامي الدهان) ٤٠/٢ والوافي
١١٨/٣ وعبر الذهبي ٢٧٩/٣ وشذرات الذهب ٣٤٣/٣

فانعقدت صلة وثيقة بينهما وأخذ كل منهما يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدُّ زبرى يهديه أموالا جزيلة . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمداني حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه اتجه في ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن علي اليازوري وزير الخليفة الفاطمي المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه في القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي فدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فدح الوزير بعده بمدحة واحدة .

وفي هذه السنوات التي تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاية الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها في مدائحهم ، وتضطرب الأمور في القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب في دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأيناها يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبنى عمار ولاتها ، ويتصادف لقاءه فيها بعلي بن منقذ صاحب حصن شيزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرداسي صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يغلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأسا من تليته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، ومازال الشاعر يوالى مدائحه فيه إلى وفاته سنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياه عليه . وخلفه ابنه نصر ، ففضى يمزل للشاعر في العطاء حتى بلغت مدائحه فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطاءه له حتى قضى مسلم بن قرش العقيلي لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حيوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذي نَقَى الثَّنَاءُ بِسُوقِهِ وَجَرَى النَّدى بِعُرُوقِهِ قَبْلَ الدَّمِ

وأجازه بألفي دينار ، وفي نفس السنة توفي ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب في أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولَّى وجهه نحو بني مرداس ، ونراه يجاهر بذلك قائلا :

وَكُلُّ نَوٍّ بِمَصْرِ جَادَنِي زَمَنًا فِدَاءُ نَوٍّ سَقَانِي الرَّيِّ فِي حَلْبٍ

وشاء له القدر أن يهدر مسئوليته لآل مرداس في الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثروه - كما يقول ابن خلكان - وأسبغوا عليه نعمة ضخمة ، مما جعله يبني دارا فخمة له بحلب ، وكان قد كتب على بابها :

دَارُ بَنَيْنَاهَا وَعِشْنَاهَا فِي نِعْمَةٍ مِنْ آلِ مِرْدَاسٍ
قُلْ لِبَنِي الدُّنْيَا أَلَا هَكَذَا فليصنع الناس مع الناس

ولم ينفعهم ما صنعوه فبمجرد أن أزال مسلم بن قريش العقيلي دولتهم استأذنه في إنشاء مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية في مداخله لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة في كتابينا « العصر العباسي الثاني » و « عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القдах اتخذت سلمية بالقرب من حماة مركزا لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذي ينسخ بشريعته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النوراني ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لا تشوبه الأكدار ، فهو نوراني خالص . وأضافوا أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبري الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قيس ابن حيوس في مدحه للذري سنة ٤٢٧ قوله في مديح المستنصر حين ولي الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أُمْتُ خِلاَفَتِهِ رِيحُ النَّدَى يَسْرًا	وظل نشر الدنيا من نشرها عطرا (١)
وُخِصَّ بِالشَّرَفِ الْمُخَصِّ الَّذِي ارْتَفَعَتْ	له النواظر والنور الذي بهرا
هُمُّ الْأَلَى أَخَذَ اللَّهُ الْعَهْدَ لَهُمْ	والناس ذر على من بر أوفجرا (٢)
لَأَجْلِهِمْ خَلَقَ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهَا	وذنب آدم لولا هم لما غفرا
وَإِنْ آلَاءُهُ مَا لَا يَحِيطُ بِهَا	وصف على أنها تستنطق الحجرا
مَنَاقِبُ عَدَدَ الْأَنْفَاسِ مَا تَرَكْتُ	لفاخر من جميع الناس مفتخرا

(٢) الذر: ما يرى في شعاع الشمس الداخلي من النافذة .

(١) أمت : قصدت ، يسرا : سهلا ، النشر : الريح الطيبة والطيب ، الدنيا : جمع دنيا .

وواضح أنه في البيت الثاني يشير إلى اللاهوت النوري المتنقل في الأئمة - بزعم الإسماعيليين - حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهداً بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود، ولولاهم لم يغفر ذنب أيهم آدم. ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العليّ. ويكثر ابن حيّوس من ذكر إمام العصر وغياب المسلمين وتنقل النور في الأئمة وأن طاعتهم فرض، يقول للذيرى في إحدى قصائده:

يَاسَيْفَ مَنْ عِصْيَانُهُ - وَوَلَاؤُهُ جَعَلَ شَقِيًّا فِي الْوَرَى وَسَعِيدًا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمي والشقي حطب النار مَنْ عصاه. ونراه في مديح الوزير اليازوري يحرضه مرارا على العراق وقد جعل موضوعاً لقصيدة دالية له تدبير اليازوري المعروف لفتنة البساسيري في سنتي ٤٤٧ و ٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيها للخليفة الفاطمي، وفيها يقول للخليفة العباسي القائم بأمر الله:

عَجِبْتُ لِمَدْعَى الْآفَاقِ مُلْكًا وَغَايَتُهُ بِبَغْدَادَ الرُّكُودُ
وَمِنْ مُسْتَحْلَفٍ بِالْهَوْنِ رَاضٍ يُنَادُ عَنْ الْحِيَاضِ وَلَا يَذُودُ

وهو يريد أن ملكه لا يتجاوز بغداد، وأنه يرضى بالخزى والذل والصغار إذ ليس في يده من الحكم والسلطان شيء مع الملك السلجوقي طغرل بك. وما يزال يدور في الفلك الإسماعيلي الفاطمي حتى سن الستين إذ ينزل حلب عند محمود بن نصر المرداسي وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها:

وَلَكِ الْأَدْلَةُ أَوْضَحَتْ حَقِّي رَأْيِي إِثْبَاتَ فَضْلِكَ مَنْ رَأَى التَّعْطِيلَا
عُرُوا بِأَنْ شَرَّقَتْ عَنْهُمْ مَذْهَبًا فِي الرَّأْيِ مَا عَرَفُوا لَهُ تَأْوِيلَا

وهو في البيتين يعرض بالفاطميين وأنهم يدعون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة، كما يدعون دعوة واسعة إلى التأويل في القرآن الكريم حسب عقيدتهم وأهوائهم، وكأنه يريد أن يعلن تبرؤهم منهم وأنهم ضالون مضلون. وأشعار ابن حيّوس تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة والنصاعة، ويستخدم فيها أحيانا المحسنات البديعية دون إسراف أو إفراط.

بهاء الدين^(١) العاملى

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملى ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامى الشيعى ينتقل فى بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأوغل فيها حتى هراة فى أفغانستان . واستقر به المقام فى « البحرين » حيث توفى بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين فى بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحببت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور فى مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه فى الحديث النبوى والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والهندسية والفلكية سوى ما فيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غراره كتابه « المخلاة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته فى البلاد الإيرانية والعربية ألقى عصا تسياره فى أصفهان ، وقربه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية فى أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفى أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكرى وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البورينى فى دمشق . وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته فى إيران مركز المذهب الإمامى إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتباً فى الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة فى التفسير وفى الأصول وفى الفقه وفى العربية وفى الفلك ، وكان شاعرا مبدعا .

ويقول الشهاب الحقايجى : « شعره باللسانين العربى والفارسى مهذب محمر ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الحقايجى فى الرىحانة وابن معصوم فى سلافة العصر والمجيب فى نفحة الرىحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تتناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومديحا ورثاء ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو فى شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامى غال . وكان الإمامية يعتقدون أن إمامهم الثانى عشر محمدا المهدي المنتظر لم يمت حوالى سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود ، ويسمونه إمام^(٢) الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

(١) انظر فى بهاء الدين العاملى وشعره سلافة العصر لابن

معصوم ص ٢٨٩ وريحانة لأبى الحقايجى ٢٠٧/١ ونفحة

الريحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبي)

١٧٦/١ ، ١٩٧ وفى مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣

وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢ ، ٢٤٠/٦

(٢) راجع فى إمام الوقت عند الإمامية الاثنى عشرية

العقيدة والشرعية فى الإسلام لجولد تسيهر (طبع القاهرة)

ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

اتصال شخصي به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويفصح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصروف لشئون الكون والعباد ، ولبياء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أوقامه يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها في كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفةُ ربِّ العالمين وظلُّهُ	على ساكن الغبراء من كل ديار ^(١)
هو العروة الوثقى الذى من بذيله	تمسك لا يخشى عظام أوزار
علومُ الورى فى جنب أبحر علمه	كغرفة كف أو كخمسة منقار
به العالم السفلى يسمو ويعتلى	على العالم العلوى من غير إنكار
همام لو السبع الطباق تطابقت	على نقض ما يقضيه من حكمه الجارى
لنكس من أبراجها كل شامخ	وسكن من أفلاكها كل دوار
أيا حجة الله الذى ليس جارياً	بغير الذى يرضاه سابق أقدار
ويامن مقاليد الزمان بكفه	وناهيك من مجد به خصه البارى

وبهاء الدين يجعل محمدا المهدي الغائب فى رأى الإمامية خليفة الله فى تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذا من الآية الكريمة : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه ، ويبالغ فى سعة علمه اللدنى بالقياس إلى علم الناس الذى لا يعد شيئا مذكورا بجانب بحار علومه . ويزعم أن العالم السفلى وهو الأرض شرف به وفضل على العالم السماوى ، ويزعم أن السموات السبع لو اتفقت على نقض ما يرمه لانقلب أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها . ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا تعصاه أبداو أن مفاتيح الزمان وخزائنه بيده . والقصيدة تمتلئ بهذا الغلو المفرط الذى يجعل هذا الإمام لا يزال حيا يصرف أمور الكون ، ويدبر شئون العباد ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ومقاليد الدنيا بكفه ، وكل شيء يجرى فيها بإرادته ، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين . وهو غلو ما يماثله غلو .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو فى عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سب من وقفوا -

(١) ديار : ساكن دار . الغبراء : الأرض .

في رأى الشيعة - ضد على وحقه في الخلافة وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو مانلقاه في مثل قوله :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّعَى حَبُّ الْوَصِيِّ وَلَمْ يَسْمَحْ بِسَبِّ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عُمَرَ
كَذَبْتَ وَاللَّهِ فِي دَعْوَى مُحِبِّهِ ثَبَّتَ يَدَاكَ سَتَضِلُّ فِي غَدِيرِ سَقَرَا
فَإِنْ تَكُنْ صَادِقًا فِيمَا نَطَقْتَ بِهِ فَأَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِمَّنْ خَانَ أَوْ غَدَرَ
وَأَنْكَرَ النَّصَّ فِي خُمٍّْ وَيَنْعَتِهِ وَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ هَجَرَ
أَتَيْتَ تَبْغِي قِيَامَ الْعَدْرِ فِي ذَلِكَ أَتَحْسِبُ الْأَمْرَ بِالتَّمْوِيهِ مُسْتَثْنَا

وبهاء الدين يجعل سب أبي بكر وعمر فريضة من لم يؤدها صلى نار الجحيم وعذابها الأليم ، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين - كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه - ويعلل لما قاله بأنها أنكرا نص غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعل بالإمامة والخلافة ، وهو نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه في الحج حتى إذا مرض استخلفه في الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديم له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنها منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فدى رسول الله ، وإنما منعها بوصية الرسول - كما ذكرنا مرارا - إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة » . وما من ريب في أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة في نفوس المسلمين . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بهاء الدين العامل كان رافضيا غالبا في الرفض ، سواء في مهاجمته أبا بكر وعمر أو في خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه في تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا كبيرا عن كل ما لج فيه من رفع إمامه الحق عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار ،

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يكثّر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى في أغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جذبا للأسماع ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي ، وهو أمر طبيعي لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وتملأ قلبه وجداً وشوقاً إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدلل عليه وتمتنع وقد تنأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تحمد ، وعبثاً يتدلل لها ويستعطف ويتضرّع ، ومع ذلك لا يذوى الأمل في نفسه بلقائها أبداً ، فهو دائماً مؤمل في اللقاء بعد الهجران وعلى الأقل في الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قد يما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلي يشيع على كل لسان ، فقد ظل يغنى باسمها وعيناه مصوّبتان إلى خيالها ، فهو لا يرى في ليله ولا في نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح في البوادي معاشرآ آرامها ، إذ هجر حيّتها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذي لا يزال بصره فيه شاخصاً إليها . أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيق ساحاته ، وإنه ليفر منه منظوياً على نفسه حالماً بليلي وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلاً عن كل ما حوله ذهول المجانين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلي . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المفرق في الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبه فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستحيل في خيال الشاعر المحب لها أو العاشق إلى كائن شعري ساحر . وقد يفتق المحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفتق بتاتا . ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامي من شعراء العصر العباسي الأول هو ديك الجن الحمصي ، فقد ظل يتغنى بمحبوبته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتاناً ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحري مثله يتغزل بصاحبه « علوة الحلبي » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك في كتابنا « العصر العباسي الثاني » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربي - على مر الأزمنة - أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحري ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة بحلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان في القرن السابع الهجري . على أن بين الشعراء من لم يقتصر في غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من شعر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقي الذي أضاف إليه الإسلام بمثاليته عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجده وهيامه وكلفه بصاحبه كلفا شديدا وعذابه في هذا الكلف عذابا متصلا . وفي الغزل بجانب ذلك الغزل الحسي الذي يصور جمال المرأة ومفاتها تصويرا ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمع العواطف . وظل هذان النوعان : الملائكي الطاهر والمادى الصريح يتقابلان في الغزل العربي طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كشاجم في صاحبة له (١) :

السُّحْرُ في الحَاطِظِهَا الفاتِكَةُ	والرُّوحُ من إِعْرَاضِهَا هالِكَةُ
والقَهْوَةُ الصُّهْبَاءُ من رِيْقِهَا	والمسْكُ من أَصْدَاغِهَا الخالِكَةُ
مَنْ لم ير الدَّرَّ وتَأْلِيفَهُ	في سِلْكِهِ فليَرَهَا ضاحِكِهِ
قد كَتَبَ الحَسَنُ على خَدِّهَا	طُلُّ دَمٍ أَنْتِ لَه سَافِكِهِ

والآيات تخلو من العاطفة المشبوية ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية بيروت)

محفوظة ، فريق صاحبه خمر والشعر على أصداعها مسك وأسنانها درّ ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بديعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته ، وهى مبالغة فى الخيال والتصور . ولأبى فراس الحمدانى أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول (١) :

سكرتُ من لحظه لا من مُدامته ومال بالثوم عن عيني تمائله
وما السلافُ دهنتي بل سوافه ولا الشمول ازدهنتي بل شمائله
ألوى بلبى أصداعُ لوين له وغال قلبى ما نحوى غلائله

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبه وعينها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الخمر هى التى دهته بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمر أو الشمول هى التى استخفت به بل خصاها الحلوة وما أروع أصداع شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالى حبه على طريقة عمر بن أبى ربيعة (٢) ، إذ يقول إنها ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فتفرقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار ، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبى ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديداته ، وهى قديمة فى الشعر العربى . ولابن سنان الحفاجى (٣) :

أترى طيفكم لما سرى أخذ النوم وأعطى السهرا
أم . ذهلنا وتمادى ليلنا فتوهمننا العشاء السحرا
يا عيوننا بالحمى راقدة حرم الله عليكم الكرى
سل فروع البان عن قلبى فقد وهم البارق فيما ذكرا

وليس فى الأبيات لهفة ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبه أو صواحه - فى البيت الثالث - أن لا يذقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هى أبيات فى الغزل أو النسب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله . ولابن الحياط أشعار غزلية

(٣) ديوان ابن سنان الحفاجى (طبع المطبعة الأنسية)

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ٣٠٢/٢

(٢) ديوان أبى فراس ٣٩/٢ .

كثيرة يقدم بها لمدايحہ نحس فيها لوعة المحب وخرقة فؤاده من مثل قوله^(١) :

خُذَا من صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ فَقَدْ كَادَ رِيَّاهَا يَطِيرُ
تَذَكَّرَ والذَكَرَى تشوُّقٌ وذو الهوى يتوقُّ وَمَنْ يَعْلَقُ به الحبُّ
غَرَامٌ على يَأْسِ الهوى ورجائه وشوقٌ على بُعْدِ المزار
إذا خَطَرْتُ من جانب الرَّمْلِ نفحةً تَضْمَنُ منها دَاءَهُ دون
أَغَارُ إذا آنَسْتُ في الحَى أَنَّهُ حَذَارًا وخوفًا أن تكون

فحب صاحبه النجدية استأثر بقلبه حتى ليطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن
شعاعا ، وإنه ليذكرها ليل نهار وتُضَيِّيه ، ويأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقو
القصيد . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنَّسَّم في الصَّبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تح
نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ في وصف غيرته عليها ، حتى ليخشى أن تكون ك
يسمعها في الحى من محب لها محموم بحبها ودائه العُضال . ولمعاصره العزى المتوفى سنة
للهجرة^(٢) :

إشارةً منك تغنني وأحسنُ ما رُدَّ السلام غَدَاةَ اليَّن بالعتة
حتى إذا طاح عنها المرطُ من دَهَشٍ وانحلَّ بالضمِّ سلكُ العقد في الظِّلِّ
تبسَّمتُ فأضاء الليلُ فالتقطتُ حَبَاتٍ مُتَتِّرٍ في ضوءِ مَنْ

وهو تكفيه الإيماءة من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول
سقط عنها المرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها ، وتبسَّمت فأضاء ظلام
وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة في ضوء اللؤلؤ المنتظم في ثغرها البراق الفاتن .
ودخل القيسراني مدينة أنطاكية في أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت
وكان في الثانية والستين من عمره ، فنظم مقطعات يشبُّ فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تد
ماريّا ، خلبت له ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله^(٣) :

(٤) المرط : كساء من حرير أو صوف تتلفع به
(٥) الخريدة (قسم الشام) ١٢٤/١

(١) ديوان ابن الخطاط ص ١٧٠

(٢) ابن خلكان ٥٩/١

(٣) العنم : نبات أزهاره قرمزية

عفائفٌ إلا عن مُعاقرة الهوى ضعائفٌ إلا في مغالبة الصَّبِّ
ولما دنا التوديع قلتُ لصاحبي حنانيك سِرُّ بي عن ملاحظة السَّرْبِ
تقضى زمانى بَيْنَ بَيْنٍ وهجره فحتم لا يصحو قوادى من حُبِّ
وأهوى الذى يَهْوَى له البدرُ ساجداً ألت ترى فى وجهه أثر التُّربِ

والصورة فى البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر الترب العالق بجبهته لتوالى سجوده لصاحبه ولجمالها الساحر. ويقول إن زمانه تقضى فى حرمان متلاحق من البعاد والهجرة المتصلة. ولحماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله (١) :

ألا هل لماضى العيشِ عندك مرجعٌ وهل فيه بعد اليأس للصَّبِّ مَطْمَعٌ
لقد أولعتُ بالصدِّ عني وإننى لفرقتها ، ما عشتُ ، بالوجد مَوَلَعٌ
أضاحكُ حُسَّادى فيغلبنى البكا وأكتمُ عَوَادى وإنى لموجعٌ
إذا خطرتُ من ذكرها لىَ خطرةٌ تكاد لها أنياطُ قلبى تقطعُ

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال حبل الرجاء ممدودا ، مع ولوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجده وجدا ملتاغا . ويضاحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا ، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحس كأن نياط قواده وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة . وقد أنشد له العماد غزلا كثيرا . ويشكو ابن النفاذ كاتب الإنشاء الدمشقي المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبه قائلا (٢) :

مَنْ منصفٍ من ظالمٍ متعنِّتٍ يزداد ظلما كلما حَكَمْتُهُ
مُلْكُهُ رَوْحِي لِيَحْفَظَ مُلْكَهُ فأضاعنى وأضاع ما مَلِكْتُهُ

وهى تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف ، وويل له لقد ملكها روحه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هى تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خواء بلا روح ، فما أشقاه ؛ ويقول فتیان الشاغورى متغزلا (٣) .

ومهفهفٍ بلغَ المنى بصفاته حركاتُ غُصْنِ البان من حركاتِهِ

والشمسُ تخجلُ من ضياءِ جبينه والجلنارُ يغارُ من وجناته
أضحى الجمالُ بأسره في أسره فكأن يوسف حاز بعضَ صفاته
لا تظمَنُ يا عاذلي في سلوقي عنه فما أسلوهُ ، لا وحياته
وهو يصور صاحبه مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من
حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذي يمد ملاحه حركته مشتقة من حركاتها ، ويجعل
الشمس تصفرّ خجلاً من ضياء جبينها ، بينما يغار الجلنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر
من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويجعلها تحوز الجمال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام
إنما حاز منه أطرافاً ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفّ عن حبه ولن يسلو صاحبه أبداً .

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة (١) :

وتنبّهت ذاتُ الجناح بسحرة بالواديين فنبتت أشواق
ورقاً قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق (٢)
أنّي تُباريني جوى وصبابة وكآبة وأسى وفيض مآق
وأنا الذي أملى الجوى من خاطري وهى التى تملئ من الأوراق

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحماة الورقاء وصبابتها لأليفها وحزنها
الدفين ، ويقول إنه يملئ من خاطره حرقته ولوعته ، بينما هى تملئ من أوراق الشجر وتروى عنه
ذلك الوجد . ويقول المحار الحلبى المتوفى سنة ٧١١ للهجرة (٣)

ما بثّ شكواه لولا مسّه الألم ولا تأوّه لولا شفه السقم
ولا توهم أن الدمع مُهَجته أذاها الشوق حتى سال وهو دم
يُبدى التجلّد والأجفان تفضحه كالبرق تبكى الغواذى وهو يتسم
يمسى ويصبح لا صير ولا جلد ولا قرار ولا طيف ولا حلم

والمحار يقول إنه لم يشك إلا بعد أن برح به الألم ولا أن إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم

(١) الخزنة ص ٣٢٦

إسحاق الموصلى أشهر المغنين الملحنين فى العصر العباسى

(٣) فوات الوفيات ٢٢١/٢

(٢) يعقوب هو النبى يعقوب وبكاؤه على ابنه يوسف

حتى ابيضت عيناه من الحزن معروف .. وإسحاق هو

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دماً قانيا . ويمسى ويصبح وقد عزه الصبر والتجلد وتملكه قلق لا حد له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف في المنام ، وحتى الأحلام إذ لا يزال مسهّداً لا ينام .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة^(١) :

طرقتُ طروقَ الطيفِ وَهنا مَيَّالَةٌ الأعطافِ حُسْبًا
مَصْقُولَةٌ الخَدَّينِ مِثْلُ السَّيفِ الحَظَّاءِ وَمَثْنًا
فِي حُلَّةٍ مِنْ جِنْسٍ مَا يَكْسُو الرِّيعُ الغُصْنَ دَكْنًا
الدَّلُّ يَنْبِتُ مِنْ مَسَا حَبٍ ذَيْلُهَا وَالْحُسْنُ يُجَنِّي
لَوْ خَاطَبْتُ وَثْنًا لَحَبٍّ مَعَ الْجُمُودِ هَا وَأَنَا

وليس في القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبه ودلّها وحسبها ، ويقول : لو خاطبتُ وثنا من الأحجار لحنّ لها وأنّ أنينا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل^(٢) :

مَنْ عَذِيرِي فِي حَبٍّ طِفْلٍ لَعُوبٍ عَوْدُوهُ سَفَكَ الدِّمَاءَ فَحَلَا لَهُ
كَلِمًا صَدَّ عَنْ سِوَايَ دَلَالًا صَدَّ عَنِّي تَبَرُّمًا وَمَلَالَةً
لَسْتُ أَنْسَى يَوْمَ الْفِرَاقِ وَقَدْ أَذْ رَكَّ مِنْ شَمَلْنَا النَّوَى آمَالَةً
غَضَبَ الْبَيْنِ مِنْ يَدَيِ كُلِّ قَدْ سَرَقَ الْغُصْنُ لَيْنَهُ وَاعْتَدَالَهُ
مَرَّ نَشْوَانٍ مِنْ جَوَى يَشْنَى ثَقُلَ الْوَرْدُ غُصْنَهُ فَأَمَالَهُ

والقطعة ترخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد عودوا صاحبه الطفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن الغصن سرق لينه واعتداله من قد صاحبه وقوامها اللين المشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبه تتثنى لثقل الورد المتوهج على خدودها الفاتكة . وحرى بنا أن نترجم في إجمال لبعض شعراء العصر الغزليين .

(١) نفحة الربحانة (طبعة الحلبي) ٥٢٧/٢ .

عبد (١) المحسن الصوري

هو عبد المحسن بن محمد الصوري ، أحد الشعراء المجيدين المبدعين ، وفيه يقول الثعالبى :
 « أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعاني رائق الكلام ، مليح
 النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان .
 توفي سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حيوس الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة
 مُعَرِّى شعره ، وكان يفضل على أبى تمام والبحترى والمتنبى . ويُروى أنه مرَّ فى طريقه إلى حلب
 بشاعر المعرة بل الشام بل العالم العربى لزمته : أبى العلاء ، وجرى بينهما حديث فى الشعر والشعراء
 وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصورى بقصر أشعاره وأنه لا ينظم فى الغالب إلا مقطعات فقال له
 ابن حيوس : هو أشعر من طويلك يقصد المتنبى ، فذَّ إليه أبو العلاء يده وقبض على أعلى ثوبه
 قائلا : الأمراء لا يناظرون ، يعنى أنه لا يقارن بالمتنبى . وكان أبو العلاء معجبا بالمتنبى إعجاباً
 شديداً حتى سُمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصورى
 لا يدفع أنه مجيد فى قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقترب فى فنه من أبى تمام فى دقائق تصاويره
 وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسى يعجب بأشعاره حتى ليقرنه فى مقدمة ديوانه
 بالشرىف الرضى ومهيار قائلا : إنه تملكته فى شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم
 الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا فى ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصورى ألهمه هذه المقطوعة
 أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعا يتغزل غزلا رقيقا ممتزجا بالطبيعة وجالها الهاجع فى الكون ،
 وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن فى غزله ، فهو فيه يمزج بين المحبوب وعناصر الطبيعة
 مزجا فيه كثير من الطرافة فى التصوير كقوله :

بالذى	ألم	تغدي	بى	ثناياك	العذابا
والذى	ألبس	خدتي	لك	من الورد	نقابا
والذى	صير	حظي	منك	هجرأ	واجتنابا
يا غزالاً	صاد	باللح	ظ	فؤادى	فأصابا
ما الذى	قالته	عينا	لك	لقلبي	فأجابا

(١) انظر فى ترجمة عبد المحسن الصورى وأشعاره
 البيتمة ٢٩٦/١ وبتمة البيتمة ص ٣٥ وابن خلكان

٢٣٢/٣ وعبر الذهبى ١٣١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٦٩/٤
 ومراة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود .

فهو يصل بين رُضاب الثنايا في ثغر صاحبه وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجنتيها وردا تتقب به . وهو بعد في التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهي غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخلب القلوب فتليه طائفة مستجيبة .
وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب في غزل عبد المحسن الصوري واستضاء به ، كما استضاء واستلهم في أشعار أخرى له جانبا ثانيا في غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدماء والنعومة على نحو ما نجد في قوله :

أَتَرَى بَثْرَ أُمِّ بَدَيْنِ	عَلَقْتُ مُحَاسِنُهَا بِعَيْنِي
فِي لَحْظِهَا وَقَوَامِهَا	مَا فِي الْمَهْدِ وَالرُّدَيْنِي
وَبَوَجْهِهَا مَاءَ الشَّبَا	بِخَلِيطِ نَارِ الْوُجْتَيْنِ
بَكَرْتُ عَلَى وَقَالَتِ اخْدِ	تَرَّ خَصْلَةً مِنْ خَصْلَتَيْنِ
إِمَّا الصَّدُودُ أَوِ الْفَرَا	قُ فليس عندي غيرُ ذَيْنِ
فَأَجَبْتُهَا وَمَدَامَعِي	مَنْهَلَةٌ كَالْمِرْزَمَيْنِ ^(١)
لَا تَفْعَلِي إِنْ حَانَ صَدِّ	لُكَ أَوْفَرَاكَ حَانَ حَيْنِي
وَكَأَنَّمَا قَلْتُ أَذْهَبِي	فَضْتُ مَسَارِعَةَ لَبْنِي

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطفة من وزن الكامل المجزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التي تمكن لها بحلاوتها وعذوبتها في الآذان ، بل في القلوب والأفئدة . ويقول في صُدغ شعر مرسل بين أذن صاحبه ووجنتيها وقد توقف مائلا منحنيا :

جَنِّي مَا جَنِّي وَأَنْصَرَفْ	وَأَنْكَرْ ثُمَّ اعْتَرَفْ
سَلُوا صُدْغَهُ لِمَ جَرَى	وَلَا جَرَى لِمَ وَقَفْ
وَكَمَا كَانَ عَلَى أَنَّهُ	يَجُوزُ الْمَدَى فَانْعَطَفْ

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجماله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجري ثم يقف ، وهو يسترسل ثم

(١) المرزمان : نوهان شديدا المطر

ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحبهم ، ويذكرون ذلك في أشعارهم ، أما عبد المحسن فيقول :

تعلَّقته سكران من خمرة الصُّبا به غفلة عن لوعتي وهبي
وشاركني في حبه كلُّ أغيدٍ يشاركني في مهجتي بنصيب
فلا تُلْزِموني غيرَ ما عرفتْها فإن حبيبي من أحبِّ حبيبي

وهو في ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار ممن يحب حبيبه ولا يكرهه أو يمتقته ، بل أعجب العجب أنه يحبه ، وهي مبالغة مفرطة في الرقة ورهافة الشعور .

ابن^(١) منير

هو أحمد بن منير الطرابلسي ، ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغني في أسواقها ، وأخذ ابنه في نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العماد الأصماني كان شيعيا غالبا ، ويقول ابن خلكان : « كان رافضيا » . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بوري بن طغتكين صاحب دمشق (٥٢٢ - ٥٢٥ هـ) وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بوري على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بوري ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله يتزل في بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشييزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شييزر ، وكان في أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب . وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكي على الصليبيين في بادين وغيرها من ساحات الحرب في الشام . وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التي أسسها حملة الصليب . وأقام ابن منير حيثن بجلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسراني - بسبب المنافسة - معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكي ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه في غزواته ، واتخذ نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق في بعض المهام ، ولم يلبث أن توفي بجلب سنة ٥٤٨ .

والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٤٦/٤ .

(١) انظر في ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام)

٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسي ٣٢٢

وتناول ابن منير في شعره أغراضا مختلفة في مقدمتها المديح ، ومربنا - في غير هذا الموضع - حديث عن مديحه لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين في انتصاراتهما الرائعة على حملة الصليب ، ويُشيد العماد الأصبهاني بشعره وروعته . وكان يكنى أبا الحسن ويلقب المهذب وقال في وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من نَيْل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية . وله هجاء كثير . وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفي رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صَفَّى مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجود متقد لا تحمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ رَكَّبَ الْبَدْرَ فِي صَدْرِ الرَّدِّيْنِ	وموّه السحرَ في حدّ اليماني
وَأَنْزَلَ النَّيِّرَ الْأَعْلَى إِلَى فَلَكَ	مدارهُ في الكساء الخسرواني
طَرَفٌ رَنَا أَمْ قِرَابٌ سُلَّ صَارْمُهُ	وأغيدُ ماسَ أَمْ أعطافُ خَطِي
أَذَلَّنِي بَعْدَ عَزٍّ وَالهْوَى أَبَدًا	يستعبد اللَّيْثَ لِلظُّبَى الْكِنَاسِي ^(١)
أَمَّا ذَوَائِبُ مَسْكِ مِنْ ذَوَائِبِهِ	على أَعَالَى الْقَضِيبِ الْخَيْرَانِي
وَمَا يُجِنُّ عَقِيقِي الشُّفَاهُ مِنْ أَلِ	رَيْقِ الرَّحِيقِي وَالشُّغْرِ الْجَمَانِي
أَرْبَى عَلَى بَشْتِي مِنْ مُحَاسِنِهِ	تَأَلَّفْتُ بَيْنَ مَسْمُوعٍ وَمَرْتِي

والصور في الأبيات طريقة غاية الطرافة ، فهو يتعجب من بدر يراه في صدر رمح ديني مهيبٍ لإصابة الحب في الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموّهًا في حد السيف اليماني وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض في كساء فارسي حريري . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُلَّ سيفه القاطع ، وهل هو بإزاء قد شائق ناعم يتثنى أو بإزاء أعطاف رمح خَطِي قاتل ، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفاتك للظبي الوادع الذي يعيش في كناسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالي هذا الغصن الخيزراني الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاه فوراءها الثغر الفضي من الأسنان والريق الرحيق السائع . وهي صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضا طريفا . ويقول :

أُتْرَى يَثْنِيهِ عَنْ قَسْوَتِهِ خَدُّهُ الذَّائِبُ مِنْ رِقَّتِهِ

(١) الكيناس : مأوى للظبي في الشجر يستتر به

أفامتنجده وهو الذي لون الدمع على حبيبته
ولهذا قوسه مؤثرة تستمد الثبل من مقلته
قر لا فخر للبدر سوى أنه صيغ على صورته
صدغه كرمه خمر قُسمت بين خديته إلى نكهته
أتحال الحال يعلو خده نقط مسك ذاب من طرته
ذاك قلبي سليت حبه وامسوت خلا على وجته

والقطعة تموج بالصور ، فخذ صاحبته يلوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القاني ، وإن قوس حاجبها لمشدود والتبل في مقلتها يستمد . وقد بلغت من الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صيغ على صورتها ، وكأن صدغها أو خصلتي الشعر المرسلتين على خديها كرمه خمر قسمت بينهما واستحالت رضاها في ثغرها يرشفه الحب . ويقول : لا تظن الحال على خدها نقطة مسك سقطت من طرة شعرها ، بل هو حبة فؤاده سلبها من قلبه وأتاحها لوجنتها الفاتنة . وتكثر مثل هذه الصور البديعة في شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وتوقلت في الرّوض من وجناته نار الحياء يشبها ماء الصّبا^(١)

وقوله :

وكم له في كبدي لسة برودها الدّرياق من فيه^(٢)

وقوله :

سلمت فازور يزوي قوس حاجبه كأنني كأس خمر وهو مخمور

وقوله :

قر ما طلعت طلعت قط إلا سجد البدر لها

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة في الألفاظ وبين الرشاقة والعدوبة ، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل في مملوكه « تتر » أنشدتها الحموي في خزانته تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة ، ويحق أن كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

(١) يشبها : يوقدها .

(٢) برودها : شربها . الدرياق : الترياق الشافي

الشاب^(١) الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، نشأ أبوه في دمشق ، وخدم الدولة في عدة جهات ، وعمل كاتباً وشيخاً للصوفية وانتظم في سلكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها في خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم « سعيد السعداء » وولد له حيثُذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا آتاه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر في مثل قوله :

يا ساكني مصرَ شَمِلُ الشوقِ مجتمِعُ بعد الفراقِ وشملُ الشكرِ أجزاءُ

والتحق أبوه بالدواوين في دمشق ، وولى هو عمالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون في دورهم أوفى المنتزهات ، غير أنه لم يعيش طويلاً ، إذ عاجلته المنية في الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ . وقد تناول الشاب الظريف في شعره أغراضاً مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعي وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفي وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربي ، وكأنما تمثل ما في أشعارهم جميعاً من وجد قوى حار ، وبث منه الكثير في غزله ، مصوراً ما يثير الحب في القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضاً ذلك في لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفي شعره ورقته ينقل ابن شاعر عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره : « نسيم سرى ، ونعيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه في الكرى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، ويرئ من العيوب ، رِقُّ شعره فكاد أن يُشرب ، ودقُّ فلاغرو للقُصْب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رشيق الألفاظ ، سهل على الحفاظ ، ل يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تحلوه المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر »

ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانة لابن حجة الحموي ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

(١) انظر في الشاب الظريف وأشعاره قوات الوقيات لابن شاعر ٤٢٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ

وهي شهادة قيمة لابن فضل الله في الشاب الظريف وشعره غزلا وغير غزل ، اذ يموج شعره بالركة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل في صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشهم في نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تُخَفِّ ما فعلت بك الأشواقُ واشْرَحْ هَوَاكَ فكلُّنا عُشَّاقُ
فَعَسَى يُعِينُكَ مِنْ شَكْوَتِ لَه الْهَوَى فِي حَمَلِهِ فَالْعَاشِقُونَ رِفَاقُ
لَا تَجْزَعَنَّ فَلَسْتَ أَوَّلَ مُعْرَمٍ فَتَكْتُ بِهِ الْوَجَنَاتُ وَالْأَحْدَاقُ
وَاصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ فَرِمَا عَادَ الْوَصَالُ وَلِلْهَوَى أَخْلَاقُ
يَا رَبُّ قَدْ بَعُدَ الَّذِينَ أَحْبَبَهُمْ عَنِي وَقَدْ أَلَفَ الْفِرَاقُ فِرَاقُ

والأبيات تسيل رقة وعدوبة ، وهي تلتصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمري من أن الشاب الظريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شيء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على السنة العامة مع أنها عربية فصيحة ، مما يُشيع الاستواء في عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب في تحدره ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظي ، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أَعَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَ الْعَيُونِ وَخَلَّدَ مَلِكَ هَاتِيكَ الْجُفُونِ
وَضَاعَفَ بِالْفَتُورِ لَهَا اقْتِدَارًا وَإِنْ تَكِ أَضْعَفْتُ عَقْلِي وَدِينِي
وَأَبْقَى دَوْلَةَ الْأَعْطَافِ فِينَا وَإِنْ جَارَتْ عَلَى قَلْبِي الطَّعْنِ
وَأَسْبَغَ ظِلُّ ذَاكَ الشَّعْرِ مِنْهُ عَلَى قَدِّ بِهِ هَيْفُ الْغُصُونِ

وهو دعاء لصاحبه مليء بالظرف والرقة والدمائة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض من عالم الجلال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشره تأثيرا في القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته في الصميم : في قلبه . ويستمر في دعائه : أن يسبغ الله ظل ذاك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعِيدُهُ وَقَرِيبُهُ ولك الجالُ بديعُهُ وَغَرِيبُهُ
يا من أعيدُ جماله بجلاله حذرًا عليه من العيون تُصِيبُهُ
إن لم تكن عيني فلأنك نورُها أُولم تكن قلبي فأنْت حَيِّبُهُ
هل حرمةٌ أَوْ رَحْمَةٌ لِمَتِّمٍ قد قَلَّ منك نصيرُهُ وَنَصِيبُهُ
لم يبق لى سرُّ أقول تَذِيعُهُ عني ولا قلبُ أقول تُذِيعُهُ
وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ من لِقَاكَ مَنَالُهُ عندى وأبعدُ من رضاك مَغِيبُهُ

والآيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبه بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو يعيد جمالها بجلالها حذرا من عيون الجاسدين . وهى نور عينه وَحَبَّة قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أَوْ حرمة الحب لعلها تنيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حبها ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حبها حتى ذاب التياغا لطول يأسه من لقاءها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقاءها منالا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بِتَشْنَى قوامك الممشوقِ وبأنوار وجهك المعشوقِ
جُدْ بوصلٍ أَوْ زورٍ أَوْ بوعِدٍ أَوْ كلامٍ أَوْ وقفةٍ فى الطريقِ
أَوْ يارسالك السلامَ مع الرِّيحِ وإلا فبالخيالِ الطُّرُوقِ

وتدل تمنياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماعة والظرف والتدله فى الحب واتقاد جذوته فى فؤاده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

حسن^(١) البورينى

هو حسن بن محمد البورينى ، ولد بالأردن فى قرية صَفُورِية لسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

(١) انظر فى حسن البورينى وشعره ربحانة الألبا ٤٢/١

وخلاصة الأثر ٥١/٢

المقدس ، وفيه أتم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس في مدارسها والوعظ في مساجدها . وتولى منصب القضاء في الحج الشامي سنة ١٠٢٠ . وكان عالما ثبنا حُفْظَةً فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفي بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدية الوجود . وكان سنياً شافعيًا . وله كتاب في تراجم الأعيان لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المحب في كتابه خلاصة الأثر .

وكان البوريني شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة في مكتبة كوبريلي بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الخفاجي : « دياجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارذ التي يفتخر بها الفخر » وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقي من نفس المعين الذي استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفي وما فيه من وجد ملتاع ، ويكفي أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبيعي أن يتأثر بحبه الإلهي الظامي أبداً وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذي يصحبه دائماً الفراق والحرمان ، فما يكاد يهنا بالحب لحظة حتى ينبثق له غراب البين ، ويظل في نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبه بمثل قوله :

يقولون في الصبح الدعاء مؤثّر فقلت نعم لو كان ليلى له صُبْحُ
وياعجباً متى أروم لقاءه وفي جفنه سيفٌ ومن قدّه رُمحُ
وإنسانٌ عيني كيف ينجو وقد غدا يطول له في لُجّ مَدْمَعه سُبْحُ
وليس عجيباً أنْ دمعى أحمرُّ وفي مهجتي قَرَحٌ وفي مقلتي رَشْحُ

فهو يعيش بدون صاحبه في ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقاءها وهي مسلحة بجفنها الساحر وقوامها المشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التي يغرق فيها إنسان عينيه ، وما زالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دما ، ويشعر كأن في مهجته جرحاً لا يبرأ وفي مقلته رشحاً لا يرقأ . ويقول :

وكنا كغُصْنَي بَانَةٍ قد تألّفا على دَوْحَةٍ حتى استطلا وأينعا
يغنيهما صَدْحُ الحمامِ مُرْجَعًا ويسقيهما كأسُ السحابِ مُتْرَعًا
سليمين من خَطْبِ الزمان إذا سَطَا خَلِيَيْنِ من قول الحسود إذا سَعَى

ففارقني من غير ذنبٍ جنيته وأبقى بقلبي حرقةً وتوجعاً
عفا الله عنه ما جناه فإنني حفظتُ له العهد القديم وضيقاً

وهي قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبه كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان ولداً معاً وعاشا معاً صيفاً وشتاءً وتغذيا معاً وتناولوا الحياة تناولاً واحداً ، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كتوس السحاب منتشين هائنين ، لا عدول ولا حسود . وفجأة تهجره صاحبه من غير ذنب جناه . ويصطلي قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبه جنايتها ، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكرةً له بل حافظاً أميناً . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنَّ أواملاً وما هي من بعد الفراق طُلُولُ
ويا ظبِّي هل بعد النِّفار تَأْسُ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفولُ
ويامنزلُ الأحباب أين ترحلوا وهم في قوادي - ما حييتُ - نزولُ
يميلون عني للوشاة وإنني إليهم وإن طال الصدود أميلُ
علىَّ لهم حفظُ الوداد وإن جَنُوا وليس إلى نقضِ العهود سبيلُ

وقد فارقت صاحبه وأصبحت منازل قلبه طلولا دارسة ، وإنه ليتساءل متحسرا هل بعد النفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل منزل الجيبة وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول في قلبه لا يفارقونه أبداً ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فسيظل متعلقاً بهم حافظاً لودادهم لا ينقض العهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمسكه . وما يلبث أن يخاطب في نفس القصيدة قريبا أو كما يسميه ابن ورقاء أي حامة رمادية اللون قائلا :

وما حاجني إلا ابنُ ورقاء سُحرةً له فوق أفنان الرياضِ هَدِيلُ
يُرَدُّدُ في صُحفِ الرياضِ قصائدا من الشوق يُملِّها لنا وَيَمِيلُ
يُحِيلُ أن اليِّنَ آذَى قَوَادِهِ وكيف ولما يَنَّا عنه خَلِيلُ
ولم تحتكم فيه الليالي ولم يَنَ عليه لَبَّيْنِ رَقَّةً ونَحُولُ
أما والهوى لو ذقتَ ما ذقتُ في الهوى لما ازدان بالأطواق منك تَلِيلُ

ألا إنه مفارقَ الألفِ دَهْرُهُ ومالى إلى وَصْلِ الحبيبِ وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قرى يتغنى سحرا بأشواق ماينى يرددّها في صحف الرياض ويمليها مخيّلا كأنه يشكو من آلام بين مبرّح ولا بين ولا فراق ، فحبيته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها ضنّى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتبارحه ما ازدان تليله أو عنقه بطوق ، ويقول له إنه لم يفارق أليفته يوما بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله :

ورقُ الغصونِ دقاترُ مشحونةٌ مملوءةٌ بأدلةِ التوحيدِ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائما مشوق يتمنى الوصل وأن تدوب حُجب الهجران . وما زال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبي نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة .

٢

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر والحماسة الحربية غلب عليها قديما ، حتى سمي أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من قديم شعر الهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا في الأعداء . وكانت معارك العرب - على مر السنين - بينهم وبين الأمم وقودا مستمرا للفخر والهجاء ، فلم تحمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون في تلك المعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفي بذكر شاعرين كبيرين قرييين من هذا العصر هما أبو تمام والبحترى ، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين ، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم في آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من مَحَق لا يكاد يبقى منهم باقية . وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربي كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمهما الشعراء لبيان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدرىها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فنجد - بعامل المنافسة - شاعرا يفاخر زميلا له وبهاجيه .

وكل ذلك نراه شائعا في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتدمة في أوائله بين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وبين الروم ، وكان يكيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته ويطولون جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبقى ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالدين والسريّ الرّفاء . وشاعر الفخر الشامي الذي لا يبارى في القرن الرابع الهجري أبو فراس الحمداني ، وسنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام في القرن الخامس الهجري قصيدة أبي العلاء المعري التي أشرنا إليها في ترجمته وفيها يقول ^(١) :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلٌ	عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلٌ
تُعَدُّ ذنوبي عند قومٍ كثيرةٌ	ولا ذنب لي إلا العُلا والفضائل
وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم	بإخفاء شمسٍ ضوءها متكاملٌ
ولاني وإن كنت الأخير زمانه	لأت بما لم تستطعه الأوائل
ولي منطقٌ لم يرض لي كُنهٌ متري	على أنني بين السّاكين نازلٌ
ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشيا	تجاهلتُ حتى ظنّ أنني جاهلٌ
وواعجبا كم يدعى الفضل ناقصٌ	ووأسفا كم يُظهر النقص فاضلٌ
ينافسُ يومي في أمسي تشرفا	وتحسد أسحاري عليّ الأصائل

والقصيدة تناقض شخصية أبي العلاء المتشائمة الزاهدة في الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقه في فن الفخر ، وإما نظمها في ساعة غضب ردا على بعض شائثيه وخصومه . ومع ذلك فهي تصور مكانته في الأدب العربي ، وأنه فيه - بحق - السابق المجلي ، وهو يقول : من أين يلحقني الذم وأنا أنهض بكل ما يكسبني المجد والشرف من العفاف الطاهر

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية)

والإقدام الجريء والحزم النافذ والتائل أو الجود السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدَّت العلا والفضائل ذنوبا وعيوبا ، ولن تعد المحاسن كذلك أبدا . وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذي لا يستطيع أحد إخفائه ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أتى بما لم يستطعه الأوائل ، ومع أنه بين السماكين في السموات العلا لا يزال منطقته أو عقله يطلب منزلة أعلى شأنا . ولما رأى الجهل فاشيا تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسّر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمره يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ويمضي أبو العلاء في القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفتخر بقومه وبلائهم في حرب الثغور ضد الروم^(١) :

أهلُ الثغور إذا تلمَّ مُلِمَّةٌ بَسَطُوا رِمَاحًا دونها وسَوَاعِدَا
وأولو التَّقَى فإذا مررت عليهمُ لم تلق إلا مكرما ومجاهدا
إن حاربوا ملثوا البلاد مَصَارِعًا أو سالموا عَمَرُوا الديار مساجدا
بيتُ له النسبُ الجليُّ وغيره دعوى تريد أدِلَّةً وشواهدا

وهو يفخر ببأس قومه وتقواهم وأنهم في الحرب يملثون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملثوا الديار مساجد ، ويقول إن بيتهم عريق في العرب لا يطاوله أي بيت . ومن شعراء الفخر في زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرد له ترجمة - ولا ابن الساعاتي المار ذكره^(٢) :

وإني لآبى الضَّيْمَ من كل صاحبٍ وأكره قلبي أن يكون له خَدْنَا
وإن بلدٌ لم أَغْدُ فيه مكرمًا نهضتُ فأعملتُ الجُدَيْلِيَّةَ البُدْنَا^(٣)
وما شان فضلي بين أهلي خموله وقد بلغت غاياته الإنسَ والجَنَّا
فإني كعود الهند هينَ بدوحيه وقد عبقت أنفاسه السَّهْلَ والحَزْنَا

(٣) الجديلية البدن : النوق الضخمة

(١) ديوان ابن سنان الخفاجي ص ٢٣

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢١٤/٢

فهو يأبى الضم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحس أن بلدا ينبو به رحل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ في بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فثله مثل عود الهند لا يُعرف فضله في دوحته ، بينما رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض . ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش المعتر بنفسه وكرامته طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزرى المار ذكره (١) :

يقدّمنى عزمى وحظى مؤخرى ويوصلنى حزمى ودهرى يقطع
وهمى من الدنيا المعالي ونيلها وما هم قلى الرقمتان ولعل (٢)
ولا رشأ أحوى ولا صوت قينة ولا قدح فيه الرحيق المشعشع (٣)
ولكنما لدن وأجرد سابح ومسرودة زغفا وأبيض يسطع (٤)

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ في الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر . وهمه طلب المعالي والظفر بها لا بمن يسكن روضتي الرقمتين وجبل لعل من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنين غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما هم رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضئ في غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالي لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بخمر ، إنما يشغف بالبأس في الحرب وتقتيل الرجال وسفك دماهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يحزون الشعراء الجزاء الوفر وكثيرا ما كانت تستخدم بينهم المنافسات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخريه جارحة ، وقد يصبح دعاية وإن لم تخل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصورى وقد نزل ضيفا على أخ له (٥) :

وأخ مسه نزولى بقرح مثل ماسنى من الجوع قرح
بت ضيفا له كما حكم الدهر روفى حكمه على الحر قبح

(١) ريجانة الالباء ١١٨/١
(٢) الرقمتان : قرنتان في شرق نجد أو روضتان
ويذكرها شعراء الغزل . لعل : جبل في نجد
(٣) الرشأ : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة :
ملحة في الشفة ، الرحيق المشعشع : العسل المزوج
(٤) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة :
درع . زغفا : سابعة . أبيض : سيف
(٥) اليتيمة ٣٠٠/١

قَالَ لِي إِذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السَّكْرِ رَءُوسُهُ طَافِحٌ لَيْسَ يَصْحَوُ
لَمْ تَغْرَبْتَ قُلْتَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْقَوْلُ مِنْهُ نُصْحٌ وَنُجْحٌ
سَافَرُوا تَغْنَمُوا فَقَالَ وَقَدْ قَالَ لِي تَمَامُ الْحَدِيثِ صُومُوا تَصِحُّوا

وهي دعاية تلسع لَسَعَ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيفه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من
عَضُّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه مَسَّهُ من الجوع قَرَحٌ لا يزال يَنْزُلُ أَلَمًا ،
وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : (إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرَحٌ مِثْلُهُ) أى إن نالوا
منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إن الدهر هو الذى حكم عليه هذا الحكم القبيح ،
ولقد أصابته سكرة من الشح والهم ، فسأله سؤالاً مزيهاً : لم تغربت ونزلت عندي ، فأجابه لقول
رسول الله ﷺ : سَافَرُوا تَغْنَمُوا ، فبادر إليه يقول : تمام الحديث : صُومُوا تَصِحُّوا ، وكأنه
يطلب إليه أن يظل جائعاً بل أن يصوم ويظل صائماً ما ظل عنده . ويقول الغزى المتوفى سنة ٥٢٤
في هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه (١) :

رَأَيْتُ لَوْ مَا مَصُورًا جَسَدًا شَيْمُهُ الْاِحْتِيَالُ وَالْكَذِبُ
عَلَى سَرِيرٍ كَالْتَعْشِ لَا رَهَبُ يَعْلُوهُ مِنْ هَيْبَةٍ وَلَا رَغَبُ
يَجِبُهُ بِالْهَجَرِ مَنْ يَخَاطِبُهُ بَيْنَ السَّعَالِي وَبَيْنَهُ نَسَبُ (٢)
يَفْرُقُهُ النَّاسُ لِلْسَّفَاهَةِ وَالْعَقْرُبُ يُخْشَى وَخَدُّهُ تَرَبُّ
لِلْجَمْعِ وَالْمَنْعِ قَائِمٌ أَبَدًا كَالْفِيلِ لَا تَشْنِي لَهُ رُكْبُ

وهو هجاء لأذع كوى به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات في يد الغزى إلى ما يشبه
سياطاً بل شواظاً من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للؤم والكذب ، يجلس لاعلى سرير بل
على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب في ماله ، لما عُرف عنه من شحٍ بغيض ، وأنه يصلك مخاطبه
بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إن بينه وبين الغيلان نسيا ذمياً . والناس يخشونه
لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالفيل قائماً أبداً إذ لا ينام فعيناه
مشدودتان دائماً لجمع المال ومنعه عن مستحققيه شحاً بغيضاً لا يدانيه شح . وكان العرقلة الكلبي
المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم
لا مالا ، بل شعيراً فقال (٣) :

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

(٣) السعالي : الغيلان

يقولون لم أرخصت شعرك في الورى فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازى على الشعر الشعير وإنه كثير إذا استخلصته من بهائم

ومنذ زمن الغزى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من
ممدوحهم ، بل إن منهم من يعطيهم رقعا مسطرة دون أن يفي بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام .
ومن كبار الهجائين في أيام الأيوبيين بدر الدين عبيد الرحمن بن المسجف المتوفى سنة ٦٣٥
للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول (١) :

يا رب كيف بلوتني بعصابة ما فيهم فضل ولا إفضال
متناصري الأوصاف يصدق فيهم الـ هاجي وتكذب فيهم الآمال
جنبنا إذا استنجدتهم للممة لوما إذا استرفدتهم بجنال
هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمة آل وهم عند الشدائد آل

وهو يخلى عصابته من كل فضل ويراها جديرة بكل مذمة في مهجو إذ تكذب فيها دائما
الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جنباء عند الشدائد ، لؤماء بخلاء ، وهم في الرخاء أهل أو آل
كما يقول ، وفي الضراء سراب أو آل يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وولى السلطان
الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية : المذهب المالكي والحنفي
والشافعي والحنبلي ولقب ممثلي هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكي بلقب شمس الدين ، فاتخذ
الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكاهة الساخر . من مثل قول بعضهم (٢) :

أهل الشام استرابوا من كثرة الحكم
إذ هم جميعا شمس وحالهم في ظلام

وكان شرب الحشيش المخدر عُرف بين أراذل الناس بدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه ، وشدد
الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء في ذمه كقول الشاب
الظريف (٣) :

شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧

(١) فوات الوفيات ٥٣٩/١

(٢) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبي

ما للحشيشة فضلٌ عند آكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشْدِهِ
صفراءُ في وجهه خضراءُ في فيه حمراءُ في عينه سوداءُ في كبِدِهِ

وهو يقبِّحها غاية التقييح بآثارها في ماضئها من صفرة تعترى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد
لا يزول في كبده . ويقول مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة في هجاء كحل (١) :

دَعُوا الشيخ من كحل العيون فكفُّهُ يسوقُ إلى الطَّرَفِ الصحيحِ الدواهِيا
فكم ذهبتُ من ناظرٍ بسوادهِ وألقتُ يابضاً خلفها ومآقيا

فكبحه يعنى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقى بها بصيصا
ولا غير بصيص . ولبعض شعراء دمشق في هجاء القاضي شهاب الدين أحمد الباعوني الشافعي
المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة (٢) :

قضاء الشام أنشدني بديني لا تبيعوني
صِفْتُ بكلِّ مضلعةٍ وبعدَ الكلِّ باعوني

وكانه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية . وفي كلمة « باعوني » تورية واضحة
فهو لا يقصد « باعوني » من البيع وإنما يقصد القاضي الباعوني .

ويقال الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بهامه مَنْ لا يروقهم من الحكام ومن لا يسبغ عليهم
نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة في
بخيل (٣) :

بخيلٌ لو يومٍ منه جادت أناملُهُ لخالتهُ الندامةُ
ولو في النار ألقى ألفَ عامٍ لما عُرِفَتْ له يوما سلامةُ
ولو صارتْ بسفرتِه رغيفا دُكَّاءُ لما بدتْ حتى القيامةُ

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادما أبدا . وما تُرجى له سلامة من النار بل سيظل خالدًا
فيها ، وإن مائلته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديرة كالشمس

(٣) ربحانة الألبا ١٠٨/١

(١) فوات الوفيات ٥٤٠/١

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٤/١٤

ولو أنه ألقى رغيفا عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوبا وخجلا أن يرى شيئا على سفرته أو مائدته . وحرى بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء .

أبوفراس^(١) الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني التغلبي ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضي ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالقروسية والشجاعة ، واقترب برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبافراس وهي كنية الأسد رمزا لقروسيته المستقبلية وهو رمز حقيقته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو في سته الثالثة ، وعنت به أمه ، وأحضرت له المعلمين في صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم في العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبوفراس الذي كفله وقام على تربيته فارسا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المدربين يدربونه على القروسية ، ولبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت قروسيته ونجابته ، فنححه ضيعة بمنبج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه في حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالقي يقودها بنفسه ويعود إلى منبج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفي ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوقا بصيد الحيوان إنما كان مشغوقا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومر بنا في حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعي الهوى ، وقد عرضنا لميسته الملقبة بالشافية التي دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حاراً ، وتشيع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية .

وظل يركب في مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره للثق أعناق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب في إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه في حربه . وكان دائما يبلى بلاء حسنا في تقتيلهم وتمزيقهم شرمزق ، وفي يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع

لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة في مكبات العالمين العربي والغربي ووضع حواشيه ورتب فهرسه .

(١) انظر في أبي فراس وشعره آليمة ٢٥/١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحلب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والشتات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامي الدهان

غلمانه وإذا بكتيبة من الروم بقيادة « تيودور » تباغته فیدافع إلى أن تتخذه الجراح ويصيبه سهم في فخذه ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل المغوار ، ويقدم به تيودور إلى خرشنة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويدوق ذل الإسار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتوا وصلابة . ويكبر الروم في أبي فراس فروسيته وبطولته فينزله في قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه ، فيظل بهما في أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا في الإسراع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريد فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا في شراك الروم . وفي سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفي شهر رجب ينزل أبو فراس مع ثلاثة آلاف أسير عربي بخرشنة ، ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهازات متلاحقة . ويتوفي سيف الدولة في السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي ويلقاه مولاه قرغويه في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون في ذلك حقه ، ويقال إنه سقط جريحا في ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزيا قائلا في ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشَّابِ أَبُو فِرَا سِ لَمْ يَمُتْ بِالشَّابِ

وطبيعي أن لا يكون المديح الموضوع الذي يستنفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن في حاجة إلى التكسب بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذي يستغرق شعره : فخره بقبيلته تغلب وأجدادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمثاليته الخلقية الكريمة وبطولته . وتعد روميته أو أشعاره في أسر الروم القطع الأرجوانية في ديوانه ، وفيها غزل ورناء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كي يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعا لا يبقى منهم ولا يذر ، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على الدمستق حين طعن في العرب ويسألهم الحرية ، وفيها أخذ يذكره باندحاراتهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه في مرعش وجرح أبيه بها في

وجهه وأسر ابن أخته في اللّقان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو في روميّاته يحن إلى ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليّة وهي تسأل عنه الركبان حين أسر قائلاً على لسانها :

يَا مَنْ رَأَى لِي بِحَصْنِ خَرْشَنَةِ أَسَدٍ شَرَى فِي الْقِيُودِ أَرْجُلَهَا

ويرد عليها مسرعاً

يَا أُمَّتَا هَذِهِ مَوَارِدُنَا نَعْلُهَا تَارَةً وَنَنْهَلُهَا^(١)

فواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة من أقدامهم . ويقول في قصيدة ثانية : لولا أُمّي العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء من ابن عمي أبدا . ويقول لها :

يَا أُمَّتَا لَا تَيْأَسِي اللَّهُ الطَّافُ خَفِيَّةٌ
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيعِ لِي فَإِنَّ خَيْرَ الْوَصِيَّةِ

فهو واثق في الله ثقة تامة ، وهو لا ييأس أبداً من فضله ورعايته ، مع عزة نفس لا تماثلها عزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى في الأسر ونزولهم به في خَرْشَنَةِ ، إذ سرعان ما أنشد :

إِنْ زَرْتُ خَرْشَنَةَ أَسِيرًا فَلَقَدْ حَلَلْتُ بِهَا مُغِيرًا
وَلَنْ لَقِيتُ الْحَزْنَ فِي لِي فَقَدْ لَقِيتُ بِكَ السُّرُورَا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأنت عليها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً . ونشعر كأنما تجسدت في روح أبي فراس كل معاني القوة العاتية التي تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالي إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانيه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحاً لا يمكن أن تقهر مهما نزل بها من كوارث وخطوب .

وربما كان أروع قصائد أبي فراس حيث شد قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم إن

(١) نعلها : نشرها تباعاً . نهلها : نشرها ابتداءً

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحيبه .

أراك عَصِيَّ الدمع شيمتك الصَّبْرُ أما للهوى نَهَى عليك ولا أمر
بلى ! أنا مشتاقٌ وعندى لوعةٌ ولكنْ مثلى لا يُذاع له سرُّ
معلّتى بالوصل والموتُ دونه إذا متُّ ظمآنًا فلا نزل القَطَرُ
تسألنى مَنْ أنت ؟ وهى عليمَةٌ وهل بفتى مثلى على حاله نُكْرُ
فقلتُ كما شئتُ وشاء لها الهوى قتيلك قالت أيهم فهم كُثْرُ
وقالت لقد أزرى بك الدهرُ بعدنا فقلتُ معاذَ الله بل أنتِ والدهرُ

وهو حوار وغزل فيها فتوة وقوة ، فهو لا يبكى ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستعر فى قلبه من لوعة إزاء معلته بوصل لا يناله ، وكأنما تغير كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيلك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدهر ، يكنى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدهر . ويمضى فى حوارها قائلاً لها : لا تنكرينى يا ابنة العم فإننى غير منكر فى معبعان المعارك وقيادة الكتائب المعودة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترًا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصيح بكل فتوته :

أسيرتُ وما صحبى بعُزْلٍ لدى الوغى ولا فرسى مُهَرٌّ ولا رَبُّهُ غَمْرٌ (١)
ولكنْ إذا حُمَّ القضاء على امرئٍ فليس له بَرٌّ يقيه ولا بَحْرٌ
يَمْنُونُ أَنْ خَلُّوا ثيابى وإنما على ثيابٍ من دماهم حُمْرُ
سيدكرنى قومي إذا جدَّ جدُّهم وفى الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البَدْرُ
ونحنُ أناسٌ لا توسط بيننا لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القَبْرُ
تهونُ علينا فى المعالى نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يُغْلِه المَهْرُ
أعزُّ بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا وأكرمُ مَنْ فوق الترابِ ولا فخرُ

يقول : أسيرت وورائى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبدا ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحا

أبطال ، وما أُسرتُ جينا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذي لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه في بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَنُّوا عليه بتركه لابسا لأمته وعدته الحرية ، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعده استشعار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دقَّ نصال سيوفه في أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه في الأعداء . وكأنما يضع قوانين الشباب العربي والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها في أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليلذلون أرواحهم في نيل المعالي ، ومن خطب الحسنة لم يغله المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثُلنا : نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا . والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهي جديرة بأن يضمَّها كل شاب عربي إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاته - وهو في سجنه - إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحتُ بقربي حمامةً	أيا جارتا هل تشعُرين بحالي
معاذَ الهوى ما ذُقتِ طارقةَ النوى	ولا خَطَرْتُ منك الهمومُ ببالٍ ^(١)
أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمُ	على غُصْنٍ نائي المسافةِ عالي ^(٢)
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا	تعالَى أقاسمُك الهمومَ تعالي
أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ	ويسكت محزونٌ ويندبُ سالي
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مُقلَّةٌ	ولكنَّ دمعِي في الحوادثِ غالي

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجون في نفسه ، ويُعيدها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغربته وهموم كهومومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينهما ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حريته وتبكي حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمة ، غير أن دمعِي في الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا ، وإنه ليتجشَّم أثقالها ويتحملها في قوة . وشعر أي فراس وراء رومياته يكتظ بالفخر

والحماسة ، وله قصيدة رائية في ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطرا بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم في الإسلام وما شادوه من إماراتهم في الموصل وحلب . وشعره - بحق - يُضرم الحمية في النفس العربية .

عرقلة^(١)

هو حسان بن نمير الكلبي الدمشقي ، ولد سنة ٤٨٦ وحفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فغدا بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طغتكين نصيب كبير من مديحه ، وخاصة أبق آخر حكامهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محبة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه في تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل في قلعة جعبر ومدينتي آمد وماردين . وزار مصر وبقي بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من المدائح ، ويذكر له في إحدى مدائحها أنه شيعي قائلا :

أنا من شيعة الإمام حسين لست من سنة الإمام يزيد
فهو ليس سنيا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعي من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذي وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين في مقدمة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم في مجالس لهوهم وسميرهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُخضره مجالس أنسه . ووصفه العماد الأصمباني حيثذ فقال : « لقيته بدمشق شيخا خليعا ربعة مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشر الأُمراء ، شاعرا مستطرف الهجاء ، لم يزل خصيصا بالأمراء السادة بني أيوب ينادهم ويداعيمهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نتفه ، وله فيه

والشذرات ٢٢٠/٤ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

(١) انظر في عرقلة الدمشقي وشعره الخريدة (قسم الشام) ١٧٨/١ وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦٤/٦

مدائح ، ولديه منه منائح . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ،
ووفى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧ .
ويبدو أن عرقلة كان في أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا .
فغضب ، وأنشد ما مر ذكره من قوله :

يقولون : لِمَ أرخصتَ شعرك في الوري فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أجازي على الشَّعرِ الشَّعيرَ وإنَّهُ كثيرٌ إذا استخلصته من بهائمِ
واشتهر في زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد - كما أسلفنا - إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان
يحاول فيه التندير لإضحاك السامع وجلبا لسروره ، كقوله في مغن ضارب على العود لم يعجبه
صوته ولا ضربه وتلحينه :

على	صَوْتُهُ	سَوَطُ	علينا	لا على	الفرس
وجملهُ	ضربه	ضربُ	لمدَّرعٍ	ومُـ	تُـرس
يقول	السامعون	له	رماه	الله	بالخرس
ونُحْدُ	ياربُّ	مهجته	إذا غنى :	(خُذِي	نَفْسِي)

فهو لا يجعل صوته يصلكُ الأسماع فحسب ، بل يجعله يكوها كي البساط للخيال ، أما ضربه
فكأنه ضرب حقيق يضرب به دروعا وتروسا لا ألحانا تُشجى السامعين وتطربهم ، مما يجعلهم
يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدفة يغنى مقطوعة أولها : « خُذِي
نَفْسِي » . ويقول لبعض مهجويه :

لك	وجهُ	كأنهُ	الـ	بَدُرُ	لكنُ	إذا	كُـسِفُ
وقوامُ	كأنهُ	الـ	عُصْنُ	لكنُ	إذا	انقَصَفُ	
وبنانُ	كأنه	الـ	بحر	لكنُ	إذا	نَشِفُ	
وأبُ	أكذبُ	الأنـا	مـ	ولكنُ	إذا	حَلَفُ	

وهو في الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يحوّه بل أن يرده عليه هجاء .
واقذاعا شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقتر بأى خير ،

أما أبوه فكذاب أشر . وكان بدمشق في زمنه طيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع ليلا فانشتر جفنٌ إحدى عينيه ، وكان هذا الطيب كثيرا ما يرثى من يموت فقال عرقلة متندرا عليه :

لنا طيبٌ شاعرٌ أَشْتَرُّ أراحنا من شخصه الله
ما عادَ في صُبْحَةٍ يومٍ فَتَى إلا وفي باقيه رثاء

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكتب له قصيدة رثاء مساء . فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه . وكان يُقذع أحيانا في هجائه ، حتى في الموت . ويقول في رثاء بعض خصومه :

لقد حَسُنَتْ به اليومَ المرائي كما حَسُنَتْ به أمس الأهاجي
ولكنْ لَجَّ في شَتْمِ البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللجاج

وهي شماتة تدل على أنه كان عدواني المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض المجان ، يقول فيه إن دنان الخمر وكثوسها وقيانها المغنيات يبكيه بكاء مرا .

أسامة^(١) بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي ، من أعلام بني منقذ أصحاب قلعة شيزر إلى الشمال من حماة ومن علمائهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عني بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا ، ولقى - وهو شاب - في صيده أسدا فصرعه . ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبني أسامة وأخذ يعبئه للإمارة بعده . وكان اسم عماد الدين زنكي قد أخذ في التآلق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا في حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شيزر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعا مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين . وبمقدار فرحه

(١) انظر في أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٠/٢ ومعجم الأدباء ١٨٨/٥ والخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزءين الخامس والسادس في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقرئزي ١٢٥/١

والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ وملكة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وطبع له في القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفي في العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث في مسقط رأسه لحمايته غير أن عمه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، ففرقوا في البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق ولقيه حاكمها معين الدين أنرمدير دولة أولاد طُغَتَكِين لقاء حسنا ، وظل الجوينيها صافيا حتى سنة ٥٣٩هـ . إذ اكفهر الجو ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمي حينئذ الحافظ (٥٣٤ - ٥٤٤ هـ) فأكرمه وأمر له بإقطاع سنٍّ عاش به حياة رَغْدَة .

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سَلَّار لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجي ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولَّى الفائز بن الظافر الخلافة وهو صبي يحبو في الخامسة من عمره ، وكاتب أهل القصر طلائع بن رُزَيْك الوالي بالصعيد ، فقدم في جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرت أخت الظافر ، فكتبت إلى حملة الصليب بعسقلان - وكانوا قد استولوا عليها حديثا - تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة - الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فقتل عباس ، وُردَّ نصر إلى القاهرة ، وفرَّ أسامة في نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذي استولى عليها في سنة قدومه سنة ٥٤٩ هـ ، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب في مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، وتجمشت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم في نفس أسامة .

ونزلت بأسامة في سنة ٥٥٢ هـ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شَيْزَر وأتت عليها ونزع عنها أهله وتشتوا في البلاد ، وتملكها نور الدين خشية عليها من حملة الصليب ، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهدوا له فكلُّ على الخيرات منكش
أيامه مثلُ شهر الصوم طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوَّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، وأما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أخذت قهراً من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربي رُدَّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين في بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدته موجدته - في رأينا - من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفًا بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولَبَّاه مبتهجا ، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له في مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لَبَّى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما .

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرد للجهاد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارسا شجاعا ، وشارك في حرب حملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه ، وجلَّى في معارك عماد الدين زنكي ضدهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه في وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماةَ إلى أن شَبْتُ فيها وخيرُ الخيل ما قَرَحَا (١)
أنخوضها كشهابِ القذْفِ مبتسا طَلَقَ الحَيَّا وَوَجَّهُ الموت قد كَلَحَا (٢)
بصارمٍ من رآه في قَتَامٍ وَغَى أفرى به الهامَ ظن البرقَ قد لَحَا (٣)
فَسَلْ كُماةَ الوَغَى عني لتعلم كم كربٍ كَشَفْتُ وكم ضيقٍ بِي انْفَسَحَا

فهو قد نازل كُماة الحرب أو شجعانها منذ سنته الخامسة عشرة ، وظل ينازلهم حتى اشتعل رأسه شيئا لا يهن ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنّها وتصبح قارحة مستمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسم الثغر متهلل الوجه وقد كشر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ ليلَمع في غبار الحرب - وهو يَحْطِمُ به الرؤوس خطما - كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم في الحرب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله في تنكيله بحملة الصليب في غير موقعة :

(١) الكُماة : الشجعان . قرح الفرس : بلغ الخامسة

(٣) قَتَامٍ وَغَى : غبار حرب . أفرى الهام : أشق

الرؤوس

من عمره

(٢) طَلَقَ الحَيَّا : مستبشر الوجه . كَلَحَ : عبس

كم قد أبدت بسيفي كل مفتخر حامى الحقيقة يوم الجحفل اللجب^(١)
 وكم تركت بنى الإفرنج في رعب فصرت أذعى لديهم جالب الرعب
 وكم جرت إليهم جحفا لجبا بالسابرية والماذي واليلب^(٢)

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حتى أهله يوم
 النزال الطاحن . ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب في قلوب حملة الصليب حتى سموه - جزعا -
 جالب الرعب ، وكم قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم . ويقول :

سل بي كماء الوغى في كل معترك يضيق بالنفس فيه صدر ذى الباس
 ينبشوك بأني في مضايقتها ثبت إذا الخوف هز الشاهق الرأس

فهو يحلّى في المعارك حامية الوطيس التى تبلغ فيها الروح الحلقوم ويرى الكماء فيها الموت
 نصب أعينهم ، فإنه حينئذ يشق الجاجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز
 الخوف والفرع الجبال الرواسى من الكماء العتاة .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفاخرها معددا لانتصارات البطل على حملة
 الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
 جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ولم يلهنا عنه السماع ولا الحمر
 بنا أيد الإسلام وازداد عزة وذل لنا من بعد عزته الكفر
 بنا استرجع الله البلاد وأمن ال عباد فلا خوف عليهم ولا قهر

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر في ذلك قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استرجع كثير من
 بلاد الشام وأمن فيها الناس ، ووضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد
 الإسلام عزة . ونور الدين - بلاون ريب - هو الذى هيا لأصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته
 المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمة لأظافرهم . ويقول أسامة حين أقعدته
 سنوات السبعون عن الاشتراك فى نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل (٢) السابرية : الدرع المحكمة النسيج . الماذي :
 اللجب : الجيش الكثيف كثير الضجيج السلاح . اليلب . الترس .

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلاى والسبعون قد أوهنت قواى عن سعى إلى الحرب
وكنت إن ثوب داعى الوغى لبئته بالطعن والضرب^(١)
أشق بالسيف دجى نفعها شق الدياجى مرسل الشهب^(٢)
أنزل الأقران يردىهم من قبل ضرى هامهم رعى^(٣)

فقد وهن عظمه وضعفت مثته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضى فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعى للحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرؤوس فى مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن^(٤) عتّين

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عتّين ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل أجداده الأولون الكوفة ، وتركها أسرته إلى زرع فى حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده الأقربين واستقر فى دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان منزله جنوبى الجامع الأموى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفى مقدمتهم الحافظ أبو القاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء ، ربما كان عدوانيا بطبعه ، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة ، وأن أباه لم ينشئه على حب الخير والشعور بالمرءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى ، وقد صرح بذلك فى بعض شعره قائلا فيه :

وجئني أن أفعل الخير والد ضئيل إذا ما عُدَّ أهل المناسب

(١) ثوب : دعا

(٢) النقع : غبار الحرب

(٣) يردىهم : يهلكهم

(٤) انظر فى ابن عتّين وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم

الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٣٨

والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى

٢٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ ومفرج الكروب لابن واصل

٢٨٦/٢ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققة الخليل

مردم (نشر دار صادر بيروت) .

بِعَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ قَرِيبٌ مِنَ الْخَنَا وَضِيعٌ مَسَاعِي الْخَيْرِ جَمُّ الْمَعَايِبِ
إِذَا رَمَتْ أَنْ أَسْمُو صَعُودًا إِلَى الْعَلَا غَدَا عِرْقُهُ نَحْوَ الدَّيْنَةِ جَاذِبِي

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لضعة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبي البطل المغوار الذي أذلَّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره . هذا البطل الذي احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين في العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضي الفاضل وكتابه عماد الدين الأصبهاني وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سَلْطَانُنَا أَعْرَجٌ وَكَاتِبُهُ ذُو عَمَشٍ وَالْوَزِيرُ مُنْخَلِبٌ

وكان القاضي الفاضل أحمق وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عنين في دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض ، وضعَّ الناس من لسانه وهتانه ، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، فمضى على وجهه يحوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتَكِين (٥٧٧ - ٥٩٣ هـ) . فوفد عليه ، وقدم إليه مدائح فلقبه لقاء كريما وخفَّ على قلبه فاتخذته نديما ، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه ، حتى أثرى ، وكثر في يده المال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر في العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التي يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت في أيام نيابته عن أبيه أو في أيام سلطنته ، وهو فيها يهجوهُ بالشحِّ بينما يمدح عمَّهُ العزيز طغتكين بالكرم ، يقول :

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّى بِالْعَزِيزِ لَهُ فَضْلٌ وَلَا كُلُّ بَرِّقٍ سَحْبَةٌ غَدِيقَةٌ (١)
بَيْنَ الْعَزِيزِينَ بَوْنٌ فِي فَعَالِهَا هَذَاكَ يُعْطَى وَهَذَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ

(١) غدقة : غزيره المطر .

وهو هجاء لاذع للعزیز عثمان إذ يجعله - لشدة شحه - شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزیز طغتكین سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها ، يقول ابن خلکان : « اتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يحرق بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت شرف الدين بن عین فاحتفلوا به وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش » . وتوفي العزیز عثمان سنة ٥٩٥ وتولى بعده أخوه الأفضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين في مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى . وحن ابن عین إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له في العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧ - ٦٢٤ هـ) بمدحه ، وقربه منه واتخذته بأخرة من أيامه وزيراً له ، حتى إذا توفي رثاه رثاء حاراً . وأبقى له منزله . ابنه داود (٦٢٤ - ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفي سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاماً .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر ابن عین في كتب التاريخ والأدب . وهو في مقدمة شعراء دمشق بزمنه إن لم يكن سابقهم المجلى ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال في الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفية - كما مر بنا - عن دمشق ، وحتى من أكرمه كان يهجوهم غير مراعاة فيهم إلاً ولاذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعرض أيديهم التي امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذي فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سلطاننا الذي نرتجيه واسعُ المال ضيقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكن قاطعٌ للرسوم والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأنقذه من تشته وضياعه في البلاد وردّه إلى دمشق حيية قلبه ومهوى فتاده التي طالما تغنى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاه بالهجاء . وحقاً له فيه مدائح رائعه ، ولكن كان ينبغي أن يرد شيطان هجائه عن الإلزام بساحته . وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراماً إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها بن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية :

أرى ابن عُنَيْنٍ والبها مذ تولّيا على الناس ولّى الخير عن كل مُسلم
فوالله ياعيسى بمن شئتَ منها لُعِنْتَ ولو كنت المسيح بن مريم

وحقاً هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يعفيه من قسسه له بأنه لُعِن لتوليته هو وصاحبه . وهجا نفسه في ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الخطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضا فإنه استعار منه - كما مرّ بنا - هجاءه لأبيه . وأهداه طيب عيون - أو كما كانوا يقولون كحال - خروفاً هزيلة جدا فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها :

أتاني خروفٌ ما شككتُ بأنه حليفٌ هوى قد شفه الهجر والعذل
إذا قام في شمس الظهيرة خلته خيالا سرى في ظلمة ماله ظل
فناشدته ما تشهى قال قته وقاسمته ما شفه قال لي الأكل
وظلّ يراعيها بعينٍ ضعيفة وينشدها والدمع في الحدّ منهل
أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصلي حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابي وضعه بدقة في موضعه من القطعة ، وقد جعل الحروف الهزيلة نضو عشق شفه الهجر واللوم ، ويقول كأنه خيال في ظلام ليس له ظل ، وهي صورة بديعة ويستحلفه ما يشتهى فيقول قته أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعيها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أتته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه فروحه في الحلقوم .

ويعصور ابن عنين بخيلاً شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجراً متبرماً ، متمنيا أن لا تتكرر هذه الدعوة أبداً ، ومُدّت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عنين حينئذ قائلاً :

عهدي به واليدُ اليمنى يكفُّ بها غربَ المدامِ والأخرى على الكبدِ
يقول للخبز : لا يبعد مَدَاكَ ولا أخنى عليك الذي أخنى على لُبْدِ

ولبد آخر نسور لقمان في قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يستر غرب دمه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتي الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسي ويزعم أنه صُفِعَ وأنه معتاد الصنم دائما يقول :

تعجّب قومٌ لصَفْعِ الرشيدِ وذلك مازال من دابِهِ
رحمتُ انكسارِ قلوبِ النّعالِ وقد دَنَسوها بأثوابِهِ
فوالله ما صَفَعوه بها ولكنهم صَفَعوها به

وله أهاج كثيرة في القاضي الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل في بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لا لفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

ابن^(١) النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبي المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه في البلدان الشامية والمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة في صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بدّل محاسنه وزهده في الحياة . ونراه في شعره -يرثى تلك الأيام أسفا محزوناً ، ويقال إنه تزيّى بزى الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أدباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون في نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذي تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أدباؤها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفي سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المحبي في كتابه : نفحة الريحانة : « أنا لا أجد عبارة تفي في حقه بالمدح ، فأرسلت اليراع وما يأتي به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره في آذان الزمان ، وساحر إذا أُشريتُ كلماته العقول استغنت عن الكئوس والندمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين ، وشعره استنفده في المديح ، ويكثر في مقدماته من الغزل ، وقد يفرع إلى الفخر بمثل قوله :

(١) انظر في ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الريحانة ٥٠٧/٢
ودبوان ابن النحاس مطبوع قديما في بيروت بالمطبعة الأنسية .

ألا إن لي نفسَ الوقورِ وعَفَّةَ الـ تقديرِ وقلبي في المهماتِ قَلْبُ
وما كلُّ معسولٍ اللَّمَى يستفزُّني ولا كلُّ مطلوبٍ لَدَى حَبِّبٍ (١)
وأحتملُ المكروهَ ممن يملُّني ولم ألوَّ جِدَّةَ الودِّ عمن ينكِّبُ
إذا أنا لم أدفعَ عن النفسِ ضيِّمَهَا فلا انجأب عنها من دُجَا الضَّيِّمِ غَيْهَبُ
ولا وَطِئْتُ خَدَّ الفياثي ركائبي ولا سألَ حَزْنَ بالمطىِّ وسَبَسَبُهُ

وهو يقول عن نفسه إنه وقور عفيف قلب يحتال في قوة للأمور ، ولا يستشير جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه ، ولا ينصرف عمن يُعرض عنه من الأوداء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاء المظلم ، وأن تهن قواه فلا تطأ الفياثي ركائبه ولا يسيل بها حزن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يادهرُ مثلي لا يُقَدُّ قَلُّ عن سَنامِ المجدِ جَنَّةُ
أنا لا أبالي إن رُميتُ سَبُّ وسبِّ عِرْضِي مَنْ أَسْبَهُ
العينُ يدميها الذُّبَابُ بُ وَيُعْجِزُ الآسَادَ ذَبَّهُ
والثَّبرُ يعلوه الثُّرَا بُ وفضله باقٍ ولُّبُهُ
تكفى فتي العِرْفانِ خِ لَأَنَا فضائله وَكُتِبُهُ
وارقبْ خُفُوقِي إن سَكَدَ سَبُّ فعاصفي يُرْجَى مَهَبُهُ
والبدرُ يشرق في المطا لَع بعد ما أخفاه غَرَبُهُ
والروضُ يذبل ثم تُك سَى النُّورَ والأوراقَ قُضْبُهُ

وهو يقول للدهر إن شيئاً لا يستطيع أن يزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمى ، ولا يهيمه ما قد يلقي عليه من أذى السب والشتم ، مثله في ذلك مثل العين يدميها الذباب وحقى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل الثبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لخصمه : ترقب حركتي ، فإني كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلي إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تم أضواؤه الآفاق ، أو كمثل الروض تذبل

(١) اللمى : سمرة حسنة في الشفة

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبله؟ والمجدُّ ياباه فيَّ والحسبُ
والشمسُ صَوْنًا لضوء طلعتها قبل لحاقِ الظلام تحتجبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آباه وعشيرته يستدير من حوله هالة منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخي الليل سدوله على الآفاق .

٣

شعراء المراثي والشكوى

المراثى قديمة في الشام منذ عصر بني أمية فقلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثانى تشارك الشام بقوة في الشعر العربى ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقى أن يحمل راية الشعر وزعامته لا في الشام وحدها بل أيضا في العالم العربى جميعه ، وتحتل المراثى بابا كبيرا في ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحترى المنبجى الحلبى المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا في شعره . ونلتقى في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات يكشاجم . وله رثاء في أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيها رثاء أبى فراس لأمه حين جاءه نعيها في أسر الروم ، فأحس في عمق بفجيعة فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة . وله مراثية بديعة في أخت له يقول فيها^(١) :

أتزعم أنك خدُنْ الوفاء	وقد حَجَبَ التُّرْبُ من قد حجبُ
فإن كنت تصدقُ فما تقولُ	فمُتْ قبل موتك مع من تُحبُ
وكنْتُ أقيكُ إلى أنْ رمتكُ	يَدُ الدَّهر من حيث لا أحتسبُ
فلا سلمت مقلَّة لم تُسحَّ	ولا بقيت لِمَّة لم تُشِبْ
ولو رُدَّ بالرزء ما تستحقُّ	لما كان لى فى حياى أربُ

وهو يمتنى لو غُيب التراب مع شقيقته وصَوَّروحه حيا لها ووقاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنة التي أصابتها في الصميم تحت بصره ، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمة ويتمنى أن لا يتوقف انبهارها ، لعلها تشقى غلة نفسه وحرقة قواده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخيه الحياة لما كان له في حياته أرب ولتلتئم روحه فداء لها .

ولأبي العلاء مرثية رائعة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق ، ويقول في مطلعها إنه سمع بدهية أصمت أذنه وصكت سمعه ، ويأسى أن تتقدمه إلى الموت ، ويُعظم أن يرثيها بلقظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجد أضراره فضلا عن مقدم أسنانه ، وينشد^(١) :

وَمَنْ لِي أَنْ أَصَوِّغَ الثَّهْبَ شِعْرًا قَالِيسَ قَبْرَهَا سِنَطَى نِظَامِ
مَضَتْ وَقَدْ اكْتَهَلْتُ وَخَلْتُ أَتَى رَضِيعٌ مَا بَلَغْتُ مَدَى الْفِطَامِ
فِيَارْكَبَ الْمَثُونِ أَمَا رَسُولٌ يَبْلُغُ رَوْحَهَا أَرْجَ السَّلَامِ
ذَكِيًّا يُصْحَبُ الْكَافُورُ مِنْهُ بِمَثَلِ الْمِسْكِ مَفْضُوضَ الْخَتَامِ

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزين جدتها الطاهر ، ويحس في عمق - وهو في سن الكهولة - كأن السنوات الطويلة التي فصلته عن صدر أمه من القصر ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه ، وهو في حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أى ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا يتشرأرجه من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له^(٢) :

بِرَغْمِي أَنْ أَعْتَفَ فَيْكَ دَهْرًا قَلِيلًا فَكْرُهُ بِمَعْنَفِيهِ
وَأَنْ أَرْعَى النُّجُومَ وَلَسْتُ فِيهَا وَأَنْ أَطَّأَ التُّرَابَ وَأَنْتَ فِيهِ

ويقول الباخريزي تعليقا على اليتين : « هذا أرق ما يكون في المراثي ، إذ يكاد يفجر عيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار » .

وتتشب الحروب الصليبية ، وفي بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قول بن عثمان ، فيقتله الصليبيون ، ويبيكه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله^(١) :

يَا لِّلرَّجَالِ لَنَازِلٍ لَّمْ يُحْتَسَبْ وَلِحَادِثٍ مَا كَانَ بِالْمَتَوَقَّعِ
تَاللَّهِ مَا جَارَ الزَّمَانُ وَلَا اعْتَدَى بِأَشَدِّ مِنْ هَذَا الْمَصَابِ وَأَوْجَعِ
يَا قَوْلُ قَوْلَةَ مُكَمِّدٍ مُسْتَنْزِرٍ مَاءَ الشُّثُونِ لَهُ وَنَارَ الْأَضْلَعِ
أَشْكُو إِلَى الْأَيَّامِ فِيكَ رَزِيَّتِي لَوْ تَسْمَعُ الْأَيَّامُ شَكْوَى مَوْجَعِ
صُلِّ بَعْدَهَا يَادَهْرُ أَوْ فَاكُفُّفْ وَخُذْ مَنْ شَتَّ يَاصْرَفْ الْمَنِيَّةَ أَوْدَعِ

وهي مرثية رائعة تمتلئ بأبيات تصور لوعات الدمشقيين في هذا البطل وكرامتهم وفجيعتهم التي لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقل الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة في الصدور كمداً عليه ، وليُنزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أوفليكف ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أوكارثة .

وتوفي نور الدين محمود سنة ٥٧٠ هـ فاهتز الشام لفقده هزة شدة ، وفي رثائه يقول العماد الأصمباني في إحدى مرثيته^(٢) :

يَا مَلِكًا أَيَّامُهُ لَمْ تَزَلْ لِفَضْلِهِ فَاضِلَةٌ فَآخِرُهُ
غَاصَتْ بِحَارُ الْجُودِ مَذْغِيَّتْ أَنْمُلُكَ الْفَائِضَةُ الزَّآخِرُهُ
مَلَكْتَ دُنْيَاكَ وَخَلَّفْتَهَا وَسَرْتَ حَتَّى تَمْلِكَ الْآخِرَةَ

وتوفي بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ هـ رنة حزن عميقة في جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته ، وقد أزاح الصليبيون عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفي مقدمتهم عماد الدين الأصمباني ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامي ، وفيها يقول^(٣) :

أَيْنَ الَّذِي شَرَّفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ وَسَمَتْ عَلَى الْفَضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ

(١) دبران ابن الخياط ص ٢١٣ والخريدة بداية

بالقاهرة (١/٢٢٨) .

شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٣) انظر نهاية كتاب البرق الشامي للعماد والروضتين

٢١٥/٢ والنجوم الزاهرة ٦/٦٠

(٢) الروضتين لأبي شامة (طبع مطبعة وادي النيل

لا تحسبوه ماتَ شخصا واحداً قد عمَّ كلَّ العالمين مماته
لو كان في عصر النبيِّ لأُنزلتْ في ذِكْرِهِ من ذكره آياته
ياراعياً للدين حين تمكنتُ منه الذئابُ وأسلمته رُعائه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائماً رِضوانُ رَبِّ العرشِ بل صلواته

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها في حديثنا عن السياسة بالشام
ومصر ، حماية جعلته في الذروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عمَّره من المدارس والمساجد في
كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليهما من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يخلف ملكا
ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولةً أحنى لها حملة الصليب رءوسهم .
ولا يكاد يتوفى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء ، من
ذلك قول الشهاب محمود في ابن صَصْرَى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣
للهجرة ^(١) :

قاضى القضاة وَمَنْ حَوَى رُبُّبًا سَمَتْ عَنْ أَنْ تُسَامَ سَنًا وَبَزَتْ مَنْ سَعَى
شيخُ الشيوخ العارفين وَمَنْ رَقَى رُتَبَ السلوكِ تعبُّداً وتورُّعا
حاوى العلوم بما تفرَّق في الورى إلا الذى منها إليه تجمعا

وطبعي أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقہ بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان
يجمع بين الحسينين : المعرفة بالمنقول والبراعة في المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس
وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسنى الحلبي المتوفى سنة
١٠٥٦ في رثاء أخيه ^(٢) :

رُزْءُ أَلَمٍ وحسرةٌ تَتَوَالى ومصيبةٌ قد جَدَّتِ الآمالا
وفراقُ أَلْفٍ إن أردتُ تصبِّرا عنه أردتُ من الزمان محالا
كنا كعُصْنَى دَوْحَةٍ قطع الردى منها الأغصنُ الأَرْطَبَ الميالا
أو كاليدِينِ لذاتِ شَخْصٍ واحدٍ كان اليمينَ لها وكنتُ شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والمدوحين والناس مشدودا في أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٢٢/٩

(٢) نفحة الرحانة للمعجبى ٥٣٩/٢

يلحّون عليه نوائب الدهر وتغافل الممدوحين ويؤس حظوظهم في دنياهم وما يتجرعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما يلون في الناس من الطمع والحمد والأثانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء ، وعلا النفوس شقاء وعتاء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس (١) :

أراني وقومي فرقتنا مذاهبُ وإن جمعتنا في الأصول المتاسبُ
فأقصاهم أقصاهم من مساعي وأقربهم مما كرهت الأقاربُ
غريبُ وأهلي حيثما كرت ناظري وحيدٌ وحولي من رجال عصابُ
وأعظم أعداء الرجال ثقائها وأهون من عاديته من تحاربُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله ، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يحبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يجعله يشعر في عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصاباته ، وهو له ذلك ويقلقه ويفزع . ولأنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك ، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أعدى أعدائك ، أما العدو الحقيقي فأنت تعالته العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائما متى شره وحياته وغلره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله (٢) :

يادَهرُ يامنجزَ إيعاده ومخلفَ اللأمولِ من وعده
أىُّ جديدٍ لك لم تبله وأىُّ أقرانك لم تُرده
تستأثر العقبان في جوها وتُسرل الأعصم من قتله (٣)
إن زمانى برزاياه لى صيرنى أَمْرَحُ فى قِده (٤)
أفضلُ ما فى النفس يَغْتالها فتستعيد الله من جُده
وربُّ ظمآنٍ إلى موردٍ واللوتُ لو يعلم فى ورده

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإيعاد والإنذار بالشُرور والخطوب ، ويخلف دائما

(١) ديوان أبي فراس ٢٠/٢

(٣) الأعصم : اللوعلى - الفتد : قفة الجبل

(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢

(٤) الفتد : ما يبق من الجلد ويُشد به الأسير

الوعد بالخيرات والطيبات ، وإنه لياتي دائما على كل جديد وكل قرن يدعى أنه يماثله في القوة أو الشجاعة ، فالكل أسراه : العقبان في أجوائها العليا والعُصم أو الوعول في أعالي الجبال ، فلا أحد ينجو من صولته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قِداً أو قيداً له ولحياته ، وصار من طول ألقته لها يستحبها ويمرح فيها . ويعجب أن يكون أفضل ما في النفس من حواس البصر والسمع وغيرها يغتاله أو يهلكه ما سلط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعيز من شرها ، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ^(١) :

حذرتني تجاربي صُحبة العا لم حتى كرهتُ صحبة ظلي
ليس فيهم خلُّ إذا ناب خطبٌ قلتُ مالى لدفعه غيرُ خلي
كلهم يبدلُ الودادَ لدى اليُسْرِ ولكنهم عِدَى للمقلِّ
فاعتزلهم ففى انفرادك منهم راحة اليأس من حذارٍ وذلِّ

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يميّتهم ويمقت كل ما في العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفاً أن يكون فيه ما في الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس في الناس خل صادق العهد في النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك ، إنما يعرفك في اليُسْرِ ، أما في العسر فلا يودك ولا يعرف لك طَوْلاً ولا فضلاً ولا يسدُّ لك ثلثة ولا يقدم لك عوناً ، فاعتزل الناس وأياس من أن يردوا لك معروفاً أو جميلاً تعيش آمناً عزيزاً . ويقول ابن عَنِين في التَّشَوُّق إلى دمشق بعد أن ظل منفياً عنها طويلاً شاكياً محزوناً لغربته وما لقي فيها من ضنك العيش بعد أن طَوَّف في العراق وإيران وخراسان والهند واليمن^(٢) :

فَسَقَى دِمَشْقَ وَوَادِيَّهَا وَالْحِمَى متواصلُ الإرعادِ مُنْقَصُ العرى
فَارَقْتُهَا لَا عَنْ رِضَى وَهَجَرْتُهَا لَا عَنْ قِلَى وَرَحَلْتُ لَا مَتَخِيئاً
أَسْعَى لِرِزْقٍ فِي الْبِلَادِ مَشْتَتٍ وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَكُونَ مَقْتَرَا
لَا عِشْتِي تَصْفُو وَلَا رَسْمُ الْهَوَى يَعْقُو وَلَا جَفْنِي يَصَافِحُهُ الْكَرَى

فهو يدعو لدمشق - وكان يكثر من الحنين إليها - أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد .

(٢) ديوان ابن عَنِين ص ٤

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٢٥/١

أو الإمطار ، منقصم العرى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقتها قسرا ، وهو إنما فارقتها لهجوه أهلها وإفحاشه في هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسد رمقه ، فرزقه دائما مقترأ أو قليل ، وعيشته دائما نكدة ، وهواه معلق دائما بدمشق ودائما مسهد لا يلم بحفونه الكرى أو النوم لما ملكت عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما يتزلون القاهرة في عهد الأيوبيين والمماليك ويحتنون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمناظر وطنهم ومشاهده الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حجة الحموى صاحب خزانة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولى عدة وظائف لعهدده ، ويقول متشوقا إلى بلدته حمة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله (١) :

ياساكى مَعْنَى حَمَاةً وَحَقَّكُمْ من بعدكم ماذقتُ عيشًا طَيِّبًا
أَرْضُ رَضَعْتُ بِهَا ثُدَيَّ شَيْبَتِي ومزجتُ لَدَائِي بِكَاسَاتِ الصَّبَا
وَقَدْ التَفْتُ إِلَيْكَ يَادَهْرِي بَطُو لَ تَعْبِي وَيَحِقُّ لِي أَنْ أُعْتَبَا
قَرَّرْتُ لِي طَوْلَ الشَّتَاتِ وَظِيفَةً وجعلتُ دَمْعِي فِي الْخُدُودِ مَرْتَبَا

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه في حمة مسقط رأسه ، ويعاتب الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول تشته بعيدا عن قره عينه ، وإنه ليبكيها بدموع غزار . ولذلك عاد إلى حمة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا (٢) :

قَدْ صَرْتُ أَحْتَرَزُ الْأَنَامَ وَغَدَرَهُمْ إِنَّ الطَّيِّبَ يَخَافُ مَسَّ الدَّاءِ
وَقَطَعْتُ بِالْيَأْسِ الرَّجَاءَ لَدَيْهِمْ وَالْيَأْسُ يَجْدَعُ أَنْفَ كُلِّ رَجَاءٍ
وَلَطَالَمَا أَصْفَيْتُ قَبْلَكَ خُلَّتِي مِنْ لَا أَرَاهُ مُوَافِقًا لِإِخَائِي
وَبَلَوْتُ مِنْهُ وَدَّهَ فَرَأَيْتُهُ مَتَلَوْنَا كَتَلُونَ الْحِرْبَاءَ

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فيئس

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجربته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلون ألوانا كألوان الحرباء ، إذ تتلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فاتخذ منها مثلا لتلونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرتاء .

ابن سنان ^(١) الحفاجى

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الحفاجى الحلبي تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان يتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولا نعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هذا كتابى عن كمال سلامةٍ عندى وحالٍ شَرَحُها فى الجملةِ
همٌ وإقتارٌ وعمرٌ ذاهبٌ وفراقٌ أوطانٍ وبُعْدُ أحيّةِ

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته خلبيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه « عزاز » فقال : لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الحفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصبّوب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعة عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولا يحضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره . ومع ذلك اضطر - بأمر محمود - أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحسّ بالموت أنشد .

خَفَ مَنْ أَمِنْتَ ولا تَرَكْنِ إلى أحدٍ فما نصحتك إلا بعدَ تجريبِ

الزاهرة ٩٦/٥ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ . وديوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت .

(١) انظر فى ابن سنان الحفاجى وشعره زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزءين الأول والثانى (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والنجوم

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتتحه بمرثية في الكاتب علي بن محمد بن عيسى العمري ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر في حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفي رثاء ابن سنان له يقول :

ومعدّلٍ جارٍ على غلوائِهِ يُرَوِّى حديثُ نَداهِ عن أعدائِهِ
عَجَلْتُ عليه يَدُ الحِجَامِ وعودُهُ رَيَّانُ من خَمَرِ الشَّبَابِ ومائه
عَجَبًا لحدِّ السيفِ كيف أَصابه ومَضَاؤُهُ في الرُّوعِ دون مَضَائِهِ
ولصعبٍ ملأَ الزمانَ هديرُهُ قادوه بعد شِياسِهِ وإِبائِهِ
إن يرفعوه فقد غَنَوَا بَعْلانِهِ أَوْ يَشْهَرُوهُ فقد كُفُّوا بَثْنائِهِ

وابن سنان يؤنن صديقه تأيينا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا في الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذي شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نصرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه في الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القيادة يهدير هدير الفحول ويزار زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفعوه في الصلب ، فقد أغناهم علاؤه في السماكين ، وإن كانوا قد شهروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرثي جماعة من أهله وأصدقائه :

أَيُّهَا الظَّاعِنُونَ لا زالَ لِلغَيْبِ شِ رَواحُ عَلَيْكُمْ وبُكُورُ
لستُ أَرْضَى بالدمعِ فيكم فهل يَمُ سلكَ رِئِّ البَحُورِ إلا البَحُورُ
قد رأينا دياركم وعليها أثرٌ من عُفَاتِكُمْ مَهْجُورُ
عَرَصَاتُ كَأَنَّهُنَّ لِيالٍ فارقَتْها عندَ الكَمالِ البَدُورُ
بأنَ ذُلِّ الأَسَى عليها فَلِلْغَيْبِ شِ بَسْكَاءُ وَلِلنَّسِيمِ زَفِيرُ
يا نَجُومَ العُلا غَرِبْتُمْ وما في اللَّـ سِيلِ من بَعْدِكُمْ نَجُومٌ تَغُورُ

وهو يدعو لأجدادهم أن تظل تمطرها السحب في البكور والرواح بل حري أن تُروى البحور من فيها من مجور الكرم . ويقول إنه مرّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هُجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتُ وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسى والحزن عليها

والسحب تبكى بدمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها
في الليل نجوم تغور في سماء المجد والعلاء . وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حج بيت
الله :

أبكىك لو نهضت بحقك أدمعُ وأقول لو أن النوائب تسمعُ
لا يُعْبِطَنَّ على البقاء مرزاً إن المودع ألفه المودعُ
قُبْحاً ليومك فالنوائب بعده جَلَلٌ وكلُّ رزية لا تُفْجَعُ (١)
لو كان ينفعني السلُّ نبذته أسفاً عليك فكيف إذ لا ينفع
عجباً لمن يُبْقَى ذخائر ماله ويظلُّ يحفظهن وهو مضجع
ولغاfl ويرى بكلُّ نَبِيَّةٍ مُلْقَى له بَطْنُ الصَّفائحِ مضجعُ (٢)
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دفينَةً أفا تضيّقُ بهنَّ أو تتصدّع

وهو يقول إن أي دموع له لا تنفى بحقوق أمه عليه وأي أنين له لا تسمعه النوائب ، ويقول إن
أحدا لا يُعْبِطُ على بقائه ، فما تلبث رحي الموت أن تطحن الباقيين المودعين . وما أقبح اليوم الذي
سمع فيه رزء أمه . فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو لسلا ، ولكنه لا ينفع
أي نفع . ويعجب لمن يجمع المال وعما قليل يضجع ، وللغاfl عن الموت وفي كل عطفة بطريق من
طرقه مضجع معدّ له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لا يتصدع
وفيه هذه الأم الكريمة . وفي ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة .

الغزّي (٣)

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي الغزّي ، ولد بغزّة في فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ
وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من
شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها في المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح ورثى غير مدرس ،
ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بهما جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول العماد الأصهباني في
الخريدة : جاب البلاد وتغرب ، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل في أقطار كرمان بفارس وأقطار

صفحة وهي العريض من الحجارة والألواح .

(٣) انظر في الغزّي وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣/١

وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٥/٥

(١) جلل : يأتي بمعنى عظيم ومعنى صغير حقير

فاللفظة من ألقاظ الأضداد .

(٢) الثنية : الطريق والعطفة فيه . الصفائح جمع

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرَمَان ، وعِمَاد الدين طاهر قاضي القضاة بِشِيرَاز . ثم أوغل شرقا منتقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفي سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفِن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره في المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل ، ويبث في أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغربته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الاجواد المؤمنين قلوا في البلاد ، وفي ذلك يقول :

قالوا هجرت الشعر؟ قلت ضرورة بابُ الدواعي والبواعث مُغْلَقُ
خَلَّتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرْتَجَى منه النَّوَالُ ولا مَليحٌ يُعْشَقُ
ومن العجائب أنه لا يُشْتَرَى ويُخَانُ فيه - مع الكساد - وَيُسْرَقُ

وهو لا يشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية في النقد العربي باب واسع . ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى وما يعز من المعاني الغر معنى إلا إليه يُعْزَى ، يُعْنَى بالمعنى ويحكم منه المبني ، ويودعه اللفظ إيداع الدرّ الصدف ، والبدر السَّدَف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إني لأشكو خطوبًا لا أعينها لئبرأ الناسُ من لومي ومن عَدَلِي
كالشمع يبكي ولا يُدْرَى أَعْبَرْتُهُ من صحبة النار أم من فرقة العسَلِ

فخطوب به كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فثله كالشمع لا يُعْرَف هل يبكي من فرقة الرُّحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطِيقُهُ كما حمل العظمُ الكسيرُ العصائبَا
وليلٍ رجونا أن يدبَّ عِذارُهُ فما اختطَّ حتى صار بالفجر شائبَا
فلا تحمدِ الأيامَ فيما تُفِيدُهُ فما كان منها كاسيًّا كان سالبَا

والصور في الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه ما يكون بعظم كسير شُدَّت عليه العصائب وهو يتضوّر ألما ، ويصور قصر الليل فما اختطَّ عِذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لا تحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفث فيه سموما ، وكل ماتظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تعرّى حرمانا وابتئاسا . ويقول :

الحظُّ من جَوَّهَرِ الأشياءِ سلَّه ولا تسأل من الله قدًّا زانه الهَيْفُ
فالقَوْسُ في قَبْضَةِ الرامي لعزَّتْها والسهمُ من هُونِهِ يُرْمَى به الهدفُ
لم يُبْقِ لى زمنى شيئا أُسْرُ به فالحمدُ لله لافوزُ ولا أَسَفُ
عرى أكابره من ثوبِ مُحَمَّدٍ فالقومُ في السابغاتِ اللَّبَسُ الكُشْفُ
لم يقنعوا بحجابِ البُخلِ فاحتجبوا كما غلا بعد سوء الكَيْلَةِ الحَشَفُ
وإن جَرَى غلَطُ منهم بمكرمةٍ فَيِضَةُ العُقْرِ لا يُرْجَى لها خَلْفُ
أعجبُ بهم قَطُّ في الآراءِ ما اتفقوا على صوابٍ وفي التقصيرِ ما اختلفوا

فهو يشكو حظَّه التعسُّ وأن الإنسان حُرَى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالحظ مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وما أشبه الغزى بقوس عزيز في قبضة الرامي تصوب منه السهام الهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتعس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل ما يدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شيء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرى أكابره من ثياب المحامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمده ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حشفه أو أردئه وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشيء كان ذلك بيضة العُقْرِ التي لا تبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لا يتفقون في الرأي على شيء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ النَّاسُ حتى لو بكينا تعذَّر ما تُبْلُ به الجُفُونُ
فما يَنْدَى لممدوحِ بنانٍ ولا يَنْدَى لمهجوٍ جَسِينُ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلى جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بنانه ، ويغدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجو بجيل يندى جبينه خجلا وكسوبا . ويقول :

حبلُ المني مثلُ حبلِ الشمس متصلا يُرى وإن كان عند اللَّمسِ مَبْتُوتا

فلا تَقُلْ لَيْتَ صَرَفَ الدهر ساعدني فَإِنَّ في لَيْت أَوْماً يقطع اللَّيْتاً^(١)

والصورة في البيت الأول بديعة ، فجبل المنى كجبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتني فإن في لَيْت أَوْماً أو عطشا شديدا دون ريه انبتات الليت أو صفحة العنق . فدع المنى والتمنى فإنهما يتعبان ولا يثمران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس في شعر الغزى مدائح وغزليات - كما قلنا - رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه في نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة في مكتبات العالم .

فتيان^(٢) الشاغوري

هو فتیان بن علی الأسدي الشاغوري وُلد في أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صيبا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حيثُذ وهي الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أتم حفظه أكب - مثل لِداته - على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية في الجامع الأموي ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر في أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويدربهم عليها . واختار قرية الزبداني بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كُتّابا يعلم فيه الناشئة ، وله في هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين في أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر تراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته في مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ ، واتخذ الأفضل مودود بن المبارك - وهو أخو عز الدين فرخشاہ ابن عم الأفضل لأمه - شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشتونها ومصرفا لها . ويلتحق فتیان بخدمة مودود . ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموي ، ونظن ظنا أنه ابتدأها في أثناء تلك الخدمة أي منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

٢٧٤/٦ ومطالع البدور للغزولي ٢٨/١ والشذرات

٦٣/٣ . وديوانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق

أحمد الجندی وتقديمه .

(١) أوما : عطشا شديدا . اللَّيْت : صفحة العنق .

(٢) انظر في فتیان الشاغوري وشعره الخريدة (قسم

الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة

وكان فتیان يمدح مجتنب صلاح الدين بعض قواده وكاتبه عماد الدين الأصبهاني والأفضل نور الدين وأخاه غازي صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه - فيما عهد - بتعليم أولاده الخط والعريّة . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصري صفي الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقلعتهم صاحب حماة تقي الدين عمر (٥٧٤ - ٥٨٧ هـ) أعطاها له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بعلبك فرّوخ شاه (٥٧٥ - ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ - ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبيعي - وهو شاعر مدح كبير - أن تكون له مراثي لمن لبى نداء ربه من ممدوحيه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام . ومن أروع مراثيه مرثيته لشيخه الحافظ اللؤلؤ ابن عساكر التوفي سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهاني إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ووفاته ، وفيها يقول :

أَيُّ رَكْنٍ وَهَى مِنَ الْعُلَمَاءِ	أَيُّ نَجْمٍ هَوَى مِنَ الْعُلَمَاءِ
إِنَّ رُؤْيَا الْإِسْلَامِ بِالْحَافِظِ الْعَا	لَمْ أَمْسَى مِنْ أَعْظَمِ الْأَرْزَاءِ
أَقْرَبَ بَعْدَهُ رِيْعُ الْأَحَادِيدِ	حَيْثُ وَأَقْوَتْ مَعَالِمُ الْأَنْبَاءِ
كَانَ مِنْ أَعْلَمِ الْأَنَامِ بِأَسْمَاءِ	رِجَالِ الْحَدِيثِ وَالْعُلَمَاءِ
كَانَ عَلَامَةً وَنَسَابَةً لَمْ	يَخْفَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ
أَنْتَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تُحَدَّ بِوَصْفٍ	بِلُغَتِهِ بِلَاغَةُ الْبُلْغَاءِ

وفتيان في المرثية محزون القواد مكيّر لفجيرة دمشق في محدثها الذي لا يبارى ومؤرخها الذي لا يجارى . وهو في البيت الثاني يصور في ألم إقمار المدرسة التورية من محدثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذي يقال إنه كان يقع في ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره - إن لم يكن أعلمهم - بالحديث النبوي ورجاله وتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم .
 ويتوفى بعده في السنة التالية القاضي ابو الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكان قد ولي
 القضاء لعهاد الدين زنكي في الموصل ، وتوفى فالتحق بابنه نور الدين فولاه القضاء في دمشق
 وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقره صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم
 يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدم الإسلام معدوم المثال وهوت من أوجها شمسُ المعالي
 ولسانُ الشرع قد ألبسَ عيًّا بعد أن كان جريئًا في المقال
 وسماه الدين قد ران على بدرها التَّقْصَانُ من بعد الكمال
 والقضايا قاضياتُ نَحْبَها إثرُهُ حُزْنَا على تلك الخلال
 مات من كان لأهل العلم كَهْفًا وثملاً وسنداً أيُّ ثمالٍ^(١)

وهو يكي الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه
 والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه ، إذ كان جواداً وغيثاً مدراراً ، كما كان
 مرجعاً للعلماء - كما يقول فتيان - وثملاً وسنداً لهم وموثلاً . ويتوفى تقي الدين عمر صاحب حَمَاة
 فيؤبنه بمرثية يقول فيها :

أباح ثغور الكفر بالسيف عتوةً وسدَّ ثغور السلم بالطعن في الثغر
 وكيف يُلام المسلمون على الأسى وقد عدم الإسلامُ ناصرَه عُمرُ
 لقد كان يلقى المُرْهفاتِ بوجهه وسُمِرَ القنا بالصَّدرِ في الوردِ والصَّدرِ^(٢)
 وكان يرُدُّ الجَحْفَلَ المَجْرَّ وحده يمسُّون بالأيدى الظهورَ من الخورِ^(٣)

وهو يشيد ببسالته في حرب حملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا
 من أبطالهم طالما دَوَّخ الصليبيون ، وطالما نازلهم رامياً بنفسه في أتون الحرب مقبلاً دائماً معرضاً
 وجهه للسيوف وصدره للرماح ، وكم ردَّ من جمافلهم الكثيرة وولوا أديارهم فزعين مروعين .

ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤبنه بمثل قوله :
 لئن كان خَلَقُ الخلقِ من طينِ آدمِ فمن نورِ بَخْلَقِ الله خَلْقُك يا غازي

(١) الثمال : الملجأ والغياث

(٣) الحجر : الكيف

(٢) المُرْهفات : السيوف . القنا : الرماح

فنّ لليتامى والأرامل بعده يقوم بإكرام عليهم وإعزاز
مضى ملكه المحروس من عيب عائب ومن عبث الزارى ومن عنت الرازى

وكان الغازى مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العارى ويطعم الجائع على الهمة حسن التدبير
والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشعراء ، فحمى ملكه - كما يقول فتیان - من عيب
العائب وزراية المزرى وعنت الرازى أو الممتحن المختبر .

ولفتیان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

علام تحركى والحظ ساكن وما نهت في طلب ولكن
أرى ندلاً تقدّمه المساوى على حرّ تؤخره المحاسن

وهى شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون ما يبتغون أو ما يرون أنهم
جديرون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا ما يقوله فتیان من أن لافائدة فى الحركة وأن المساوى تقدم
أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعد في الشكوى وإغراق فى التشاؤم .

مصطفى^(١) البابى

هو مصطفى بن عبد الملك - وقيل عثمان - البابى ، ولد بالباب إحدى قرى حلب فى القرن
الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ونشأ بحلب وتلمذ على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق
سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إستانبول وأفاد من
علمائها وعين قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا فى بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز فى المدينة
المنورة ، وتوفى بمكة فى أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان البابى شاعرا مجيدا ، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء فى تلك الحقب ،
ويتخلل المديح أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من
قصيدة استهلها محزوننا لتحول عهد مية ، ويقول إنه مازال يبكى الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا
عليه ، ويلتفت إلى الدهر شاكيا .

سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزرى وفتح الله بن
النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ .

(١) انظر فى مصطفى البابى وشعره نفحة الريحانة
٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه فى بيروت

أَيُّ ذَنْبٍ نَعَاتِبُ الدَّهْرَ فِيهِ وَعَتَابُ الْأَيَّامِ دَائِمٌ عُضَالُ
 أَنَا مَا بَيْنَ فَرْقَةٍ تَجْمَعُ السُّقْدَ حَمٌّ وَيُتَعَدُّ تَلَدُّو بِهِ الْأَجَالُ
 وَخُطُوبُ الْفَتْهَا يَسْتَعِيدُ الدَّ خَوْفٌ مِنْهَا وَتُدْعَرُ الْأَهْوَالُ
 وَأَمَانُ تَجَاذِبُ الدَّهْرَ ذَيْلَ الدَّ حِطٌّ وَاللَّهْرُ جَاذِبٌ جَدَّالُ
 هِمَّةٌ أَرَقَّتْ جَفُونَ الْأَمَانِي بِوَعْدٍ لِلدَّهْرِ فِيهَا مِطَالُ
 أَتَمَنَّى مِنَ الزَّمَانِ وَفَاءً وَوَفَاءُ الزَّمَانِ أَمْرٌ مَحَالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدرى لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها في فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيد الخوف من شرها وتتفرع الأهوال . وتلك أمانيه ماتزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ، وفي صدره همة تؤرق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود مايزال الدهر لا يفي بها ، وكأن وفاءه أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صَاحِبِي ابْغِيَا لَنَا خَارِجَ الْعَالَمِ لَمْ دَارًا قَبِشَ دَارُ الزَّحَامِ
 وَاصْدُقَانِي أَلَسْنَا بَيْنَ لَيْلٍ وَنَهَارٍ مَالِي حَلِيفُ ظِلَامِ
 وَاسْتَعْبِرَا لِمَقْلَتِي هَجْعَةً عَمَلٌ مَتَامَى يَعُودُ لَوْ فِي مَنَامِ
 مِنْ أَمْرِ تَقْذِي الْعَيُونَ وَأُخْرَى تَصْدَعُ السَّمْعَ مِثْلَ وَخْرِ السَّهَامِ
 مَشْرَبٌ كُلُّهُ قَذَى سَوَّغَتْهُ إِلْفُ هَلْدَى النَّفُوسِ لِلْأَجْسَامِ
 مَنْ أَرَادَ الْعَيْشَ الْهَنَى فَلَا يُعَدُّ حَمْلُ فِكْرَا قَالِ عَيْشُ عَيْشُ السَّوَامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسي وغير أناسي أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنهما يتعاقبان فلماذا هو يعيش في ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه ، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو في الخيال واللتام ، وهيات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكانها مورد من غسلين أوزقوم ، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تطلب من متاع مادي . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجيلانية فضلا عما في ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربانية .

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابة ، ومرت في كتاب العصر العباسي الأول عناية أبي تمام بوصف الطبيعة في مقدمات مديحه أو مستقلة في بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفه للطير وأحاسيسه ، على نحو ما عرضنا هناك من تصويره لُقَمَرِيٍّ وقرية يتساقبان رحيق الهوى ، بينما هو محزون شديد الحزن . ووقفنا في كتابنا العصر العباسي الثاني عند براعة البحترى في وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . وولتقى في أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب في الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة في وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة في وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

غيثٌ أتانا مؤذنٌ يخفّضُ	متصلٌ الوبلٌ حثيثٌ الرّكضُ
يضحك في بَرَقٍ خفيٍّ الومضُ	كالكفِّ في انبساطها والقَبْضُ
والأرضُ تُجلى بالنبات الغَضُّ	في حَلْيها المحمّرُ والمبيضُ
وأقحوانٌ كاللّجّين مَحْضُ	ونرجسٍ ذاكي النسيم بَضُّ
مثل العيون رنّقت للغمض	ترنو ويغشاها الكرى فتُفْضُ

وهو مطر متصل الوبل يؤذن - كما يقول - بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكف تنبسط وسرعان ما تنقبض ، والأرض كأنها في حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلأل كالفضة الخالصة والنرجس العطر النضر مثل العيون تنكسر جفونها للنوم ، وهي تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغضى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتنسب إلى سيف الدولة الحمداني الأبيات التالية في قوس قزح ^(١) :

لقد نشرت أيدى الجنوبِ مطارفاً	على الجوّ دُكْنَا والحواشي على الأرضِ
يطرّزها قوسُ الغمام بأصفرٍ	على أحمرٍ في أخضرٍ تحت مُبيّضٍ

كأذيال خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غِلَاطِلٍ مَصْبُغَةٍ وَالبعضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

يقول : رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكناء مغبرة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيها على الأرض ، وقوس قزح يطرزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت في غِلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهى صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الخريدة ^(١) :

الشام شامةٌ وَجَنَّةُ الدُّنْيَا كَمَا إِنْسَانٌ مَقَلَّتْهَا الْغَضِيضَةُ جِلْقُ
مِنْ آسِهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقُضِي وَمِنْ الشَّقِيقِ جَهَنَّمُ لَا تَحْرُقُ
فَعَلَامُ تَصْحُو وَالْحَمَامُ كَأَنَّهَا سَكْرَى تَغْنَى تَارَةً وَتَصْنُقُ
وَتَلُومُ فِي حُبِّ الدِّيَارِ جِهَالَةً هِيَاهُ يَسْلُوها فَوَادُ شَيْقُ

وهو يجعل الشام خالاً في وجنة الدنيا ويجعل «جِلْق» اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الغضيضة التي ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تحذر بجبالها أحاسيس مشاهدها ، فلا يصحو ، والحمام من حوله فرح بهيج يغنى ويصفق طرباً . وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فتیان الشاغورى في وصف قرية الزبدانى بشهر كانون شتاء والثلوج تتراكم على أشجارها ونباتاتها في شهر كانون زمن الشتاء مهيشة لازدهار أزهارها في زمن الربيع ^(٢) :

قَدْ أَجْمَدَ الْخَمَرَ كَانُونُ بِكُلِّ قَدَحٍ وَأَخْمَدَ الْجَمَرَ فِي الْكَانُونِ حِينَ قَدَحُ
يَا جَنَّةَ الزَّبْدَانِي أَنْتَ مَسْفَرَةٌ عَنْ وَجْهِ حُسْنٍ إِذَا وَجْهُ الزَّمَانِ كَلَعُ
فَالثَّلْجُ قُطْنٌ عَلَيْكَ السُّحْبُ تَنْدِفُهُ وَالْجُو يَحْلُجُهُ وَالْقَوْسُ قَوْسُ قَزْحُ

وقد صور فتیان كل ما يحمل ماء في الزبدانى بأقداح تحمل خمرا ، وقد جمدها القَرَّ الشديد وأحمد الجمر في الكانون أو الموقد حين اتقد . ويتصور قرية الزبدانى جنة من جنات الدنيا ، وما يلبث أن يصور الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يحلجه . صورة بديعة .

(٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١

ويقول الوداعي على بن المظفر في مناظر رأس العين بيبلك^(١) :

يا حادى الأظعان إن شارفت من بعلبك سفح لبنانه
فاقرأ تحياتي على نازل في مخجر العين كإنسانه
والروض يهدى مع نسيم الصبا نشر خزاماه وريحانه
وراسل القمري ورقاءه شدوا على أوتار عيدانه

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبه ، وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القمري المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبه شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان . وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصريه في زمن المالك ، وبعدهم في زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس في وصف الربيع^(٢) :

نثر الربيع ذخائر الندى حار من جيب الغوادي
والورد مخضوب البنا ن مضرج الوجنات نادى
حرسه شوكه حسنه من أن تمدا له الأيادي
والعندليب أمامه بفصيح نغمته ينادى
من رام يعبت بالخرد د فدونها خرط القتاد^(٣)

والصور في الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من حبيب السحب الغوادي والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لألى الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادي والعندليب ينادى : دون هذه الوجنات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في متنزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى في الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالغزل ، وتمادى بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار أبي الرقعمق^(٤) الأنطاكي شاعر المعز الفاطمي وأبنائه ووزرائهم ، وكان

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٤٢

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الريحانه ٥١٢/٢

(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للشيء لا ينال

إلا بمشقة شديدة.

(٤) انظر في أبي الرقعمق اليتيمة ٣٢٦/١ وابن خلكان

١٣١/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣.

لا يستحي من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبي الحجاج ماجن العراق الذي تحدثنا عن مجونه وهزله في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله ^(١) :

توهَّمتُ أمرا فلم أنبسي بحرفٍ وناديتُ بالأكؤس
حُمَيَّا كأن سَنَا نورها سنا بارقي لاح في الحِندس ^(٢)
يُعاطيكها رَشَاء طَرْفُهُ سريعٌ إلى تلفِ الأنفُسِ
يَخْدُ يروك توريدُهُ وعينٍ تنوبُ عن التَّرجِسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينبس ببنت شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التي تلعب حُمَيَّاها بخياله ، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع في دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطَّرف لتقدمها إليك فتصيبك في الصميم بخد مورِدٍ وعين فاتنة .
ويقول الغزى الذي مرت ترجمته ^(٣) :

قُمْ نَفَرَعَهَا كأنها الذهبُ بِكْرًا ، أبوها وأُمُّها العِنَبُ
أرقَّ مِنْ عَبْرَةِ اليتيم ومن عبارة الصَّبِّ قلبه وَصِبُّ
مدامةٌ تصقلُ القلوبَ إذا رانتُ عليها الهمومُ والرَّيبُ
كثوسُها أنجمٌ نَضِلُّ بها لا يهتدى من تُضِلُّهُ الشُّهُبُ
لا فَدَمَ فينا ولا فِدَامَ لها عروسُ دَنُّ عقودُها الحَبُّ

وهو يقول لصاحبه قم نفرعها أو نفتضها ونشرها ، إنها في رأيه -كعروس بكر- أبوها وأمها العنب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبرة الصب أو ألحج الوصب الموجه قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك ، ويعجب من كثوسها أن تكون أنجما ولا تهدي ، بل تضل صاحبها وأى ضلال بينا عادة النجوم أن تهدي ، ومن تضله لا يهتدى أبدا ، لأنه فقد هداه . ويذكر أن ليس في رفاقه قدم أو أحرق وأنه لا فدام لها أو مصفاة لإذهي شديدة الصفاء ، ويقول إنها عروس دَنُّ عقود جيدها لآلئ الحَبِّ التي تعلقو كثوسها حين يمتزج بها الماء . ويدعو فتيان الشاغورى صديقا إلى نزهة قائلا ^(٤) :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

(١) البيتية ٣١٢/١

(٢) حميا الخمر: سورتها وشدتها . سنا : ضوء .

الحندس . دجى الليل الشديد السواد .

بادرُ إلينا فإن الراحَ ممكنةُ والكأسُ دائرةٌ والشَّمْلُ مُجْتَمَعُ
ويومُنا طيِّبٌ صافي الأديم وما فيه هواءٌ ولا في رأسه قَزَعُ
والطيرُ ترقصُ في الأغصان من طربٍ تكاد منه على هاماتنا تقعُ

وفتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع
لا فيه عواصف ولا في سمائه قزع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير ترقص على
الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رؤوسهم .
وتكثر مقطعات الشعر في مجالس اللهو سواء في الخمر أو في الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد
لهم الحموى في خزانته فصولا طويلة هم مجير الدين بن تميم ، وسنخصه بترجمة ، وبدر الدين
يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضي محيي الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن
المظفر الوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبي قوله (١) :

باكرُ إلى الروضة نستجلها فثغرُها في الصبح بسامُ
والنرجسُ الغَضُّ اعتراه الحيا فغضُّ طرفا فيه نسقام
وبلبلُ الدَّوحِ فصيحٌ على الأُيُكة والشَّخَرُورُ تمام
فعاطنى الصَّهْبَاءُ مشمولةٌ عذراء فالواشون نُؤام
واكتمُ أحاديث الهوى بينا فنى خلال الروض نَمَام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التي أشاعتها مصر منذ
العصر الفاطمي عناية واسعة ، وقد ورى في البيت الثاني بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى
المطر . وجعل للبلبل لجمال غنائه وشدوه الفصاحة وللشحرور وهو نوع من العصافير التمتة . ضرب
من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستتم الصورة بأنها بكر أو عذراء والواشون
نوام . وعاد إلى التورية في البيت الأخير بكلمة نَمَام - وهو ضرب من السعتر مزهر - عن الثَّمام
الحقيقي من الأشخاص . ويقول محيي الدين بن قرناص (٢) :

روضةٌ من قَرَقَفٍ أنهارُها وغناءُ الورق فيها بارتفاعُ
لا تَلُمُ أغصانها إن رقصتُ ففهي ما بين شرابٍ وسماع

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٦

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٠

وقد ورى محبي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافي عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذ السكر ، بل إن الأغصان نفسها التي رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلاعجب أن يشدو الحمام شدوا عاليا . وأنشد الحموي في خزانته لابن قناص مقطعات بديعة كثيرة في الرياض ومثله الوداعي ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل الغرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حين طوال أيام الممالك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول علي بن محمد الحشري الشامي المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة (١) :

قُمْ هَاتِيهَا وَضَمِيرُ اللَّيْلِ مُنْشَرِحُ وَالبَدْرُ فِي لُجَّةِ الظُّلُمَاءِ مُسْتَبِحُ
عَجَلُهَا وَحِجَابُ اللَّيْلِ مُنْسَدَلُ مِنْ قَبْلِ يَدُو لَنَا فِي وَكْرِهِ الصُّبْحُ
وَاسْتَضْحَكَ الدَّهْرَ قَدْ طَالَ الْعُبُوسُ بِهِ لَا يَضْحَكُ الدَّهْرُ حَتَّى يَضْحَكَ الْقَدَحُ
وَلَا يَطِيبُ الْهُوَى يَوْمًا لِمُغْتَبِقِي حَتَّى يَكُونَ لَهُ فِي الْيَوْمِ مُصْطَبِحُ
وهو يخاطب ساقيا أن يناوله كأس الخمر والليل من حوله ، مبتهج وأضواء البدر تلمع في جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملأ الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لا يقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس في يده ، ويزعم أن الهوى لا يطيب لمن يشرب الخمر غبوقا وهو شرها بالعشى حتى يكون له منها صَبُوح وهو شرها في الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو .

الوَأَوَاءُ (٢) الدمشقي

هو محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوَأَوَاءِ الدمشقي ، من أهل دمشق ، وُلِدَ بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك ما رواه الثعالبي في اليتيمة من أنه لُقِبَ بالوَأَوَاءِ لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة ، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ ، ينادي على الفواكه جلبا للمشتريين . وقد ذكرنا مرارا في حديثنا عن الشعراء أنهم - في أغلب الأمر - كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات حياتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك في بغداد وفي القاهرة وفي

(١) طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق د. سامي الدهان وراجع مقدمته له .

(٢) نفحة الريحانة ٣٥١/٢
(٢) انظر في الوأواء وشعره اليتيمة ٢٧٢/١ والمحمدون
من الشعراء للقفطي وفوات الوفيات ٣٠١/٢ وديوانه

جميع بلدان العالم العربى . ومكّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائماً هى وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعليم من أبناء العامة مايزال يتردد عليها حتى يحسن مايريد من الفقه مثلاً أو من رواية الشعر . ودائماً كان يتخرج فى هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحو ما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة فى حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أيدينا ولا فى ديوان الوأواء ما يوضح متى وُلد . وأيضاً ليس فى الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل ما فيه أنه لزم شريفاً من سادة دمشق ووجهائها بمدحه ، وأنه أعطاه فى أول مدحة له عشرين ديناراً ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيقى أحمد بن الحسين العلوى ، فهو من أشراف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جواداً ممدحاً ، وكان على صلة بسيف الدولة فى أول إمارته لحلب فى العقد الرابع من القرن الرابع الهجرى . وربما كان هو الذى قدّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتى ٣٣٣ و ٣٣٤ . وفى ديوانه ثلاث قصائد فى مديحه ، ولذلك عدّ من شغرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيقى أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسباً به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيراً ما يمزج بينها جميعاً مثل قوله فى الفصيدة الأولى من ديوانه :

حاز	الجمالَ	بأسره	فكأنما	قُسمتْ	عليه	محاسنُ	الأشياء
متبسّمٌ	عن	لؤلؤٍ	رطبٍ	حكى	برّداً	تساقطَ	من عقود سماء
تُغنى	عن	التفاح	حمره	خده	وتنوب	ريقتُهُ	عن الصّهباء
فامزجُ	بمائك	نارَ	كأسِك	واسقنى	فلقد	مزجتُ	مدامعى بدمائى
واشربُ	على	زهر	الرياض	مُدامةً	تننى	الهموم	بعاجل السّراء
لطفتُ	فصارتُ	من	لطيف	محلّها	تجرى	مجارى	الروح فى الأعضاء

والوأواء معروف بكثرة تصاويره فى أشعاره ، فساقيته الخمر تبسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود فى السماء ، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء . ويقول لصاحبه اشربْ على زهر الرياض الذكى الرائحة تلك الخمر التى تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى في جسمه مجرى الروح في الأعضاء . ومن قوله في وصف الراح :

وبنتِ كَرَمٍ كأنها لَهَبٌ تكاد منها الأكفُ تَلْتَهَبُ
تَلْعَبُ في كأسها إذا مُزِجَتْ كأنما يستفْزُها طَرْبُ
في عَرَصَةِ الكَأْسِ حينَ تَمزِجُها سماءُ تَبْرِ نَجْمُها ذَهَبُ

وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكرم ، ويقول إنها حارة كأنها لسان لهب ، وإن الأكف في زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلعب في كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حبايبها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عَرَصَة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه - بزعمه سماء فضية من فئات التبر ، نجومها - أى حبايبها - ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقياني ذبيحة الماء في الكأ س وكُفًّا عن شُرْبِ ماتسقياني
إننى قد أمنتُ بالأمس إذ م ستُّ بها أن أموت موتا ثانيا
اسقني القهوة التي تنبتُ الور د - إذا شئتَ - في حدود الغواني
في رياضِ تريك في الليل منها سُرْجًا من شقائق النعمان
كتبها أيدى السحاب بأقلام دموعٍ على طُروس المغاني

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحًا ، ويطلب إلى صاحبيه أن لا يسقيه الماء وإنما يسقيه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا ، ومثله من مدمنى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرّج حدود الغواني بالخمر فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسبها في رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدى السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هي دموع العشاق التي استحالت دما قانيا وقد دُؤنت على طروس ، هي صحف المغاني أو الرياض . ودالما يعنى الواواء في شعره بالتصاوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور :

فأمطرتُ لؤلؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَّتْ وَرْدًا وَعَصَّتْ على العُتَابِ بالبَرْدِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعتاب للأصابع والبرد للإنسان ، وهى صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريري على هذا البيت نفسه مقامته الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا في عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن^(١) قُسَيْمَ الحَمَوِيَّ

هو مسلم بن الحَضِر بن قُسَيْمَ التَّنُوخِي الحموي ، ولد ونشأ بجحاة ، ويقول العماد : « كان ثالث القيسراني وابن منير بلغ إلى درجتها .. وفاق شعرهما شعره ، لكنه خانه عمره » ، وفلَّ شَبَا (حَدَّ) شبابه ، وحلَّ شَعُوب (الموت) بشعابه ، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة . والعماد يقول إنه توفي شابا ويبدو أن ميلاده لا يعدو العقد الأول من القرن السادس الهجري كما يبدو أن موهبته الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ما عمد إلى التكسب بشعره فمدح صاحب حماة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حسة الصليب ، وكان عماد الدين زنكي قد أخذ في منازلهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزَاغَة وحاصر حصن شَيْزَر بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكي فأُسْرِعَ إليه في عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكي وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفي مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

بعزمك أيها الملك العظيم تذلُّ لك الصَّعَابُ وتستقيمُ

وكان ابن قسيم حينئذ في ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفي عام ٥٣٤ حاصر زنكي دمشق ، وأعلن له أنَّهُ مدبر دولة أبناء طغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق في طاعته . وفي هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكي ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فانه يمدح أنَّهُ مدبر دولة آبق بن محمد بن بوري ، وكان زنكي قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنر . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكي ، وله فيه مدحة أرخها العماد الأصبهاني بسنة ٥٤٢ . ولانرتاب في أنه ظل متصلا بزنكي يمدحه وخاصة حين استولى على الرُّها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفي زنكي سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُّها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين في عسكره ، فهرب جوسلين . وافتتح نور الدين الرُّها ثانية ،

لأبي شامة ٣٢/١

(١) انظر في ابن قسيم وشعره الخريدة (قسم الشام)

٤٣٣/١ ومفرج الكروب لابن واصل ٨٢/١ والروضتين

وهنا ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفى الشاعر سريعا في نفس السنة ويقول العباد الأصهباني : إنه مات شابا .

وقد استعرض العباد في خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهي تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يغرق في اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله :

خَيْرُ ما أَصْبَحْتَ مخلوع العذارِ فأنفِ عنك الهمُّ بالكأسِ المُدارِ
قم بنا نثيب اللذة في ظلِّ أيام الشباب المستعارِ
إنما العمارُ الذي تحذره أن تراني من لباس العار عارى
وسعيدٌ من تقضى عمره بين كاسات رُضابٍ وعُقارٍ^(١)
في اصطباحٍ واغتباقي واقترابٍ وانتهاكٍ واستتارٍ

وهو يصرّح - ولا يخفى - بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير آبه لما يجُرُّه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناءته وسعادته ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول ، ويعكف عليها قارًا في بلدته حماة ومغتربا في دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعصيان ربه منتهكا لحرماته . ومن قوله في خمريّة ثانية .

باكرا شمسَ القناني تُدركُ كلَّ الأمانِ
ونحذا في لذة العيبِ شِ على رَغَمِ الزمانِ
قهوةً ألبسها المزجُ قيصا من جُمانٍ^(٢)
كخدود الورد من تحـ ثغور الأقحوانِ
إنما البُغية أن أصـ سبح مخلوع العنانِ

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قيصا لؤلؤيا . ويصورها في حمرتها والماء آخذ بتلايبها بثغور من الأقحوان الأبيض تعلوها حدود وردية . ولا يلبث أن يعلن في أبيات تالية عصيانه لربه ، فكل ما يبغيه أن يظل سادرا في خلع عنانه - أو كما قال في المقطوعة السابقة - في خلع عذاره منتهكا ساجدا في قبلة الكأس لتسبيح مثاني العود

(٢) الجمان : اللؤلؤ

(١) الرضاب : الريق . العقار : الخمر .

وأوتاره . وكأنه يعيد لنا صورة أو صورة من خمريات أبي نواس المتهتكة الخليفة المارقة .
ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار في وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من
ذلك قوله يصف رُمّانة :

ومحمرة من بنات الغصو ن يمنعها ثقلها أن تميدا
منكسة التاج في دستها تفوق الحدود وتحكى النهودا
تفضّ فتفتّر عن مبسم كأن به من عقيق عقودا
كان المقابل من حبها ثغور تقبل فيها خدودا

وتصويره للرمّانة بأنها منكسة التاج في دستها أو صدرها تصوير بديع لأنها تهدل وتهدل في
غصنها وعلى صدرها بقية نوارها . ويتصور حباتها عقودا من عقيق ، وكأنها تحمل بتلك الحبات
وما يحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسيم شاعرا مجيدا ، ومربنا أنه كان
يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعي .

مجير^(١) الدين بن تميم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم ، ولد بدمشق ونشأ بها ، وسال الشعر على
لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل في جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد
(٦٤٢-٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتوته وشجاعته ، ويصور لإقدامه وبسالته في شعره
قائلا :

دغنى أخطر في الحروب بمهجتي إما أموت بها وإما أرزق
فسواد عيشي لا أراه أيضا إلا إذا احمر السنان الأزرق

وقربه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . ويقول صاحب فوات الوفيات : « هو في
التضمين الذي عاناه غصلاء المتأخرين (من الشعراء) آية ، وفي صحة المعاني والذوق اللطيف
غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورة
لمختارات من ديوانه بخط الصفدي في ٤٧ ورقة

(١) انظر في مجير الدين بن تميم وشعره فوات الوفيات
٥٣٨/٢ وخزانة الأدب للحموي ص ٣١٩ - ٣٢٥

الأول ، إنما اراد به المعنى الثانى وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غبرى

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه « كان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كريم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان من الشعراء المعدودين » . ولا نعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومحير الدين بن تميم من أصحاب المقطعات الطريفة فى الغزل والطبيعة والخمر ، ولا يبارى فى ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات فى مقطعاته ، مع الظرف وخفة الروح والتعليقات الحسنة ، ونقتطف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله فى الساقية والطبيعة من حولها :

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعها بين الرياض غزير
كان نسيم الروض قد ضاع منها فأصبح ذا يبكى وذاك يدور

ولكلمة « ضاع » معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التى يحملها نسيم عن الأزهار ، ومعنى الفقد والهلاك ، وبذلك تمت لابن تميم التورية التى يريد بها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد المعنى الثانى . ويقول مفاخر بين الأرض والسماء :

يا جاعل الأفق مثل الأرض حُجَّتْهُ بالشمس إذ بزغت والبدر حين وُضِعَ
كم من شمسٍ وأقمارٍ إذا سَرَحَتْ فى الأرض طرت إليها خَفَّةً وفرح
ولا تَقُلْ : قُزَحٌ فى الجوّ زَيْنُهُ فى كل غُصْنٍ ترى فى الأرض قَوْسَ قُزَحٍ

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلا إن فى الأرض شمساً وأقماراً من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسناً . ويقول لصاحب السماء : لا تحتج بحال قوس قزح ، فأغصان الرياض فى الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قزح نضرة أرجة . ويقول :

سبقت إليك من الحديقة وردةً وافئك قبل أوانها تطفئ
طمعت بلثمتك إذ رأئك فجمعت فمها إليك كطالب تقيلا

وهي وردة في بدء تفتحها وهي لاتزال في كمّها ، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول في وصف ناعورة أوساقية :

ناعورةٌ مذ ضاع منها قلبها ناحت عليه بآنةٍ وبكاءٍ
وتعلّلت بلقائه فلاجل ذا جعلت تُدير عيونها في الماء

فقواديسها لاتهوى فارغة طلبا للماء والصعود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذي ضاع منها ، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه . ويقول :

لَمْ لا أَمِيلُ إلى الرِّياض وزهرها وأقيم منها تحت ظلّ ضافي
والغُصْنُ يلقاني بثغير باسمٍ والماء يلقاني بقلبٍ صافي

والثغر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالثغر كثيرا ، وفي البيتين رقة ودقة حس وخفة روح . وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما في قوله :

كيف السبيلُ لأن أقبل خدَّ مَنْ أهوى وقد نامت عيونُ الحُرْسِ
وأصابعُ المنشور تُومي نحونا حسداً وتغيزُها عيونُ النرجسِ

والمنشور زهر ذكي يزهر في أعلى سيقانه ، شبه ابن تميم بالأصابع ، وتشبيه الشعراء للنرجس بالعيون قديم . وقد استغلها جميعا في هذا التعليل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبتة . ويقول في الخمر مداعبا :

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباء في عقلي لها تأثيرُ
فاعجبْ له أنّي يصونُ بلحظه مشمولاً وإنّاؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإناء بمعنى تهشمه وتحطمه ، وإما كسر مافيه من الخمر بالماء وهو كسر حميّاها وثورته ، وهو المعنى المراد في البيت . ويقول أيضا في الخمر :

وليلةٌ بتُّ أسقى في غياها راحاً تسلُّ شبابي من يدِ الهرمِ
مازلت أشرها حتى نظرتُ إلى غزالةٍ الصبح ترعى نرجسَ الظلمِ

ويريد بالغزالة الشمس وينرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجناً مثل ابن قسيم ، ولاندرى هل كان يشرب الخمر حقاً أو كان ينظم فيها محاكاة للمعنى نظرفاً . ومن طرائفه في الرياض قوله
بعثَ النسيمُ رسالةً بقدمه للروض فهو بقربه فرحانُ
ولطيب ما قرأ الهزارُ بشدوه مضمونها مالت له الأغصانُ
والهزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح مافي ميل الأغصان لسماع شدة
الهزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر وما يحدث في النفس من هزة
الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحباً الفوات والخزانه
بدائع كثيرة .

ابن النقيب ^(١)

هو عبدالرحمن بن محمد الحسيني الملقب بابن النقيب ، ولد في دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة
لأبيه النقيب الشريف ، وعُني بتربيته ، فحفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة
إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، واتجه بها إلى وصف
الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإلمام بالمديح ، ولم يكن في حاجة إلى تكسب به ، ولذلك
يمكن أن تعد مدائحه في باب الإخوانيات ، وهي ليست الجواهر في ديوانه المنشور ، إنما الجواهر
فتنته بالطبيعة الدمشقية ومنتزهاتها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة .
ويقول المحبى « ما أذكره له تشبيه زُهر (حسان) أوزهر ، أو وصف روض مطلق على نهر ، وهو
من أغرى بهذين النوعين ، وذلك أما لميل غريزي في فطرته ، أو لأن دمشق مترّوح فكرته » . ولم
يطل به الدهر بين هذه المفاتن التي كانت تحلب له . فقد توفي في الثالثة والثلاثين من عمره سنة
١٠٨١ للهجرة . ومن قوله في نهر وروض على حافظيه :

النَّهْرُ يَصْدَا بِهَاتِيكَ الظَّلَالِ كَمَا يَصْدَا مِنَ الْغَمِّدِ حَدُّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
وَالزُّهْرُ يَفْرَشُ فِي شَطْبِهِ مَارَقَتُ فِيهَا السَّحَابُ مِنْ رَيْطٍ وَمِنْ حَبَرٍ
رَبِيعَةُ الْوَشْيِ لَا يَنْفَكُ زِبْرَجُهَا يَحْلُو لَنَا مِنْ حِلَالِهَا أَحْسَنَ الصُّورِ ^(٢)

مردم للديوان .

(٢) الزبرج : الحلية من الوشى أو الجواهر .

(١) انظر في ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٣٩٠/٢

ونفحة الریحانة ٣٤/٢ وديوانه (طبع المجمع العلمي

العربي في دمشق) وانظر مقدمتي أحمد الجندی وخليل

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها . وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف ، أما هي فتصدأ بأغادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ، والزهر يفرش في شطيه مارقت أو نقشت فيها السحاب من رِيْط وجِرِّ أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ربيعى لا يزال زبرجه ونقشه يجلو من حَلَى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور .. ويذكر مجلسا من مجالس أنسه في بعض متزهات دمشق قائلا :

ومجلسٍ حَفَّتِ الغصونُ بنا فيه ووجهُ الرياض مبتهجُ
كأن أوراقها يرفُّ بها فوق الندامى نَسِيمُها الأريجُ
خُضْرُ من الأُزْرِ لاتزال بها مناكبُ الراقصات تختلج

وهى صورة بديعة ، إذ يجعل أوراق الاغصان - حين يرفّ نسيمها فوق الندامى - كأنها أزر أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المختلجة المتحركة فى أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول فى بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يثنيها الصبا والبدرُ من خللي يلوح ويُخجَبُ
حسناً قد عامتْ وأرختْ شعرها فى لُجَّةِ والموجُ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسنا فى لُجَّةِ مرخية ذوائب شعرها وموج أضوائها من حولها يلعب فى فضاء الطبيعة الساحرة . وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل ، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بجمرة كقوله :

وزهرِ قَرْنُفُلٍ فى الروض يَحْكِي عَقِيقَ دمٍ على صفحاتِ ماءٍ
رأى وَجَنَاتٍ من أهوى فأغضى فبان بوجهه أثرُ الحياء

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبتة ، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطبيعة واللهو والمجون موشحات مختلفة منها ما عارض به لسان الدين بن الخطيب فى موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همى » . وله أيضا شعر دورى تتألف المنظومة منه بيتين بيتين . وبدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا ما يقوله المحبى من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة البديعة فى التشايبه العجيبة .

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومربنا في الفصل الأول استعراض لنسآكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوى وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة . وحين قام نظام الرهينة في المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتعممها أضواء الإسلام ، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النسآك وتشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتتطير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها في غير هذا الموضع ، وطبيعى أن يجد ذلك صدهاء في الشعر والشعراء الشاميين . ويلقانا في ديوان أبى تمام باب للزهد ، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبى فراس (١) :

أما . يردع الموت أهلَ النهى ويمنع عن غيِّه مَنْ غوى
فيا لاهيًّا آمناً والحجامُ إليه سريعٌ قريبُ المدى
إذا مامرتَ بأهلِ القبورِ تيقنتُ أنك منهم غدا
فلا أملٌ غيرُ عفوِ الإلهِ ولا عملٌ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع الغوى عن غيِّه ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاهٍ آمنٍ على نفسه ولا يفكر في هول ما ينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى عفوريه فحرىُّ به أن يكفَّ عن كل موبقة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التفكير في الحياة والموت نهاية كل حى وينشد (٢) :

هي النفسُ تهوى الرُّحْبَ في كل موطنٍ فكيفَ بها إن ضاقَ في الأرضِ قبرُها
وهل يرتجى خُضرَ الملابسِ ظاعنٌ وقد مُزِّتٌ في باطنِ التُّربِ غُبرُها
نوائبُ أَلقتْ في النفوسِ جرائحاً عصَى كلِّ آسٍ في البريةِ سبرُها
لى القوتِ فليغمُرْ سرَّنديبَ حظُّها من الدرِّ أو يكثرَ بغانةِ تَبَرُّها

(١) الديوان ٦/٢

(٢) اللزوميات (طبع مطبعة المحروسة) ٣١٢/١

وأبر العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يَكْنَى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موجش تغبر فيه هذه الثياب وتمزق تمزيقاً . ويقول تلك نوابت تصيب النفوس في الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصى سبورها ومعرفة غورها على كل طبيب ، ويذكر أنه لا يفكر في طيبات الحياة ولا تمر بمخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسد رمقه ، ولتمتلي سرنديب - أو كما تسمى الآن بيلان - بمغاوص لآلئها من الدرر وليكثر بغانة في غربي إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسبي قوتي . ومربنا أنه كان زاهدا في الدنيا ونعيمها ، مكتفيا بالعدس والتين . ومربنا أيضا أن ديوانه اللزوميات في مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال في مقدمته . ويقول ابن سنان الحفاجي^(١) :

استغفر الله القديم وعُدَّ به من شرِّ غاوٍ في الحُطامِ منافسٍ
وافعلُ جميلا لا يضيعُ صنيعةً واسمَحْ بقوتك للضعيف البائسِ
واقنعْ في عيش القناعة نعمةً لاتقي كَفَّ الزمان الخالسِ
لا تفخرنَّ وإن فعلتَ فبالثَّقَى ناضلٌ وفي بَذلِ المكارمِ نافسٍ

وهو يستغفر الله من شر كل غاوٍ منافس في حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصي بفعل الجميل ومدِّ اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصي أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لا يخاف على شيء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقى ولا ينافس إلا في المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبي من شعراء الخريدة^(٢) :

عمرت دارَ فناءٍ لابقاء لها ظنًّا بأنك عنها غيرُ منتقلٍ
أتعبتَ نفسك لا الدنيا ظفرتَ بها وأنت لاشكُّ في الأخرى على وجلٍ
دارُ الإقامة أولى بالعمارة من دارِ نعيمك فيها غيرُ متصلٍ
فاعملْ لنفسك ماترجو النجاة به فليس يُنجيك إلا صالحُ العملِ

وهو يزهّد في الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التي ينبغي أن يعمل لها الإنسان ، وهي حقا الأجدر بأن يقدم لها كل ما يستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١٥٨/٢

(١) الديوان ص ٥٧

ويقول الإمام النووي الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة^(١) .

وجدتُ القناعةَ أصلَ الغنى فصرتُ بأذيالها مُمتسِكُ
فلاذا يراني على بابهِ ولاذا يراني به منهمكُ
وعشتُ غنياً بلا درهمٍ أمرُّ على الناسِ شبهَ المَلِكِ

وكان محيي الدين النووي إماماً ورعاً زاهداً مثابراً على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكماء - كما يقول - يراه على باب طالب حاجه ، ولا أحد يراه مشغولاً به منهمكاً ، فانهماكه إنما هو في العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس في أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوي آخذاً نفسه في حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابي الذي مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تطوُّها أقدامنا غير واعين ، بل إنه يبعد في خياله قائلاً .

قد غَنِينَا عن الدروس بما تُمَنِّ لى علينا صحائفُ الأيامِ
من عَظَاتٍ تُتَلَّى بغير لسانٍ وسطورٍ خُطَّتْ بلا أقلامِ
ولو أَنَّ العيونَ زالَ غَشاها لرَأَتْ كُلَّ أَخْمَصٍ فوق هامِ^(٢)
بل وفي كل وردةٍ أَلْفُ خَدٍّ وقضيبٍ يَمِيسُ أَلْفُ قَوَامِ

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر في هذا المصير المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم التراب ، حتى لكأن أى مكان لا يخلو منهم ، وحتى لكأننا نطوهم بأقدامنا ، فهم منبثون في كل بقعة وفي كل مكان . ويقول البابي لوزالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا - ويالهول مانرى - أقداما تطأ رءوسا ، ولها لنا أن الورد النابت من الأرض يستمد حمرة من أَلْفِ خَدٍّ ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من أَلْفِ قَدٍّ . ويلاحظ المحبب أن المشهور في هذا المعنى قول أبي العلاء .

خَفَّفِ الوَطءَ ما أَظُنُّ أَدِيمَ الِ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبي) ٣٠١/١

(٢) الأخمص : باطن القدم : الهام : الرأس .

وقول مهيار :

رُويْدًا بأخفافِ المطىِّ فلانما تُداسُ جباهُ في الترى وخذودُ
وكان البابی نظر إلى معنى البيتين جميعا ، ويضيف المحبى أن مترع هذا كله قول المتنبي :
ويَدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا ويمشى أواخرنا على هامِ الأوالى
والأوالى : الأوائل . ولا يكتفى المحبى بذلك ، بل يقول أن معنى بيتى البابی دقيق ، وفي
رُباعيات عمر الخيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة ، وبذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى
على هذه الصورة :

في الاعتبار بمن مضى من قبلنا عيِّرَ وتلك هدايةُ المسترشِدِ
فلكم طوتُ تِرباؤنا أما وهل مَيَّتْ بغيرِ ثرائها لم يُلْحَدِ
حتى كأن شَقِيْقَها دمُ أسرةِ سفكتُ دماءَهُمْ عيونُ الخُرْدِ
وبنَفْسِجُ الروضِ الندى كأنه خِيْلانُ وَجَناتِ الخدودِ الوُرْدِ

فالشقيق الأحمر القاني يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبنفسج
الأحمر القائم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد في التصور والخيال .
وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجرى نساك - كما مر بنا في الفصل الأول - أقرب إلى
المتصوفة منهم إلى الزهاد في مقلمتهم ابن الجلاء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمونها .
طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة
من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة ، وامتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام .
وذكرنا في الفصل الأول نزول الغزالي بها سنة ٤٨٨ هـ وأنه أخذ يستضيء بقوة بما كتبه أبونصر
السراج والقشيري في الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ،
فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل . وبذلك
سدَّ الثلمة التي كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينهما . وزادها دعماً نزول حملة
الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات
والرباطات للمتصوفة . وتبعهم في ذلك نور الدين حين أصبحت الشام في قبضته ، بل لقد اتسع
في العناية بهم ورصد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة في عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمماليك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر في التصوف تياران كبيران : تيار سني كانت تتبعه جماهير الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ماصورنا ذلك في غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفي يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثله في القرن السادس الهجري يحيى السهروردي الذي ترجمنا له في إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثل هذا التيار في القرن السابع محيي الدين بن عربي الذي نشأ في الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه في دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفي . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل في أعماقه . وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردي وأيضاً أشعار ابن الحلاج الصوفي المتفلسف القديم تؤثر هي وأشعار التيار الصوفي السني في كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفي شعري . وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية في الناس ظهور الطريقة القلندرية التي ظهرت في القرن السابع الهجري مع مادخلها من انحرافات ذكرناها في الفصل الأول ، وأيضاً ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المماليك . وسنترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفي الفلسفي ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي ، أما ابن عربي فعداؤه في الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بترعتي التصوف والزهد مديح نبوي كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويعا بخلقهم الكريم ورسالته العظمى وجهاده في سبيل الله وفتوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبث كثير منه في مدائحهم لأئمتهم العلويين وفي مرثيتهم للحسين علي نحو ما نجد عند الصنوبري الذي ترجمنا له في كتاب العصر العباسي الثاني .. ولأبي العلاء في اللزوميات قصيدة في مديحه ، وفيها يشيد به ورسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاكم إلى خير الأمور محمد	وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى	وشهب الدجى من طالعات آفل
فصلني عليه الله ماذر شارق	وما فت مسكا ذكره في المحافل

وعوالى القنا أو الرماح هى الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتغمربه الكون من الضياء وخلق النجوم التى تبرز تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو مدبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحفّه بركاته ماطلعت شمس وماعطر ذكره المحافل بمسك لا يضاهيه مسك .

ويستخدم المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التتار ، إذ أحسّ الشعراء - بحق - أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية (١) :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدهُ وللشهادة تجريحُ وتعديلُ
لولاہ لم تك لاشمسُ ولا قرُ ولا الفُراتُ وجاراه ولا الثَّيلُ
مرتلُ الوحى يتلوهُ ويدرسه ولم يكن لكلام الله ترتيلُ
وسيدُ الرُّسلِ حقاً لاخفاء به وشافعُ فى جميع الناس مقبولُ
بثَّتْ نبوتُه الأخبارُ إذ نطقتُ فحدثتُ عنه توراۃ وإنجيلُ

ويقول ابن الساعاتى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة المحمدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاہ لم تك شمس ولا قر ولا حياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رتل الكلام ، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسالة العظمى . ويقول فتیان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملا شفاعته فى يوم الحشر متمنيا زيارته (٢) :

أؤمِّلُ من خير الأنام شفاعۃً بها فى نعيم الجنان أخلدُ
وَدِدْتُ بآنى زرتُ قبرك راجلا وقبَلْتُ تُرباً أنت فيها موَسَّدُ
ومرَّغتُ خَدَّى عند قبرك ضارعا بأرضٍ حصاها لؤلؤ وزبرجدُ
وذاك ضريحُ يحسُدُ المسكُ تُربۃً وكلُّ شريفٍ القدر لاشك يُحسدُ

وهو يؤمِّل فى شفاعته الرسول بالغفران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس فى الحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبَّله وعفَّر خدَّه بما حوله من التراب ضارعا متوسلا بأرض

(٢) ديوان فتیان ص ١٠٩

(١) ديوان ابن الساعاتى ٤٨/١

حساها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على ما يحمل من طيب لا يماثله طيب . وللسخاوى على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع في المديح النبوى . وفي مدحة نبوية يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثوى الرسول الكريم^(١) :

أَرْضَ الْأَحْبَةِ مِنْ سَفْحٍ وَمِنْ كُثْبٍ سَقَاكِ مِنْهُمْ الْأَنْوَاءُ مِنْ كُثْبٍ^(٢)
يَاسَاكُنِي طَيْبَةَ الْفَيْحَاءِ هَلْ زَمَنْ يُدْنِي الْحَبَّ لَنَيْلِ الْحَبِّ وَالْأَرْبِ
أَرْضُ مَعَ اللَّهِ عَيْنُ الشَّمْسِ تَحْرُسُهَا فَإِنْ تَغِبْ حَرَسَتْهَا أَعَيْنُ الشُّهْبِ

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكثباناً من كُثْبٍ أو قرب لتظل تزهر بالشذى العطر ، ويتمنى زمناً يحقق أربه وأمنيته من زيارة الحدث الطاهر . ويقول إن عين الشمس تحرسه نهاراً وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلاً حراسة يرعاها الله جلّ علاه . وللشهاب محمود ديوان في مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النبوية النبوية لإسماعيل النبهاني بطائفة من مدائحه ، وفي إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركبته إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق في غريبها ولم يلبثوا أن زاروا القبر الزكى ، يقول^(٣) :

وَإِذَا شَارَفُوا الْعَقِيقَ تَرَاءَتْ مِنْ رُبَاهِ سَنَا الْقِيَابِ الزُّهْرِ
وَتَلَقَّاهُمْ بَشِيرُ التَّلَاقِ بِقَبُولٍ تَسْرَى قُبَيْلَ الْفَجْرِ
وَشَذَا الرُّوضَةِ الَّتِي بَيْنَ أَزْكَى مَنِيرٍ فِي الدُّنَا وَأَشْرَفِ قَبْرِ
حَبْذَا ذَاكَ مِنْ مَقَامٍ كَرِيمٍ يُشْتَرَى يَوْمَهُ بِكُلِّ الْعُمُرِ

وهو يصور فرحة ركبته أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاقى وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير إلى الحديث النبوى : « ما بين قبري والمنبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثل أمام القبر الطاهر يُشْتَرَى يومها بالعمر كله . ولكمال الدين محمد بن على الزملكانى المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها^(٣) :

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤

(٢) المجموعة النبوية ١٧٣/٢

(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلَّهم وفاتحُ الخيرِ ماحي كلِّ إشراكٍ
 قد نال مرتبةً ما نالها أحدٌ من أنبياءِ ذوى فضلٍ وأملاكٍ
 يا صاحبَ الجاهِ عند الله خالقهِ ماردٌ جاهك إلا كلُّ أفاكٍ
 ها قد قصَّدْتُك أشكو بعض ما صنعتُ بي الذنوبُ وهذا ملجأُ الشاكي
 عليك من ربِّك الله الصلاةُ كما منا عليك السلامُ الطيبُ الزاكي

والزملكاني يقرر حقيقة كبرى ، فحمد عليه السلام خير خلق الله وماحي الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله في حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة في المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى البابي من مدحة نبوية بديعة^(١) :

إليك رسولَ الله قد جاء ضارعاً أخو عثرةٍ يرجو الإقالة مذنبُ
 فبابك بابُ الله ما عنه مهربُ وطالبه من غير بابك يُحجبُ
 أغثنى تداركني أجرتني فلانني لقيتني إن تراخى عنه لطفك يعطبُ
 وأبعدُ شيء أن تضيق برحبها شفاعتك العظمى بنا فهي أرحبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقيله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيث به لئلاً أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس في المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول في هذا اليوم ، فيفوز برضوان ربه . وللبابي يتوسل^(٢) :

يا حيُّ يا قيوم قد بهرَ العقولَ سنا بهائكُ
 إني سألتك بالذي جمعَ القلوبَ على ولائكُ
 نورِ الوجود خلاصة الـ كونهن صفوة أنبيائكُ
 إلا نظرتَ لمستغيـ ث عائدٍ بك من بلائكُ
 فالطفُ به فيما جرى في طيِّ علمك من قضائكُ

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الرحانة ٤٣٧/٢

(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الرحانة ٤٣٤/٢

والبابي يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذي جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد في كل نور : في نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذ وسيلة إلى ربه وشفيعه ، حتى يلطف به في قضائه وما جرى في طي علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوى وهو أول من نقف عنده .

عبد^(١) العزيز الأنصارى

هو شرف الدين صاحب عبد العزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصارى ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها في عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزورى سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبي عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقي في منصبه مدة ، أو لعله عمل في منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة في سوق الخواصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله في القضاء وبين التجارة أو كان يزاوها حين يعنى منه . وولد له ابنه عبد العزيز سنة ٥٨٦ وطبيعى أن يُعنى القاضى بترية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبد العزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب مافيها نزل به بغداد فاستمع بها إل شيخ المدرسة النظامية ، وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حمة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبد العزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحه وكذلك في زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حمة بعده السلطان قليج أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبد العزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢هـ) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذ المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صبيا في العاشرة

(١) انظر في عبد العزيز الأنصارى وشعره فوات الوفيات ٥٩٨/١ وذيل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والعبر ٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ وطبقات الشافعية

٢٥٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والخزانة للحموى ص ٢٤٩ ، ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) بتحقيق د. عمر موسى

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبلبك ودمشق الذي ذكره مترجموه في هذا التاريخ . وكان يلمُّ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ في صحبة أميرها الناصر يوسف في زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتنعقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعقدُ في هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصارى الحلقات لسماع الحديث عنه ، ومن سمعه منه الحافظ الدمياطى محدث مصر واليونيى محدث دمشق ، ويقول ابن تغرى برى عنه : « برع في الفقه والحديث والأدب وأفقى ودرس وتقدم عند الملوك وترسل عنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا » وينقل صاحب الفوات عن الصفدى في وصف شعره وشاعريته قوله : « لا أعرف في شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسرى ولا أكثر ، وإن له في لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقتة ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافى المتمكنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ » وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعدوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى في شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله في أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدها تجاه حجرته الشريفة :

يا خاتمَ الرُّسل الكرام وفارجَ الـ	كُربِ العِظام بفعله والمَقولِ
ها قد وردنا من ضريحك مورداً	نُشْفى به من كل داءٍ مُعْضِلِ
أدعوك للجُلَى وتلك شفاعَةٌ	لم تُرَضَ لى أنى أخاف وأنت لى
ولقد أتيتك مادحا لتجيزنى	فى الحشر كاساتِ الرِّحيقِ السِّلْسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرِّج الكرب الذى ورد على جدته الطاهر ومعينه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه - حين يشتد بالناس أوار العطش ولهبه - كاسات من الرِّحيق الصافى . ويقول فى مدحة نبوية ثانية :

ويلأى من نومى المشرّد	وآه من شَمْلَى المبدّد
غُصْنُ نَقَا حَلِّ عَقْدِ صَبْرِي	بِلينِ خَصْرِ يَكَاد يُعَقِّدُ
فمن رأى ذلك الوشاح الـ	صَّائِمَ صَلَّى على مُحَمَّد

أشرف مَنْ في النهار ناجى وخير مَنْ في الدُّجى تهجد
وغيرُ بدعٍ لمستجيرٍ به إذا نال كلُّ مقصِدٍ

وموسيقى الأبيات بديعة . وقد تخلص تخلصاً رائعاً من الغزل إلى مديح المصطفى بذكر وشاح صاحبه الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينه ، فمن رآها - كما يقول - صلى على الرسول إعجاباً بها واستحساناً لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهاراً وتهجده ليلاً وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسا منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطرا اقتبس قافية .

وزهديات الأنصارى كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيقى فى متاع الحياة الدنيا . وفى إحداها يقول :

مُلْكُ القنَاعَةِ عَزُّ يُذْهِبُ الذَّلَّةَ فَن حَوَى كَنْزَهُ لَمْ يُؤْتَ مِنْ قِلَّةِ
تَبًّا لَذَى طَمَعٍ مُسْتَعْبِدٍ وَمُنَى لَا تَسْقُرُّ عَلَى رِيٍّ بَلَا غُلَّةِ
يَسُومُ إِبْلَاعَهُ مِنْ رِيْقِهِ بَلَلًا وَلَيْسَ يَرَوَى وَلَوْ أْبْلَعَتْهُ دِجَلَةٌ
فَانْقَعُ غَلِيلُكَ مِنْ نَهْلٍ بَلَا عِلَلٍ وَاقْنَعْ إِذَا أَكَلْتُ أَغْنَتْكَ عَنْ أَكَلَةٍ

فالقناعة - فى رأيه - عز مابعده عز ، ومن حوى كنزها الذى لا يفنى لم يشك من قلة ، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومنى لا تروى أبدا فداثما صاحبها يعانى من غلّة العطش وحرارته ، ودائمًا يريد أن يبل ريقه ، إذ لا يروى أبدا ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكتف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشربة الأولى من الماء ولا تطلب العلل أو الشربة الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وَأَنْعِ أُخْرَى دَائِمٌ فِيهَا نَعِيمٌ وَشِقَاءٌ وَتَنْصِلُ مِنْ خَطِيئَتِهَا
وَإِذَا صَحَّ لَكَ الْقَوْتُ تَعْلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ
كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قُصَارَاهُ الْفَنَاءُ
وَلَأَهْلُ الْخُلْدِ فِي الْخُلْدِ بِدِ اللَّهِ الْبَقَاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئاته وذنوبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل مافيها هالك وفان ، والسعادة إنما هي لأهل الجنة والله البقاء والدوام .

وفي الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالا يلزم . ومربنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى في خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والاداء .

محمد^(١) بن سوار

هو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الحضير الشيباني الدمشقي المولد والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفي سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عربى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريرى المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ ومما يشهد لقولهم مرثيته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبُ كَمَا شَاءَ الْإِلَهُ جَلِيلُ ذَهَلْتُ لَدَيْهِ بَصَائِرُ وَعَقُولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غَوَى نهجهم وضلوا السبيل وسُدَّ الحجاب الإلهى دون أبصار المتصوفة وخُتِمَت دنان خمر الحب الربانى . وإذا رجعنا إلى الحريرى عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله - كما أفقى فقهاء حلب بقتل السهروردى - لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردى المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريرى لم تؤد به إلى انحرافات ، والسبب فى ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل فى البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى - فيمن لقى - شهاب الدين السهروردى الصوفى السنى البغدادى وسمع عليه وأجلسه فى ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوف

الحريرى فى الفوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبد المنعم الحيمى فى الفوات ٤٥٨/٢ .

(١) انظر فى محمد بن سوار وشعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والرافى ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هي أن ابن سوار حجّ ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة - وكانت لابن الخيمي المتصوف المصري تلميذ ابن الفارض - فادعاها لنفسه ، فراجع ابن الخيمي وعبثا حاول أن يقنعه ، فتحاكما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروى ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي .

ولم نصل بين ابن سوار والسهروردى البغدادى لأنه كان سنى التصوف وتصوف ابن سوار فلسفى ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربى ومافيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمّ صبحى سَمَرًا أو أراكُ فإنما مقصدهم أن أراكُ
وإن ترنّمتُ بذكر الحمى فإنما عقْدُ ضميرى حياكُ
وإن بكى صبُّ حبيبًا فما أحسب إلا أنه قد بكاكُ
ملأتُ كلَّ الكون عشقا فما أعرف قلبا خاليا من هواكُ

فصحبه إن أموا به شجر السمر والأراك فمقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذى يحل فى كل مكان ، وهو حين يذكر فى غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حبيبًا إنما يبكيه لأنه يحلّ فى جميع الأشخاص والأشياء ، فما يعشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويعشقونه ، وكأن كل شيء مرآة له ، إذ يترأى فى كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يامنّ يشير إليهم المتكلّم وإليهم يتوجّه المتظلم
وعليهم يحلو التأسف والأسى ويلدّ لوعات الغرام المغم
هذا الوجود وإن تعدّد ظاهرا وحياتكم مافيه إلا أنتم
وإذا نطقتُ فى صفات جمالكم وإذا سألتُ الكائنات فعنكم
وإذا سكّرتُ فنّ مدامة حبكم وبذكركم فى سكرتى أترنم
وإذا نظمتُ تغزلا فى صورة فلاجل حُسْنِكُم المحجّب أنظم
أنتم حقيقة كلّ موجود بدّا ووجود هذى الكائنات توهم

والأبيات صريحة فى أنه مؤمن بوحدة الوجود . فالله يحل فى الوجود جميعه ، وكل مافيه من

أشخاص وأشياء مظاهر له ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد في كل جميل . وهو إذا سكر فسكره من خمر الحب الإلهي الذي يترنم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار . وهو إذا تغزل في صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الرباني . وإنه لينبث في كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهى نفس الأفكار التى تلقانا عند ابن عربى ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خَلَا مِنْهُ طَرْفِي وَامْتَلَأَ مِنْهُ خَاطِرِي فَطَرَفِي لَهُ شَاكٍ وَقَلْبِي شَاكِرٌ
وَلَوْ أَنِّي أَنْصَفْتُ لَمْ تَشْكُ مُقَلَّتِي بِعَادَا وَدَارَاتُ الوجودِ مَظَاهِرُ

فالله يمتزج بروحه ولا يراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لا تبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهد في كل الأشياء . وكان للمتصوفة لأيامه ليال يحيونها بالدفوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السحر ، ويروى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموى ليلة من تلك الليالى فغنى المغنى من شعره :

وَمَا أَنْتَ غَيْرُ الْكَوْنِ بَلْ أَنْتَ عَيْنُهُ وَيَفْهَمُ هَذَا السِّرَّ مَنْ هُوَ ذَائِقُهُ

فقال ابن الحكم : كفر ، فقال ابن سوار : لا ، ما كفر ، لكن أنت ماتفهم ، وتشوش المجلس . وفى البيت وفى بقية الشعر ما يدل على ابن سوار يريد أن يقول - على أساس ما يزرعه من فكرة وحدة الوجود - إن الله هو الكون أو الوجود بجميع ما فيه ، والفكرة بأساسها - كما يرفضها ابن الحكم - يرفضها - كما ذكرنا ذلك أيضا - أهل السنة وأصحاب التصوف السنى .

عفيف^(١) الدين التلمسانى

هو سليمان بن على بن عبد الله الكوفى التلمسانى ، وتدل نسبته إلى تلمسان فى الجزائر على أنه مغربى الأصل ، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آباءه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو ،

الزاهرة ٢٩/٨ والشذرات ٤١٢/٥ وديوان الحقائق
ومجموع الرقائق لعبد الغنى النابلسى ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ .
وديوان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت .

(١) انظر فى عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات
الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمى ٤٦٣/٢
وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ما عندهم ، ولعل ذلك ما جعله يؤلف في كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت في دمشق وفي دواوينها وخاصة في بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوي أحد أتباع ابن عربي ، ويبدو أنه اعتنق مذهبه في وحدة الوجود على يده . ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خاتمه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزق في أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقى في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي ، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود ، فأكدّها في نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها في الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربي ، ومذهبه في وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل في أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله في دواوين دمشق وعمله في ميدان التصوف حتى توفي سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين - كما ذكرنا آنفا - تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربي ، مما جعله يُعنى بشرح أعقد كتبه في التصوف ونقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفي مكتبة ولي الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربي في ديوانه « ترجمان الأشواق » من مثل قوله في قصيدته التي نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمي المذكورة آنفا في ترجمة ابن سوار :

لولا الحيمى وظباء بالحيمى عُرْبُ	ما كان في البارق النجديّ لى أَرَبُ
وفي رياض بيوت الحى من إضمٍ	وَرَدُ جَنِيٍّ ومن أكامه الثقبُ
لاتقدر الحُجبُ أن تُخفى محاسنه	وإنما في سناه الحُجبُ تُحجبُ
ياسالما في الهوى مما أكابده	رفقا بأحشاء صبّ شفه الوصبُ
هل السلامة إلا أن أموت بهم	وَجَدًا وإلا فبقياى هى العطبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد المحبين إزاء محبوبه الربانى ، ويتحدث عنه حديثا رمزيا ، فلولا

حماه ما كان له أمل وراء البارق النجدى ، ولا كان له ولوع بورد الحدود فى رياض بيوت الحى من إضم . ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التى تُسدّل على تلك الحدود هى أكمام الورود ، ويقول إن الحجب لا تستطيع أن تخفى محاسنه إذ تذوب فى سناه وضيائه المشرق . ويذكر أن أحشائه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى فى أن يموت فى حب ربه وجدا وهيامًا ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لا يفيق مما شرب من دَنّ هذا الحب الإلهى :

لا تحسبوا أننى عن حبّكم سالى	وحقّكم لم يزل حالى بكم حالى
يا ساكنين قوادى وهو منزلكم	لا عشتُ يوما أراه منكم خالى
أنتم بقلبي أدنى من جوائحه	حقًا على رغم حسّادى وعُدّالى
أوضحتم لمحبّيكم طريقكم	حاشاكم تهجرونى بعد إيصالى

وفى البيت الأول تورية واضحة فى كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما فى « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لا يزال بحبه لربه حاليا أومزدانا بحلى بديعة . ويقول إن محبوه الإلهى حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوائحه وما يحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويتضرع إلى محبوه الربانى أن لا يهجره بعد وصله . ويقول :

يا أصيحابى بذى سلم	من أصيحابى وما السلم
أنا عنى اليوم فى شغل	فاذكرونى إن نسينكم
وأشيعوا فى الحمى خبرى	وأذيعوا السرّ واكتتموا
لا يرانى الحبّ مُسْنِنًا	بعد ملاحته لى الخيم
كنت قبل اليوم فى حلم	وتقضّى ذلك الحلم
فزمانى كله طرب	دونه الأوتار والتّقم

إنه على وشك أن يتحقق أمله فى الوصول إلى محبوه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بذى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له أخيام محبوه ، كما يقول ، فيعلن أنه فى شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن ينتفى عن طريقه إلى محبوه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضّى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحون . ولما في هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفي مندلع خَمَّسها عبدالغنى النابلسي مع أبيات متصلة بهما لم ننشدها ، وهو وجد كان لا يزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا .

عبدالغنى ^(١) النابلسي

هو عبدالغنى بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموي . ودرس فيها بالمدرسة القيمرية وجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبدالغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُني بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفي ، ودفعه إلى حلقات العلماء في دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوي والتفسير ، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرأها . وسرعان ما نضج علميا وهو لا يزال في العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت في كتاب سلك الدرر للمرادى سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانتظم في الطريقة القادرية ثم في الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المعية في الطريقة النقشبندية ، ثم جذبته إليه مذهب ابن عربي الصوفي الفلسفي ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح في ديوانه الصوفي . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التي آمن بها من قبله إمامه ابن عربي ، ويردّد دائما : ليس في الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه	الله	وجود	واحد	حكمة	فينا	حرام	وحلال
وهو	حق	وسواه	باطل	قال	في	القرآن	والسبع الطوال
أيما	أنتم	تولوا	ثم	وَجَدَ	الْإِلَهَ	الْحَقَّ	محمودِ الفعال

(١) انظر في عبدالغنى النابلسي وأشعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٥٣٠/٣ ومفحة الرحانة ١٣٧/٢ وتاريخ الجبرق ١٥٤/١ وله ديوان الحقائق ومجموع

الرقائق في صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية : طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية في ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى في سورة البقرة : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) والآية إنما تشير إلى أن أى مكان من المشرق والمغرب بأمرهم الله باتخاذ قبة تكون هناك جهته التي أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالاً بها ومتحد معها كما يذهب النابلسي وابن عربي زاعمين أن ذاته هي ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويقول النابلسي متحدنا بلسان الذات العلية :

ألا إن ذاتي ذاتُ كلِّ الخلائق وسلَّ عنه ذا علمٍ كريمٍ الخلائقِ
ولا صفةٌ إلا ومَنى تعيَّنتُ لموصوفها إذ كنتُ أصلَ الدقائقِ
أنا الجوهرُ السَّاري بغيرِ سِرايةٍ ألوحُ وأخفى في جميعِ الحقائقِ
أنا النورُ نورُ العينِ مني تكوَّنتُ عيونُ البرايا من مشوقٍ وشائقِ

فالله جوهر الوجود ، يلوح ويخفى ولاسواه ، إذ كل ما في الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسي جاهداً أن يفرِّق بين القول بالحلول وأن الله يحلُّ في جميع الموجودات وبين ما يزعمه هو وابن عربي من وحدة الوجود ، وإنما لتبلغ به أن يقول في مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس في الحضرة ثاني » أو كما يقول :

اثنان نحن وفي الحقيقة واحدٌ لكنَّ أنا الأدنى وأنت الأكبرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله - جل جلاله - واحد . وهي نفسها فكرة وحدة الوجود التي يحاول جاهداً الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفي على طريقة ابن عربي . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يحيله رموزاً خالصة على نحو ما نجد في شرحه لأول بيت في القصيدة اليائية بالديوان :

سائقَ الأظعانِ يَطْوِي البِيدَ طَيَّ مُنْعِمًا عَرَّجَ على كُتُبَانِ طَيَّ

يقول : « سائق الأظعان هو الله تعالى ، والأظعان : الناس وكتبان طي كناية عن المقامات المحمدية التي عددها كرمال الكتيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصله - كما يوصل جميع المؤمنين - إليها » . وابن الفارض لم يقصد إلى شيء من هذا كله ، إنما خاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طي على حافتي نجد والحجاز ليتمهَّل قليلاً حتى يحبِّي من يمر بهم في طريقه إلى الحجاز معبراً بذلك عن حنينه إليه . وطبيعي وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربي وتمثل كثيراً من

أشعار المتصوفة خمسا لها ومشطرا كما يتضح في ديوانه الصوفي أن نراه تارة يتغزل في بشينة وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهي كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الخمر وساقها وكأسها وشرابها وحبابها وما تحدث في روحه من نشوة وفي عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلي الفلسفي لا كما يؤمن المتصوفة بأن هذا العلم إنما يستمد من القلب ، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم المحبة القلبية . وله قصيدة بديعة في الاستغفار من ذنوبه وخطاياها امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله في الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله :

نور طة المصطفى منه جميع الكائنات وبه كان الترقى في جميع الدرجات

ونحس في الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية في الكون بأسره التي تحفظ عليه كيانه وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفي الديوان موشحات ودوبيات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها المواليا العامة ، وفي الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن « كان وكان » العامي .

٦

شعراء شعبيون

لأنقصد بشعبية الشعراء في الشام أنهم نشأوا في بيئاتها الشعبية من سلاله عامتها ، فذا لما جمهور الشعراء في كل بلد عربي انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرستقراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أشهره الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبية وأيضاً بهرام شاه الأيوبي صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونقرأ من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العماد في خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب « حصن كيفا » حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا من عداهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف عملاً يكفل له عيشه ، مثل يحيى الخباز الحموي الذي أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعتته . شمس الدين المزين : لا نريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم في أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامة لسانا لهم في أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع في الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هي : الزجل والموالي ؛ والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ في الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه في القرن الخامس ثم شاع في البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا في الشام يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفي الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة في كتابه : « العاقل الحالى » ينوه بشيوع الزجل لزمنة هناك ، ويقول إنه لقي من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطى إمام هذا الفن الشعبي بها كما لقي بحلب راوية ثقة من أكبر رواة هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديوانى الزجالين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغليش حملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويذكر صفي الدين أنه كان قد حصل على الديوانين في زيارته لمصر (٧٢٣ - ٧٢٦ هـ) غير أنها كانا بخط مغربى تعسر قراءة بعضه ، فصصح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته ، وأجاز له بخطه مانقله عن نسخته ، وعرفه بمشايع الزجل في حلب . ومن أعلامه البارعين حينئذ بحجة علاء الدين بن مقاتل ، وسنترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذى احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التى عثر عليها جتزر برج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن .. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألف شرحا على بردة البوصيرى باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم^(١) ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا ، وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها . وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصيح استطرافا ، وقلما تُصاغ صياغة فصيحة ، إذ تَطَرَّد فيها

(١) انظر خزانة الأدب للحموى ص ٦ . ١٧٦

العامية ، ومما يلقانا من طرائفها قول جوبان بن مسعود الدمشقي المتوفى في حدود سنة ٦٨٠ للهجرة^(١) :

أفارقهُ وأول إني قد اتَّسَلَّيتُ وريحتُ قلبي وزال الهم واتَّخَلَّيتُ
واذكر مساويه في حق إذا وليتُ وإذا رجعتُ نِسيتُ الكلَّ واتَّخَلَّيتُ

والتورية واضحة في كلمة « واتَّخَلَّيتُ » المكررة قافيةً للبيتين ، والأولى من التخلّي بمعنى أنه أصبح خاليا من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقي صاحبه أصابه ذهول ، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُبعد عن الهم .

ونلتقي بمعاصره عز الدين بن السويدي المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسي سيد قومه الصحابي الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان - كما يقول بعض من ترجموا له - من أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا^(٢) :

البدر والسَّعد ذا شِبْهكَ ذا نَجْمك والقَدُّ واللَّحْظُ ذا رِمْحكَ وذا سَهْمك
والبغضُ والحبُّ ذا قِسْمِي وذا قِسْمك والمسكُ والحسنُ ذا خالكُ وذا عَمكُ

فصاحبه تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجبتها والحسن يعم كل أعضائها وفي كلمة « عَمَّكَ » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذِي قايِلِه لا خِطَا والقَصْدُ تُسْمَعنا ما النَحْوُ؟ قالتْ لها : نَحْنُ بأَجْمَعنا
الرفْعُ والنَّصَبُ نا وانْتِي ومن معنا للجُرِّ ، والزَّوْجُ حَرْفُ جاءَ للمعْنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نخنا هي نحن بالفصحى . ونظّم أصحاب المواليا في جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلّوها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقى في ديوان عبد الغنى النابلسي بنحو ثمانين مواليا نكتفي منها بقوله^(٣) :

(١) فوات الوفيات ٢١٨/١

نثرى بردى ١٢٧/١

(٢) راجع في هذه المواليا وتالياتها المهمل الصافي لاس

(٣) ديوان الحقائق للنابلسي ص ٢٦٨ .

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العيوق
واخرج عن الكل أنت الكل يامعتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق
فليس في الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل في جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى
هي وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمنشدون ببغداد لإيقاظ الناس كي يتناولوا سحورهم
استعدادا للصوم ، وكانوا يختتمون كل بيتين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت
اسمها وشاعت في البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات
والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مربنا في
قسم مصر . ولابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة^(١) منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذي
امتحن به الشام ومصر سنة وفاته . وفي ديوان عبدالغنى النابلسي منظومة صوفية منه في
عشرين^(٢) بيتا تصور عقيدته في وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن
أبي العلاء بن مقاتل الرجال .

أبو^(٣) العلاء بن مقاتل

هو علي بن مقاتل الحموي ولد سنة ٦٧٤ بحماة ، ويقول ابن حجر إنه « تعانى الأدب فتعلم
الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأزجال فاشتهر بها ، وأزجاله في ديوان مفرد في مجلدين .. وكان
هذا الفن قد انتهى إليه في زمنه .. وكانت وفاته في أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر أن له
زجلا مشهورا في الملك المؤيد صاحب حماة (٧١٠ - ٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصفى
الحلى . وكان الصفى قد نزل حماة ومدح المؤيد وابنه الأفضل في أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث
من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموي في خزانته قائلا : « وكان الشيخ علاء الدين بن
مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بجدة وأبا عذرتة ، ومن سُلِّمت إليه مقاليد هذا الفن .. وأورد
الشيخ صلاح الدين الصفدى نبذة من غرر أزجاله في تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار في
ترجمته » . وينشد الحموي زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النمط :

للحموي ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والدرر الكامنة في أعيان
المائة الثامنة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد النواجي له في كتابة
عقود الآل ستة أزجال (انظر الفهرس)

(١) تنمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي
٣٠٢/٢ .

(٢) ديوان الحقائق للنابلسي ص ٣٥٦ .

(٣) انظر في أبي العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب

قلبى يحب تيّاه ليس يعشق إلا إياه فاز من وقف وحيّاه يرصد على مَحْيَاه
 بَدْر السَّما لو يطبع من رام وصالو يعطُب
 صغير يحير في أمرو غزال قهر بِسْمُرُو ليث الهوى ونمرو فاعجب لصغر عمرو
 ريم ابن عشر وأربع أرْدَى الأسود وأرعب
 أذكر نهار تبتعو وروحي كنت بعتو وخيّب ما فيه طمعتو فقال وقد سمعتو
 ارجع ولالى تتبع أخشى عليك لتتعب
 كم قدامو وخلفو مشيت مطيع لحلفو ورُمّت لثم كَفُو قال دَعْ مُنَاك وكُفُو
 فإنّ لثم إصْبَع من الثريا أصعب

.. وبمجرد أن نسمح هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « فتّياه » تجذب إياه و « حيّاه » تجذب محياه ، وبالمثل « يطبع » فى القفل تجذب يعطُب . وكأننا فى مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم فى الزجل اتساقا بديعا ، وكأنه عطر للأذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقتها ، فصاحبته بدر فى السماء لاتصل إليه الأيدى ، وهى غزال تقهر بعينيهما الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوث والنمور . وتهلكها وترعبها رعبا . ونصحته أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهى صنعة زجلية رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس المقلوب فى الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ، فيطبع تقابلها يعطُب ، وأربع تقابلها أرب ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها أصعب . وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التى لا تحتوى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها تغريد عندليب مع ما يحمل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، وبحق يقول صاحب الخزانة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين بديعين .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بني أمية ، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم ^(١) أو ختم الرسائل التي تصدر عنه إلى الولاة ، وهمنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون في الذروة من البيان والبلاغة لرسائلهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهمشيارى أثباتا طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالي فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ما عني الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون في ديوان الرسائل ^(٢) .

وما نصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٤ - ١٢٤ هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل في دمشق بيد مولى لهشام هو سالم ^(٣) ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنه بعض رسائل لأرسططاليس ^(٤) ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة ^(٥) واحتفظ الطبري برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسرى ، وهي تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الازدواج والترادف الصوتي . وتبعه في النهوض بالرسائل

(٣) الجهمشيارى ص ٦٢ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

(١) الوزراء والكتاب للجهمشيارى (طبعة الحلبي)

ص ٢٤ .

(٢) انظر في ذلك الفن ومذاهبه في النثر العربي ص

١٠٣ .

السياسية تلميذان : أحدهما من بيته هو ابنه عبدالله ، وثانيهما من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رئاسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضربت بها الأمثال ، فقليل : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وتُختمت بابن العميد » ^(١) ويقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى الترسل » ^(٢) ويقول المسعودى إنه « أول من استخدم التحميدات فى الكتب » ^(٣) واشتهر برسالة وجه بها إلى الكتاب ، وهى تدل على نمو طائفهم وأنهم أخذوا يشكّلون فئة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية ^(٤). وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى ^(٥) وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة ^(٦) طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهى أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدير شئونها من الوجهتين المادية والحرية . هو مجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر فى عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحنا طوال القرون : الثانى والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أظّل دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

(١) البيهقي للثعالبي (تحقيق محمد محي الدين

١٧٨/٣

عبد الحميد) ١٥٤/٣ .

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها

(٢) الفهرست ص ١٧٠ .

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبي) ص ٦٩

(٣) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء)

(٦) صبح الأعشى للقلقشندي ١٩٥/١٠ وما بعدها .

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سنى الدولة ^(١) ابن أخى الشاعر ابن الخياط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العباد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان محله عندنا خطيرا ، ومكانه لدنيا مكينا أثيرا ، لاقرين بجاريه ، ولا نظير يماثله ويأريه ، ولا متناول يطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركته أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعولنا عليه فيها ، واستنهضناه لتوليها ، ورأيناها كفأها وكافيا » .

وكتابات على هذا النحو دائما مسجوعة سجعاً فيه غير قليل من الرشاقة والعدوبة . وكتب بعده لسلطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد ^(٢) الكاتب الدمشقى ، وظل يـ ب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العباد شيئا من كتاباته .

ويُظَلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العباد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه فى الملك معه » ^(٣) ويذكر له ابن واصل توقيعاً كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أظلمها حكمه جاء فيه ^(٤) .

« وقد علمتم - معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيقية عليكم فى أرزاقكم ، والمئون التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن فوّض الله - عزّ وجلّ - لنا - تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوهه شبهة ولا تأولا » .

وبلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر ^(٥) شاكر بن عبد الله المعرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستعفاه من الخدمة سنة ٥٦٣

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع فى أبى اليسر تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٠٤ .

(١) انظر فى سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص ٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٧٧/٧ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الخريدة ١٢٥/١ .

فأقام العماد الأصبهاني مقامه ، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس في مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضي الفاضل بصلاح الدين فرسم باستكتابه في ديوانه بالشام ، وسنفرد له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غير منازع . وتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصرى مثل ابن النيه كاتب الأشرف موسى ، وهو مشهور بين شعراء الغزل في مصر ، ومثل عبد الرحيم بن علي بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق ، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندي . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولي كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتح طرابلس واستيلائه عليها من أيدي الصليبيين نوه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين في اللهو ، يقول (١) :

« وكانت الخلفاء والملوك مافهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه ، مكبٌ على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عَنَّ له وَصَف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسُّكَّة والخطبة ، وأموال تُنهب ، وممالك تذهب . »
ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطابتهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفي سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين علي في عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندي في صبحه بنماذج كثيرة من رسائله

(١) النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع في ترجمته ٣٤/٨

ونوقيحاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة التوسل » وذكر ابن حجر عن الصفدي أن رسائله تدخل في ثلاثين مجلدًا وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله في التهئة بتقليد سيف^(١) :

« وقلده مِنَّا : سيفًا تلمع مخايل النصر من غمده ، وتشرق جواهر الفتح في فِرْنده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حَدِّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهت عزائمهم ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه ، وعُلم أنه سيفنا الذي على عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفي مصر في دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخسه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموي المعروف بابن البارزي المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السربا إلى أن توفي ، وقد احتفظ القلقشندي له بعهد عن الإمام المستعين (الخليفة العباسي المقيم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول^(٢) :

« الحمد لله الذي جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادئة بائدة العدا ، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى والله الحمد - بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرداء ، آمنة من الردى ، وامتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسددا » .

وقدرة ابن البارزي الإنشائية تتضح في هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما في « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الرداء : الثوب (كناية عن الأحوال) والردى : الهلاك . ويفسح أيضا للسجع الداخلي في السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

(١) سيف : حائله .
(٢) صبح الاحش ١٢١/١٠ وانظر في ترجمته النجوم الزاهرة ١٦١/١٤ .

(١) حسن التوسل إلى صناعة التوسل طبع المطبعة الوهية ص ١٠٠ . ولرند السيف : لمعان صفحته .
والقوادم : ريشات الطائر الكبار في جناحه . ونجاد

وعين ابن البارزى فى ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى فى كتابة السراىنه كمال الدين ، وكان تارة يُعزل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم فى الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة فى ديوانها الكبير كُتاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كُتاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كُتابها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره فى وصف قلعة (١) :

« لا ترى العيون لبعدها مرماها إلا شزرا ، ولا ينظر سكانها العدد الكثير إلا نزرا ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كُتاب السر فى دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولّى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح (٢) الدين بن الشهيد حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعا فى الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام فى رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضائها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إما مابارعا أديبا فصيحاً ذكياً (٣) » . وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابهين .

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستهين ،

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٥/١٢

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٢/١٤ .

فرات : حلو . أجاج : شديد الملوحة .

العماد^(١) الأصهباني

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها . وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفي ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وشُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدَّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، وولَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقُدِّمه قاضي دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أميرهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضي إلى نور الدين فأعجب به واتخذه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح في مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق لدراسة الفقه الشافعي ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العمادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رئاسة ديوان الإنشاء . ولما توفي نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض في طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد تَوًّا ، والتقى بصلاح الدين في حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضي الفاضل ، ورغبه في إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حينئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفي سنة ٥٩٧ .

والعماد الأصهباني أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

الشافعية للسبكي ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفي كتابه : البرق الشامي والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

(١) انظر في ترجمة العماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروضتين في مواضع مختلفة والجزء الثاني من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبي ٢٩٩/٤ والوافي بالوفيات ١٣٣/١ وطبقات

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي . ومُرَّبنا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتها وهو في سبعة مجلدات ، وكتاب الفتح القسي في الفتح القدسي في وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وعُصرة القَطْرَة في تاريخ السلاجقة ووزرائهم : وذكرنا - في غير هذا الموضع - أن الفتح البنداري اختصره باسم « زبدة النصرة ونخبة العصرة » وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُلبى والعُقْبى في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نخلة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق في ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العماد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل - رغم ما فيها من تكلف - على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحاً دَحَرَ فيه حَمَلة الصليب ومُرَقَّهم تمزيقاً كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القاهمين على البلدان من الحكام ، يشير بالنصر المبين في سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازي بن مودود - إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العماد :

« لانخفاء أن مصر لإقليم عظيم وبلد كريم ، أنقذها الله من عبيد بني عُيَيْد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعَتَّتْنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعَة القوم ، وهم غير مأموني السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرنَج بها مطيفة فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتق لأعضل رُثْقَه ، واتسع على الراقع خرقة ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها ، وله خمس سنين في يَبْكارها (حربها) منتقما من كفارها متحملا لمشاقها على غلاء أسعارها » .

وقد جانس العماد في أول القطعة بين « عبيد وعُيَيْد » وبين « أطلقها وبمطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصرياً على الأقل في

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العباد من البشارات في كل انتصار لصالح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العباد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العباد فيها المواقع وصفا تفصيليا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التي كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه في تهنئتها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتح العظيم ، والتنجح الكريم ، قد انقضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرَةٍ تَمْنِيهِ ، وجيرة ترجيه ، ووحشة اليأس من تسنيه (انفكك عقده) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذي أعاد القدس (الشريعة) إلى المقدس ، وأعادته من الرجس ، وحقق من فتحة ما كان في النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عز يومه ماحيا ذلّ أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلّال من البطرك والقس ، وعبد الصليب ومستقبل الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (يريد يوم الأحد) وقع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذي هو فتح الفتوح » . والطباق كثير في القطعة ، والجناس يُنثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه في بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعي أكثر من استخدامهِ ، وعابه الصفدي بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله في جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل فيضه المستفيض ، وتبلى (إشار) وجه وجاهته وتأرج (انتشار) نبأ نباهته ماعرفه من عوارفه (فواضله) البيض » .

يقول الصفدي معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسفه في هذا الترتيب » . ويقول السبكي معلقا على كلام الصفدي : « الأمر كما وصف ، ولقد مجّ سمعى فواتح أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردّ العجز على الصدح » . على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العباد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع وقعه ، ويتسع في الإحسان صُقعُه (جانبه) ويرشف اللب مُدامه ، ويكون عند مَنْ له ذوقٌ أطيب من تغريد حمامه » .

الصفدي^(١)

هو صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، ولد بصفد في فلسطين سنة ٦٩٦ وعُني في أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذها عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدرج بموطنه صفد ، يكتب مايقع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها . ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدي . وعُني في كتابة الدُست ، حتى يعاونه في عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدى الشهاب محمود كاتباً مجيداً . وتوفي الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو مأمراً بنا في ترجمته ، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام ، وعُيّن رئيساً لديوان الإنشاء بحلب وقتاً ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها في كتابة الدُست مساعداً لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة في كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر في الوظائف إلى أن توفي بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموى للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتباً ناظماً ناثراً شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموى في خزانته مرارا ليدكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعانى شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه « خبز الشعر » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعر وأكله : وشعره في جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بَسَمَهُمُ الْحَاضِرُ رَمَانِي فَذُبْتُ مِنْ هَجْرِهِ وَبَيَّنَهُ

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١

والدرر الكامنة لاس ححر ١٧٦/٢ والبداية والنهاية لاس كثير

٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/١٠ وما بعدها-

وشذرات الذهب لابن العماد ٢٠٠/٦ والدرر الطالع ٢٤٣/١

وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صبح

الأعشى وخاصة ٨٦/١٢ ، ٣٥١ .

إن متَّ مالى سواه خَصْمٌ فلمنه قاتلى بعينه

ويعد من أكبر المصنفين في التراجم والأدب والبديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته في التراجم كتاب الوافى بالوفيات ، وهو فى نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزائه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه « أعوان النصر وأعيان العصر » من الأدباء والشعراء وهو فى ستة مجلدات ، وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة . وألف فى مشاهير المكفوفين كتابه : نكت الهميان فى نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع فى انسكاب الدمع : دمع المحبين والعشاق ، وله فى المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله فى النقد نصرة الناثر (وهو ابن أبى الحديد) على المثل السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وهو شرح ملىء بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء ما اتهمه به خصومه من استخدام بعض الألفاظ العامية ، وشرح رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه « تمام المتون » . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصّف مئين من المجلدات وخلف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع فى مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى الديوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحتفظ منها القلقشندى إلا برسائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق فى الدنيا أنموذج الجنة التى وُعد بها المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يُرزقون ، وهى زهرة ملكنا ودرة سلكتنا .. تعين أن نتدب لها من جربناه بعدا وقربا ، وهززانه مثقفاً^(١) وسللناه عَضبا^(٢) وخبأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف ما يُدْخِر ، وأعز ما يُحْبَأ ، كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرا لما وزر ، وكم غنيت به أيامنا عن الشمس وليالينا عن القمر ، وكم علا ذرى رُتب تعز على الكواكب الثابتة فضلا عما يتنقل فى المباشرات^(٣) من البشر ، وكم كانت الأموال جُمادى^(٤) فأعادها ربيعا غرد به طائر الإقبال وصفر . فليتلق هذه الولاية بالعزم الذى نعهدده ، والحزم الذى شاهدناه ونشهدده ، والتدبير الذى يعترف الصواب له

(٣) المباشرات : الأعمال

(٤) جمادى : يريد قليلة

(١) مثقفا : سيفاً مصقولا

(٢) عضبا : قاطعا .

ولا يجحده ، حتى يثمر الأموال في أوراق الحُسَّاب ، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج في البحار وتنفوت القطر من السحاب » .

وواضح مافي السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا في اجتلاب السجعات . ومن توقيعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد ^(١) بها تتبين فوارس الجلاذ في مضائق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال ، وتبدو شמוש الجمال فيما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية - أثاب الله تعالى واقفها - هي الواسطة في عقودها . والدرة الثمينة بلا كُفء لها بين قيم نقودها ، قد تدبج فيها البناء وتأرج عليها ^(٢) الشناء ، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد » .

وواقع مافي التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب في مثل « جلاذ وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف في جناساته ، بل هي تأتي عنده نادرة إذ كان حسبه أن يأتي بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة في التكلف . وكثير من جوانب توقيعاته سلس سائع . وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم .

(٢) تأرج عليها : عطرها :

ابن حجة^(١) الحموى

هو تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموى ، ولد بحجة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدباء مصر من مثل ابن مكناس الذى مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل فى دواوين حمة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى موطنه كتابة السربها ، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذ كاتب سره كما مربنا ، واصطحب ابن البارزى معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزى وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) وظل كاتباً للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر ططر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حجة ، وظل بها مكباً على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية فى المديح النبوى وما حمل أبياتها من محسنات البديع لزمه ، وهى فى مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا فى سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح - كما سماه - خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء فى زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله فى البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التى ينبغى ان تراعى فى الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب فى مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١٥ .

(١) انظر فى ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة الأدب فى مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكانى ١٦٤/١ والبصير اللامع للسخاوى ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعمانى

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر في الخزانة بباب إرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة في كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتباً ، وأنشد في الخزانة كثيراً من شعره ، ويقول الشوكاني : « قد يأتي في نظمه بما هو حسن وبما هو في غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفي الخزانة رسائل كثيرة له ، وخاصة في أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفي « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولاً بالشام ثم ما أنشأه في عهد المؤيد ثم في عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح في كتاب سماه « قهوة الإنشاء » في مجلدين ، ومنه مخطوطة في دار الكتب المصرية ، وفي الدار أيضاً كتاب له محفوظ بأسم تاهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشارته له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونُبدي لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا الله فيه بالحُسن وزيادة ، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة .. دقَّ قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع ^(١) عليه ، وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو قالت غصونها إليه .. وحضنْ مشتهى الروضة في صدره وحنَّ عليها حنَّ المرضعات على الفطيم :

وأرشفنا على ظمياً زَلاًلاً ألدُّ من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالتق النوى والحب ، فأرضع في أحشاء الأرض جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأب .. ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النوى ، وهامت به مخدَّرات ^(٢) الأشجار فأرخت صفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالحائفة » .

والسجع فيه عذوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتباً مجيداً إن لم يكن بارعاً ، وأطال السجعات ليحملها ما يريد من التوريات ، وهى كثيرة في القطعة ، وما نمضي فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك في التورية بكلمة

(١) يريد قلع السفن وشرعها

الرجال . والاستعارة واضحة

(٢) المخدَّرات : النساء يلزمن يوتهن احتجاباً عن

الآبيات فلا يريد أبيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات العصف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليحلب كلمة الأب مورياً بها فهو لا يريد الأب الحقيقي كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذاً من قوله تعالى : (وفاكهةً وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لا يريد نوى التمر الحقيقي وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضا في كلمة الجوارى تورية إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما يوشح لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفي الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منشي الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقيني الشافعي بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه :

« هو أبو العلماء الذي ولد من الأم أفراحهم ، وأبو الممات الذي شهّر من العدة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقريره بالعجاب ، ويغنينا عن موضح القشيري فإنه يغذيها في إبانته باللباب .. وقد وقع التمويه في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رءوسها والمذهب الذي تهذيبه في أدب القاضي كفاية ، وهو البحر الذي مداخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل ، ولا نظرننا إلى حليته الجلالية إلا غنيانا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعي ، وقد بدأها في السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعي ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للعز بن عبد السلام ، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجويني ، وأشار معه في نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالي وتقريب القفال الشاشي ، ثم ذكر اللباب وهو لباب الألباب للآمدي في علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيراً إلى كتاب الإبانة في فقه الشافعية للفراني ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبي إسحاق الشيرازي ونهاية المطلب المذكورة آنفاً والمذهب لأبي شامة المقدسي والتهذيب للبعوي وأدب القاضي للماوردي والبسيط للغزالي والشامل لإمام الحرمين الجويني . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء في التقليد لا يتنبه إليها إلا بعد روية وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات .

الرسائل الشخصية

مرَّبنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم اتِّخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتها لها حينئذ من كبار الكتاب من لا تزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة^(١) تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعدوبة ومع ما عُرف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث العتَّابي كلثوم بن عمرو ، وله بدوره - رسائل شخصية^(٢) تموج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية ، فشاع في الرسائل الشخصية لسبب طبيعي هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم في كتاباتهم فعمَّموه في رسائلهم الشخصية . ولعل كاتباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد^(٣) الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البَغَاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعراً مبدعاً وكاتباً بارعاً ، وفي كتاباته يقول الثعالبي « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الخلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبي من رسائله كقوله مثنياً ، مطرباً .

« شهابُ ذكاء ، وطَّودُ وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالي بأفعاله مشرقة ، والأقدار لخوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » . وقوله : « من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتْه ، أمن من الدهر شدته ، ومن فَرَعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

(٣) انظر ترجمته ورسائله في البيعة ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبي ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي) ٤٣٤/٢ وفي مواضع متفرقة .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

(١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُيّنت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولها رسالة المنيح وهو القِدْح الثامن من قِداح الميسر التي ليس لها نصيب في القمار ، وكأنه كنى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجّه بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ردّاً على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب - أطال الله بقاء سيدنا - نسيم يتضوّع ^(١) ، وللكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَعَمْنَا ^(٢) على بُعْد الدار أَرَجُ ^(٣) أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلهّب ، وخَوَّل ^(٤) الأسماع سُوفًا ^(٥) غير ذاهبة ، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا - معشر أهل هذه البلدة - وُهب لنا شرف عَظِيم ، وألّقى إلينا كتاب كَرِيم ، صدر عن حضرة السيد الحَبَر ^(٦) ، ومالك أعنة النظم والنثر ، قراءته نُسْك ، وختامه بل سائره مِسْك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . جَلَّ ^(٧) عن التقييل فظلاله المقبلة ، ونَزّه أن يتنذل فنسخة المبتدلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة ^(٨) ، على ماضمن من الملاحاة ، والخشية على دُجَى مداده من التوزّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللّثم ، والمَوارن ^(٩) بالانتشاء ^(١٠) والشمّ ، حتى تصير سطور له لَمَى ^(١١) في الشفاء ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ما حظره الدين من القمار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التي ليست لحظّ

(١) يتضوع : يفوح .

(٢) فعمنا : ملأ أنوفنا .

(٣) أَرَج : شدى

(٤) خول : أعطى .

(٥) سُوفًا : أقرطا

(٦) الحبر : العالم

(٧) جل : تنزّه

(٨) الإلاحة : الإشفاق

(٩) الموارن : الأنوف .

(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه .

(١١) اللمى : سمة حسنة في الشفة .

بالحائزة .. فيا شرفه من صَكُّ بالفخر ، يَبْجَحُ به على النَّظَرَاءِ حَيْرِيٍّ^(١) الدهر ، موشحاً بكل شَذْرَةٍ أعذب من سُلَافِ العنقود ، وأحس من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أويوح^(٢) عند الشروق .

وإذا مضينا بعد ذلك في قراءة رسالة المنيح - وهي طويلة - أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها ما يقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سَجْعَةٍ ، بل مع غير لفظ في كل سَجْعَةٍ ، وكأنما كان يطلبه طلباً في سجعاته ، وكأنما كان يعده زينة ينبغى أن لا تخلو منه سَجْعَةٌ . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة المبعدة في الإغراب مما قرأه في الشعر القديم وفي كتب اللغة ، ولا يهمل أن تكون الكلمة مما دُوِّنَ في المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالاً لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك في بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هي حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو ما نقرأ في رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضاً إلى أبى القاسم المغربي وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغَمِ الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما في الجهر والهمس ، بمنزلة غَدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التي هي كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبداً ، فقد جعلني إن حضرت عُرف شاني ، وإن غبت لم يُجْهَلْ مكاني ، كما في النداء ، والمخدوف من الابتداء ، إذا قلت زَيْدٌ أَقْبَلُ ، والإبلُ الإبل ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن أُلْقِيتُ فبواجب ، وإن ذُكِرْتُ فغير لازب^(٣) ، إني وإن غدوتُ في زمن كثير الدِّدِ^(٤) كهاء العدد ، لزمتم الذكر فأتت بالمنكر ، مع إلفٍ يراني في الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت^(٥) الرصين ، فهي لا تثبت على طريقة ، ولا تُدْرَكُ لها صورة في الحقيقة »

وهو يدعو لأبى القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الآبدين أو كما يقول إلى أن تدغم الطاء

(١) يبجح : يفخر . حيرى الدهر : أبد الدهر .

(٤) الدد : اللهو واللعب .

(٢) يوح : اسم الشمس .

(٥) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد .

(٣) لارب : لازم .

في الهاء وهي لاتدغم فيها أبداً ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت - كما يقول - والهاء حرف مهموس لا يكسد صوته بين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لا يدغمان أبداً ولا يتحدان كالأمس والغد . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب في الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو ، إذ هما بسبب رفعهما في أعلى الرتب . ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبته كالفعل لا يلحقه خفض ولا جرُّ أبداً . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفاً رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فكانها محفوظ ذكرت مع المنادي أولم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ . فتقول : محمد أي يا محمد ، وتقول كتاب الأدب أي هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضعه أبو القاسم في منزلته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهي تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أوثائه من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس في العربية العكس . ولا يكتفي بذلك فيقول إنه كان كالف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط في درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا في لغة تميم ، فيقولون في أن عَن ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أو كما يقول « بين بين » وقد تسهل تماماً فتصبح حرف لين مثل سال في سأل ، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهل مثل أمر ، فهي كما يقول أبو العلاء لا تثبت في العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعب نثره على قارئه ، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوي لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة في الرسالة لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمي النحو والصرف ، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف . وتتكاثر في الرسالة المعارف عن المرأة وجليها ولا بأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك يصعبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريقية . وتقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برائله إلى علماء في عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

المصطلحات تصويراً لمهارته البيانية. وتحفل الرسائل بنقد خلقي واجتماعي وسياسي وأدبي ، وأكثرها في الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعاة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله في فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبي طاهر المشرف بن سبيكة الحلبي :

« شوقى إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُسحلة ، إلى السحابة المُسحلة ^(١) ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواه الغريضة ^(٢) ، وتشوفى لأخباره تشوفَ راعى أنعام ^(٣) أجذب فى عام بعد عام ، لبارق ^(٤) يمان ، هؤلُه مرتقب مُمان ^(٥) . وأسفى لفقده أسف وَحْشِيَّة ^(٦) ، رادت ^(٧) بالعشِيَّة ، فخالفها السُّرحانُ إلى طَلَا ^(٨) راد فحار ^(٩) فهى تطوف حول أميل ^(١٠) ، وترى صبرها ليس بجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدمه انتظار تاجر مكة وَفَدَ ^(١١) الأعاجم ، وربُّ الماشية ظهورَ النَّبْتِ الناجم ^(١٢) » .

وبدون ريب تُعدُّ رسائل أبي العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائماً يُعنى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجعتين فيها تتفقان لافى الحرف الأخير فحسب المقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودائماً نلتقى فى رسائله بالألفاظ الأبدية الممعنة فى الغرابة وإن لم تمنع فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو ما يلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهداً لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابني شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « المححلة والمسحلة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتساوير .

-
- | | |
|--|---|
| (١) المسحلة : الممطرة | (٧) رادت : ذهبت تطلب الكلا |
| (٢) الأريضة : الطيبة . الغريضة : المبكرة | (٨) الطلا : ولد البقر . السرحان : الذئب |
| (٣) الأنعام : الابل . | (٩) حارها : تحير |
| (٤) البارق : السحاب يلمع فيه البرق ، وجعله يمينا | (١٠) أميل : كئيب عال |
| حتى لا يخلف مطره | (١١) يريد : قاوم وفود الحجيج الأجانب |
| (٥) ممان : متناول | (١٢) الناجم : الذى لاساق له |
| (٦) يريد بقرة وحشيه | |

(ب) رسائل متنوعة

طبيعي أن تكثر الكتابات الشخصية على السنة الأدباء ، شاكرين صنيعا أو مهنتين على منصب كبير أو معاتبين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألم بأصدقائهم أو في فريد عزيز ، وتارة يؤثنون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائي الشاعر الكاتب والغزّي إبراهيم بن عثمان الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصماني : « كانت بينهما مكاتبات مفيدة وبينهما لنسب الفضل المؤدّة الوكيّة » ويسوق العماد للغزّي رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها ^(١) :
 لسان الحسود - أدام الله أيام المجلس السامي دام ساميا ، وليبضة المجد حاميا - إذا علق
 بعرض الكرام كان كالنار في المندلي ^(٢) ، ييوح بسرّ طيه الحقيّ .. فإن وقع من السفهاء إفك
 فداعيته ما ظهر لهم من انتائه ، وانتساب مُزنته إلى سمائه .

وانتخاب الغزّي لألفاظه واضح ، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر ، وهو يعنى فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا في ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسي الذي ترجمنا له بين الشعراء نزح عن دمشق إلى قلعة شيزر في الشمال خوفا من ابن الصوفي وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حلیم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه ، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها ^(٣) :
 « إن جراحى إلى الآن لم تذق حلاوة الاندمال ، وقروحها تزداد قرحا مع الحل والترحال ،
 وبين جوانحي من الأين ^(٤) ، لما لقيت بدمشق من العبن ، مالا يحلّه إلا عَقْدُ الكفن ، ولا يرفع
 حدّته إلا التيمم بصعيد ^(٥) المدفن . ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خَلَق دَمِيم ^(٦) ، وخلق
 ذميم ، وأصل لثيم ، وفرع زَنيم ^(٧) ، ووجه لَطيم ، وقفّا كلم ^(٨) ، وهلم جَرّا من عذاب أليم ،
 وصراط في الود غير مستقيم . »

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتباً بارعا ، تواتيه الكلمة وتنزل في

(٥) الصعيد : التراب

(٦) دميم : قبيح . ذميم : مذموم

(٧) زَنيم : دعى

(٨) كلم : جريح

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٧/١

(٢) المندلي : عود الطيب

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٩٢/١

(٤) الأين : العناء .

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجمالها فى الجرس وحسن الأداء . ويورد العباد فى الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولا كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدثا عنه بضمير الغيبة^(١) :

« ماعسى أن يقول مطريه ومادحُه والفضل نُغْبَة من بحره الزاخر ، وقطرة من سحابه الماطر ، تفرّد به فما له فيه من نظير ، وسبق من تقدّمه فى زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكمامًا ترينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تُتلى فى المحاريب ، إذا استنطقتُ ازدحمتُ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرُّ إلا أن بحره حلّو سلسال » .

ونمضى إلى أيام الممالك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم فى دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله - كما أسلفنا - كتاب فى رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة التوسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع فى التوسل البديع » وعنه ينقل كثيرا القلقشندي فى الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة فى التهئة بعيد الأضحى جاء فيها^(٢) :

« جعله الله أبرك الأعياد وأسعدها وأيمن الأيام وأمجدها ، وأجمل الأوقات وألذها وأرغدها ولا برح مسرورا مستبشرا ، منصورا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معصودا ، مهتئا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حلّة ، ومنحه من المكارم أحسن خلّة » .

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى فى قوله : « مهتئا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبا ، وله تغزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول^(٣) :

(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوائب فى

مجموعة سنة ١٣٠٠ هـ ص ١٦٣

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩

« بلغنى انهدادُ الطود الشامخ ، وزوالُ الجبل الراسخ ، الذى بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض ، فشَرِقْتُ^(١) أجفان المملوك بالدموع ، وأحرق قلبه بين الضلوع ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزّى فيه ، والأقلام تمشى على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده . . ولا خاصاً إلا حزن قلبه ، ولعاماً إلا طار لبّه » .

وكان يجنح فى نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع فى هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضاً فإنه كان يعنى يجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورى هنا بالمصطلح الفقهى : الندب عن معناه الحقيقى وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رؤوسها حزناً وهى فعلاً تمشى على رؤوسها أو بعبارة أخرى تكتب برؤوسها ، فاستغل ذلك فى تعزيتة .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سيكينا أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله^(٢) : « المملوك يُنْهَى وصول السكين التى قطع بها أوصال الجفا ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء ، وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحقا . . ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النصاب^(٣) ، وذلك بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب . . أنملة صبح تقمّعت بسواد الدجى ، فعوذتها بـ (الضحى والليل إذا سجاً) . . تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، وبإقامتها الحدّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح فى القطعة ، فقد ذكر الجفا أى البعد ، وفكر فى سجعة معه فجاء بالشفاء والجفا وأصله رقة الخف ويريد المبالغة فى تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الخلاق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضاً بمواظبة الخمس إذ لا يريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة فى تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة فى معاتبته^(٤) :

(١) شرقت : غصّت .

(٣) نصاب السكين : مقبضها

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧

(٤) نفحة الريحانة للمجيبى ٢٤٧/١

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه في الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُبصر ، أو كالعقواء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فثلهم . . كلع السراب ، المستحيل فيه الشراب ، أو كالحَيال الذي يبدو في المنام ، وهو في الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق المحبى في نفحة الريحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبى وبين عبد الغنى النابلسي الصوفى ، وله يقول متودداً مثنياً مشيداً بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحى (١) :

« مولائى الذى سار فى بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله فى جسم العالم مقام الحواس الخمس ، لازال فى السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر ينزله ، كأنه البدر والدنيا منازل ، ومن شايعه مسعود يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دوحتك (٢) ، وغصن من سرحتك (٣) ، بل نبت سقته أياديك ، وزهرتفتح بما أفاضته غواديك » (٤) .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التى رأيناها فى أيام المالك ، فهو يعتمد دائماً على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

٣

المقامات

كان لبديع الزمان الهمداني فضل السبق الى استحداث فن المقامات فى العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كى يسبغوا عليه شيئاً من عطائهم يعينه على سد حاجاته فى الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريرى فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القص فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوى والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعى أن لاتعرف الشام - مثل بقية البلدان العربية - المقامات قبل بديع

(١) نفحة الريحانة ١٣٩/٢

(٣) السرجة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

(٤) الغوادى : السحب

الزمان ، بل أيضا قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لا تعرفها أو على الأقل لا تحاول محاكاة الحريري وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجري ألهاها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام الممالك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثاني من القرن السابع ، وهي نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريري ، إذ لا تعتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتمالاته الأدبية قصّا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل في العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة في المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة في مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قُرناص الحموى المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتزه في الرياض ولقائه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارا طريفا ، وهو يفتتحها على هذا النمط ^(١) :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولّع بنظم الأراجيز ، ومذ شبّ عمرى عن الطّوق ، مُغرى بالغرام والتّوق ، وأهيم بالشّمول ^(٢) والشّمالك ، وأشرب في زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتتزه في كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض ^(٣) ، وولجت ^(٤) بين حياض ورياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة ^(٥) العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رَشَف الرّحيق في وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرهما لسنة ٧٤٠ ومن قوله في تلك المقامة الملتاعة ^(٦) :

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفرى (طبع المطبعة
الأدبية ببيروت) .
(٢) الشمول : الخمر .
(٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف
(٤) ولج : دخل
(٥) فوات الوفيات لابن شاعر ٥٦٥/٢
(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار
الكتب المصرية) ٢٠١/١

« سألت عن الخبر ، ممن غبر ، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع ، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق^(١) اللهب اللامع ، فبادرت إلى صَحْنِه والناس فيه قطعة لحم ، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم ، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام مُعَصِّفَرَاتٍ^(٢) ذوائبها ، وصعدت إلى السماء عَذَبَاتُ ذوائبها . . وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر ، وكان الواقف في الميدان يراها وهي (ترمى بشرير كالقصر) ، فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية ، وكم نفس كانت في النازعات وهي تتلو (هل أتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايلها وتفنئ مايسفلها ويعتليها . »

وواضح في سجعاته طلبه للجناس . فهو يحانس بين الخبر وغبر ، والجامع واللامع ، واللحم والشحم ، ويمضي في مثل هذه الجناسات الناقصة ، واشتهر لزمه بالتصنع الشديد للجناس . وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذوبان جمعاً لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر في الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهي أطراف العائم التي تطرح عليها ، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي ابتليت به دمشق وأهلها بلاء عظيم . وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمى بشرير كالقصر) وهي في وصف جهنم وما يتصاعد من شررها ووقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق . وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو ، فذكر (الزمر) أي الجماعات و (الدخان) و (الجاثية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول ، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى في سورة (الغاشية) والغاشية القيامة .

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعاً لها وصف حريق دمشق ، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القصّ والحوار ، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه . وغلب عليها ذلك أيضا في أيام العثمانيين ونلتقي في نفحة الريحانة للمعجبى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقي من بني النقيب ، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو^(٣) .

« نَرْجِسُ نَعْتَه الفتور ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور . »

(١) عقائق : جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه
(٢) معصفرات : مصبغة بالعصفر ، وهو صبغ أصفر
(٣) نفحة الريحانة ٣٥/٢ به الصفدى اللهب

وشقيقٌ كأنه أقداح العقيق^(١) ، قد رسب بقرارتها مسكٌ فتيق
 وآذريون^(٢) كأنه مداهن عَسْجِدٍ ، على سواعد زبرجد
 وسوسن كيباض السوالف ، أوجياد^(٣) الوصائف
 وقرنفلٌ كأنما توقد بالجمر ، وانعقد من الخمر
 ويظل طويلا في وصف الأزهار ، ويخرج منها إلى وصف الأطيّار ، بمثل هذه الأسجاع المليئة
 بالتشبيهات والاستعارات .

وروى المحبى لعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق
 عثرا فيها على قصر على البنيان فدخلاه ، يقول^(٤) :

« فصعدنا إلى قصر مشيد^(٥) ، مزخرف الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشيد^(٦) ، فيه الغرف
 الرفيعة ذات التزيين ، والمقاصير المصنوعة لقاصرات^(٧) الطُرف عين . قد طَلَّت شبايكه على
 تلك الأرجاء الموفقة ، والجداول المتدفقة ، وأرضه مفروشة بأفخر الوشى والديباج ، وقد أطلقت
 فيه مَبَاخِرُ الطيب فزاد في الابتهاج .. فحلت أنا وصاحبي على تلك الأرائك الممنوعة^(٨) ،
 والفرش المرفوعة ، نتناشد الأشعار ، ونتشبت بأذيال الأفكار » .

ويلقاه هو وصاحبه رفيق ، فيسأله أين كنت ؟ ومن أين توجهت ؟ ومايلبث أن يقول له :
 « ما ذلك القصر الموصوف سوى جَبَّتِي هذه وثوبى هذا الصوف ، والشبايك جيوبه وأطواقه ،
 ولا عجب أن نَفَحَتْ فيه مَبَاخِرُ الطيب فإنها قراطيسه وأوراقه » . وكأن كل ما فى المقامة رموز
 صوفية جلاها عبد الغنى النابلسى فى تصاوير الرياض والقصر وتهاويله . وحرى بنا أن نقف قليلا
 عند ابن الوردى أهم كتاب المقامة الشاميين .

(٦) الشيد : كل ما طلى به البناء من جص وغيره

(٧) قاصرات الطرف : خجالات حليات . عين :

جميلات واسعات الأعين .

(٨) الأرائك : مقاعد منجدة . الممنوعة : أى عن الناس

(١) العقيق : حجر كزيم أحمر . فتيق : فائح .

(٢) الآذريون : زهر شديد الصفرة . والعسجد : الذهب

(٣) جياد هنا : جمع جيد أى عتق .

(٤) نفحة الرحانة ١٥٢/٢ وما بعدها

(٥) مشيد : عال مرتفع .

ابن^(١) الوردى

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد فى المعرة بلدة أبى العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر فى الدرر : بل نشأ بحلب وهى حاضرة إقليم المعرة ، وخاصة على قاضيهما وفقهيهما ومفتيهما الشافعى شرف الدين البارزى . وتنقل فى بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله فى الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزملى قاضى قضاء الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله فى ابن الزملى مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه : ورأى ابن الزملى فىما بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويؤلى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى فى الفقه الشافعى فى منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود فى شعراء القرن الثامن النابيين ، ويقول ابن شاکر : « أجاد فى المنثور والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . وديوانه كبير وهو مطبوع فى الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكى فى ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفى رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبداع ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات فى الديوان المقامة الصوفية ، ومنها يُجرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية فى مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم فى الحديث هذا الوافد المعرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتفسير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : « إن المتصوفة اليوم أصحاب

والبدر الطالع ٥١٤/١ والشذرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسائله مطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

(١) انظر فى ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكى ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وفوات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبسًا ، وخالفوهم أنفسهم . والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى في مقاماته ، يقول (١) :

« حكى إنسان ، من معرة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت في الطريق بواد وقانا لفحة الرَّمضاء (٢) ، وقال : حكمت على الوادى الذى تروع حصاه حالية العذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر ، فرويت كبدَ صَادٍ (٣) من تلك العين ، ولكن نُغص منظرها الحسن بذكر ظمًا الحسين » .

وقد تصنع ابن الوردى في أول مقامته لمصطلح التعريف والتذكير في النحو ، ولم يلبث أن اقتبس في وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر في وصف واد للمنازى معاصر أبي العلاء إذ يقول

وقانا لفحة الرَّمضاء وادٍ سقاه مضاعفُ الغيثِ العَميمِ

تروع حصاه حالية العذارى فتمسُّ جانب العقد النظيمِ

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلَّ ابن الوردى ذلك في التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله في كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نغص في قراءة المقامة لنراه وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية المقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة في حلب ، وفيها يحكى أيضا شخص من المعرة أنه دخلها فرثى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلى ابن الوردى بمدرستها النورية ، فإذا مدرستها

(١) الديوان (فى مجموعة طبعة الجواب) ص ١٣٣ (٣) صاد : عطشان شديد العطش

(٢) الرَّمضاء : شدة الحر

القاضي حدث السن ، فظن أنه ليس بشيء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوو نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتي شعر ، سامها^(١) فضل شعر ، وأقام وزنها ، وقال إنها وإنها ، وأنا رسول أصحابي إليك لتنصف بيننا وقد دُللت عليك » فقال له : قل ما أردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا في الغزل وغير الغزل ، والقاضي يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحينئذ رجع المعري إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمي المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلقي شخصٌ معرّيٌ أميرا يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة وما يجري فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضي القضاة ابن الزملاكانى الذى أمر بإبطالها وشدد في النكير عليها ، ويدعو له قائلا :

« لازال نداءه^(٢) مثل حرف النداء ، كفيلا بضم الأقربين والبعداء ، من وُصل به نال عُرُفا^(٣) ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفًا ، حتى يكون علمه علما منصوبا ، وعواطفه للمعارف خبرا مبتدأ به منصوبا ، ولا يرح مرفوعا بفعل الحسنى ، وسيوف بحوثة ماضية فهي على الفتح تُبْنَى » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو في عبارات الثناء على ابن الزملاكانى وسجعاته ، فلازال ابن الزملاكانى مثل حرف النداء في النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعته والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوبا » وأراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده في هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائما ولكن من حين إلى حين تلقانا في نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة في وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق في وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى في الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيرا منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق في

(٣) العرف : المعروف

(١) سامها فضل شعر . غالى بها في الشعر

(٢) نداءه : كرمه

وصف الحريق» . وله رسالة بديعة في وصف وباء الطاعون الذي فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسمى ابن حجر مقامة ، وتسميتها - كما جاء في الديوان - باسم رسالة أولى لغياب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التي كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهى رسالة طريفة .

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب المساجد كل يوم جمعة وفي العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تكن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول ما يلقانا من ذلك في الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القصاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعيّن للقصاص مراتب ^(١) خاصة . ويشتهر في زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقي وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثاني وفي مقدمتهم الأوزاعي صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حيًا مزدهرًا في القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا في حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلا عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقى بأبي العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد في متاع الدنيا يكثر في أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجد يقول : « إن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان في العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفرى » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له في النثر دعاء

(١) انظر في ذلك كتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي

(طبع دار المعارف - الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والذال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون لنا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو في عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقي من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بحديث عما قليل .

ويحتمل الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية في نفوس الناس ، حتى يجاهدوا في سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم في حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محي الدين محمد بن الزكي قاضي دمشق وخطيبها ، وهو الذي خطب أول جمعة صُلِّيَتْ بالقدس بعد فتحه ، وسلم بخطبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المذهب الدمشقي الذي لقيه العماد الأصمباني - كما يقول بخريدته - بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعدُّ سبط ابن الجوزي يوسف بن قزوغلي أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجري حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ في حجر جده ابن الجوزي واستمع إلى مواعظه الرائعة التي نوهنا بها في حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمنزلة العظمى ، وكان له لسان حلوف في الوعظ والتذكار ولكلامه موقع في القلوب ^(١) » ويصف أبو شامة مجلس وعظه في كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم في مجلسه ما لا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرتُ مجالسه صغرى وكبرى في الموضعين مرارا ، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انفضَّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر . وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبَسَّطُ السجادات والحُصُر والبسط في كل الموضع القريبة من المنبر ما بينه وبين القبة في يوم الجمعة ،

(١) النجوم الزاهرة ٣٩/٧

وبييت الناس ليلة كل سبت حلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن ^(١) .

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسي ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس في تفليس إبليس » وهي رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغي . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وستحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزي المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموي فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموي لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذي أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته ^(٢) » . ولاريب أن الخطابة الدينية اطردها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

(١) خطب ابن ^(٣) نباتة الفارقي

ابن نباتة الفارقي هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمداني وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباتة من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه في الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطُبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذي الحجة ، ومن قوله في الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا في هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمنادي ينادي كل يوم يا عباد الله

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩ (٣) انظر في ابن نباتة الفارقي ابن خلكان ١٥٦/٣

وعبر الذهبي ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

(٢) خزانة الأدب ص ٢٠

الرحيل الرحيل ، هو الموت الذى مافيه فوتٌ ولا تعجيل ، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل ، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وخليلا من خليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فلما متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبيه والمثيل . ولغة ابن نباتة فى خطابه عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مر بنا عند العماد الأصهبانى ، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تُحبطوا صيامكم بالغيبة والنسيمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شئ يكون الإفطار والسحور ، ياغافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، ياهاتما فى تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. ياماثلا إلى زهرة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، ياعادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم النشور » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابه ببيانه الرائع .

(ب) الفصول^(١) والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة^(٢) للقرآن الكريم ، ونجد تلميذه ابن سنان الحفاجى الذى مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة^(٣) ، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب :

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١١ ودمية
القصر ١٣٠/١ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١
(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٤٢٦

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زنائى) وقد
نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف
الحاء .
(٢) راجع سفر نامه لناصر خسرو (الترجمة العربية

« الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات » وهو لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول في كتابه : « علم ربنا ما علم ، أنى ألفت الكلم ، آمل رضاه المسلم ، وأتقى سخطه المؤلم ، فهب لي ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلّى حتى ليقول^(١) :

« لو نقلت مياه اللّجج على منكبي في قُدا^(٢)ف ، وأفرغته على مناكب الجبال ، وجرت كُتبان الأرض وصرائمها^(٣) في جرٍّ أو مشاة^(٤) ، فألقيتها في الحُضر^(٥) الدائمات ، حَفْدًا^(٦) لله كنتُ أحدَ العجزة المقصّرين ، ولو أذن لي وأُيِّدْتُ فاتبنتُ مَراهص^(٧) من الثرى الأسفل إلى الثرى ، ومن الودّ ، المتخذ من عود إلى وتد السُعود^(٨) ، لم أؤدّ ما يوجب جلال الله ، فكيف وأنا أقصر الصلاة ، وأداني بين الركعات » .

وهو يقول : مهما تنسك ومهما أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه في جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جركتبان الأرض كثيبا وراء كثيب في زنايل وألقاها في لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو ابتنى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثرى أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ماتوجهه تجلة الله وعظمته . وإنه ليصبح مبتهلا إلى ربه في جزع لا يدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفئ غضبك فهب لي عينين كأنهما غمامتا شتى^(٩) تبلان^(١٠) الصباح والمساء^(١١) » إنه سيظل ماعاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه . ولهذا الصيحة أخوات كثيرة في الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائما يناجى ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قدا^(٢)ف : جرة

(٣) صرائم : جمع صريمة وهي القطعة من الرمل

(٤) جر ، مشاة : زيل

(٥) الحضر : اللجج

(٦) حفدا : خدمة

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السعود : سعد الأخبية : نجوم معروفة

(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحابا دائم المطر

(١٠) تبلان : تهطلان ، من الوبل وهو المطر الغزير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائماً . وليس هذا كل ماصعبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيراً من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيراً ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشياً خليقاً أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهِراً لبعض مصطلحات علم الصرف^(١) .

« لا تجعلى ربُّ معتلاً كواو يقوم ، ولا مبدلاً كواو موقن من الياء ، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربُّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولا غناء ، مشبهها لا يحسب من التسميات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واو يقوم أصلها يقوم فاستثقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها ميقن ، فقلبت الياء واواً لسكونها وانضمام ما قبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنها مشتقتان من الجدول والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكتب ولا تنطق تمييزاً للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيراً من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ما قدمناه لناخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطاً وتفصيلاً وتحليلاً .

(١) الفصول والغايات ١/١٤٢

(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محبي^(١) الدين محمد بن الزكي على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة في دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ هـ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاه قضاءها ، حتى إذا فتحت القدس ، وكان محبي الدين حاضرا فتحتها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها في أول يوم جمعة ، وأعدّ من كانوا في حضرته خطبا بليغة يخطبون بها في هذا اليوم واختار صلاح محبي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات في أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع في الخطبة . وقال^(٢) فيها .

« الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولابعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمدته على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة^(٣) ، من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإمارة^(٤) الشُّرك عن طريقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصّصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مُبار . وهذا هو الفتح الذى فُتحت له أبواب السماء ، وتبلّجت^(٥) بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرب به عينا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعُروتها نجا وعُصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الردى ،

(١) انظر ترجمة محبي الدين فى طبقات السبكي

١١٠/٢

١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبي ٢٠١/٤

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفى المثل :

الحكمة ضالة المؤمن

والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦

(٤) إمارة : تنحية وإبعاد

والشذرات ٣٣٧/٤

(٥) تبلجت : أشرقت

(٢) انظر الخطبة كاملة فى ابن خلكان والروضتين

ورجوع القهقري .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر .
والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح
المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَدْر وفتوح الشام ومصر والقادسية
وهجمات خالد والصحابه الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن ^(١) غانم عبد السلام بن أحمد المقدسي الواعظ المشهور
لزمه المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب في ٣٠ صفحة ، ذكر في مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلاً :
« قد وضعت كتابي هذا مترجماً عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وماخاطبتني به
الأزهار بلسان حالها ، والشحارير عن مقام ارتحالها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور
والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكراً لذوى الأبصار والاستبصار » . ويقول إنه
خرج يوماً ليتأمل في الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقّ نسيمها وغنّى عندليها ، وكان
وحيداً وأخذ كل ما حوله يخاطبه بلسان الحال دالاً على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم
صنّعه ، وسجل من ذلك عظات بليغة على السنة الأزهار ثم السنة الطير ثم السنة الحيوان . وبدأ
بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار
وأحد عشر نوعاً من الأزهار استهلها بالورد قائلاً على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقى فالوقت
سيف ، أعطيت نفس العاشق وكُسيّت ملاحه المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المزور ، ومن طمع في
بقائي فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكدر ، والعيش المحرور ، أني حيثما نبتُ رأيت
الأشواك تزاحمني وتجاورني ، فأنا بين الأدغال مطروح ، وبنبال شوكة مجروح . وهذا دمي على
عندمي يلوح ، وهذا حالي وأنا أطف الأوراد ، وأشرف الوراد ، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ
المراد » .

وختم ابن غانم الكلمة بالعظة التي يريد بها ، وجعل الورد ضيفاً على الطبيعة ، لأن مدة بقائه
فيها قصيرة ، واستغل ما ينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذاقت الناس فيها من حلاوة
العيش لا بد أن تجتمع إليهم شيئاً من مرارته فليست الدنيا ورداً خالصاً ولا حياة لإنسان فيها دائماً .

لا بن العاد ٣٦٢/٥ .

(١) انظر في ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن

كثير ٢٨٩/١٣ ورمّة الجنان للياقني ١٩٠/٤ والشذرات

مشرقة زاهية بل لا بد من ظلمة تغشاها ، بل هي مزيج من خير وشر وأمل وياس وسرور وخزن ،
وحريٌّ بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذي طالما
ذكر المحبون في ليله وتمایل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد أثقد ، وإلى الحبّ وقد
انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشرّبها قد اتحد ،
واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صمد ، وموجدّها بالقدرة قد انفرد ، لا يشاركه في ملكه أحد ،
ولا يفتقر هو إلى أحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

وهي عظه بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد :
وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحب التمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط
الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وما أعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد
وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التي لا يشركه فيها
أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثله شيء وهو على كل شيء قدير .

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الطيّر ، ويستهل كلامها
بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولهان ، أنا الهائم اللّهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجدني في الرياض
فرحان ، وفي الغياض ^(١) أردد الألحان . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لي
عيدان ^(٢) ، وانت تحسبني في ذلك عاتبا ، لا والله العظيم ولست في يميني حائثا ، أنا أنوح حزنا
لا طربا ، وأبوح ترحا لا فرحا ، لأجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلالها ، ولا خضرة إلا تبلبلت
على زوالها ، لأنني مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولا عيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت في تمثال
العرفان ، كل من عليها فان » .

والهزار في أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان ما يفكر في انتهائه ، فيندب وينوح ،
إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل ما فيها
من صفاء لا يلبث أن تغشاه كدرة قائمة ، وكل ما فيها من عيش حلولا يلبث أن ينقلب عيشا مرا ،
بل إن كل ما فيها هالك فان . وسعيد من كتبت له السعادة ، وشقي من كتب له الشقاء . وينتقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهي الشجر الملتف . المعروفة

(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان النملة إذ تقول :
 « إذا رماك الدهر بمرمى فقم له ، وإذا رأيت من تها للسير فسِر قبله ، ولاتكن في تدبير
 عيشك أبله ، تعلّم منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كُلفت جمع المثونة بتيسير المعونة ،
 وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، ما لم يدركه ذو العلم
 الراسخ ، ثم أعطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبر ما أدخره من الحب لقوتي ، في يوتي » .
 والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير في الطريق السديد ، واعياً لحكمة الله
 في خلقه ، متعظاً بما تورد عليه الحيوانات والأطيّار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأضواء
 تنير له دنياه ، وتعدّه إعداداً حسناً لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية
 لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقاً مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ أبدية غريبة ،
 وتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات
 المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعاً .

٥

أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل :

خُلِّفت الشام في هذا العصر أعمالاً أدبية كثيرة ، ويلقانا في مفتحه كشاجم ، وله كتاب
 المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وما قيل فيه من الأشعار عرضاً طريفاً ، وله بجانبه كتاب
 في البيرزة أو بعبارة أخرى في جوارح الصيد ، وكتاب في أدب النديم . ولأبي العلاء المعري أعمال
 أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسنلم بها عما قليل ، وفي خريدة القصر قسم الشام
 رسالة أدبية بديعة هي رسالة النسر والبلبل ، وسنفرد لها كلمة موجزة ، وفي الخريدة أيضاً
 رسالة ^(١) طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شاباً سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها
 معاشرّة الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غُصّة في دنيا لا يدوم نعيمها ولا تندمل كلومها ،
 وعنده أن الفرصة هي الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص . ويفيض في وصف الصيد
 وماركبوا فيه من خيل وما حملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبُزاة وشواهين ، ويطيل في بيان صيد

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام)

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهي رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق في فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفي تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عني في القرن السادس الهجري بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه مانظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله في سبعة كتب : في الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : في الأدب وكتان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد في كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وما روى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أقي على حصن شيزر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول في مقدمته : « دغاني إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جرّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها ^(١) حوله وحيله ^(٢) ، فأصبحت (كأن لم تغن بالأمس) موحشة العرصات بعد الأنس ، قد دثر عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانيها ^(٣) رسوما ، والمسرات بها حسرات وهموما » وهو كتاب ضخيم في نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة ، وقد جعله في ستة عشر فصلا : في المنازل والديار والمغاني والأطلال والربيع والدمن ^(٤) والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخسه بكلمة . ونمضى إلى زمن الممالك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية في الطبيعة والطيور والحيوان والأخلاق وسنلم به عما قليل .

ونلتقي في زمن الممالك بابن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر وسائل وشعرونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى والأطباء ، مع بعض الأحداث في زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

(١) تعفيتها : دثورها وطمسها

(٢) الحيل : الحيل والقوة

(٣) مغانيها : منازلها

(٤) الدمن : آثار الديار

وبأخرة من عصر الماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرد له كلمة .

ونتقدم إلى أيام العثمانيين ، ونلتقى ببهاء الدين العاملي الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله المخلاة ، وهي كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو في مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

(١) رسالة^(١) الغفران

رسالة طويلة في نحو مائتي صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعل بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ، وهي تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة في الجنة يلقي بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفِرَ لَهُمْ ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظارا لمصيره وقد ظل في المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظما ، وكان معه صك التوبة ففكر في دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونَظَم القصائد الطوال في مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام علي بن أبي طالب ، ورأى أبا علي الفارسي يحاوره نفر من شعراء البادية في تأويله لبعض كلامهم ، وطلب علي بن أبي طالب منه شاهدا على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسييل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويجذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقي ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من في الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطلع فيرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) انظر في رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) المعارف

(وطبعة د. بنت الشاطئ) وهي طبعة محققة (نشر دار

أشعارهم التي جمع منها المرزباني قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقي بالخطيئة والخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامراً القيس وعنزة واثني عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبي ومحاورهم جميعا . ويعود فيلتقي بآدم عليه السلام وبيعض الحيات التي ظلمت في الدنيا ، وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّبَّاز ، ومحاورهم في أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهي رحلة ابن القارح على الصراط وما شاهد من عذاب في الجحيم ومن نعيم لا يماثله نعيم في الجنة ، ويفضي ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول في الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العالمية ، إذ كتب دانتي الشاعر الإيطالي المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشُغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين .

والقسم الثاني من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبي العلاء عن الزندقة والزنادقة ، وقد استهلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه في زمن يعز فيه الوفاء : وتحدث عن حرقة الأدب وهمومها ، ودفع عن المتنبي ما يقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متأهلا كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك في عقيدة دعبل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفي مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة في زمنه ، وفي مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالهناد وبالحلول من الصوفية كالخللاج ، وأصلّى ابن الراونديّ الزنديق^(١) هو وكتبه : التاج والدامغ والقضيب والفريد والمرجان التي طعن فيها على الدين الحنيف نارا حامية من الدم والتقريع ، ومن قوله في التاج وهو أهم كتب ابن الراوندي الكافرة : لا يصلح أن يكون نعلا ، وأُفٍّ وُفٍّ ، وجورب وخُفٍّ وهما واديان بجهم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لثوبته وتمثيله جالسا للوعظ في مسجد بحلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوعه وبيع بعض علماء حلب وبتلبات العرب في الجاهلية وبيع بعض مسائل فرعية .

(١) راجع في ابن الراوندي وإلحاده والرد عليه كتاب
من تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بلوى

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صَوَّرَ فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق في حوارهِ مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وما ذكر من قصائدهم . وقد عرض في القسم الثاني للنحل الكثيرة في زمنه وما فيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بدم عنيف على كل المارقين الملحدِين ، ومع ذلك يقال إنه حمَّلَ الرسالة سخرية من الدين الحنيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذي ألفناه . أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية . علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لا يكتفى بالإغراب في الألفاظ سحجه ، بل يضيف إليها كما قلنا في غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الحناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أُملي رسالته لعهدهِ في العقد الثالث من القرن الرابع .

(ب) رسالة^(١) النسر والبلبل

هي رسالة بديعة للمهذب أبي طالب محمد بن حسان الدمشقي ، ترجم له العماد الأصمباني في خريدته . وقال إنه زاره في مدرسته العمادية التي كان يدرس بها لطلابه في ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنسر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. « ثم ذكر - فيما يبدو فاتحتها ، وهي تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملأه غبطة وفتنة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أني ملك الطيور ليس لي شيء من سحره وجماله ؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النمط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفلق^(٢) وانخرق قيص الغسق^(٣) مشهور بالقسر^(٤) ، موسوم بالنسر ، والليل قد شابت ذؤابته^(٥) ، وابيضت قته . .

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام) ١ / ٣٤٠ (٣) العسق : الليل .

وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره في (٤) القسر : القهر

كتاب المحدثون من الشعراء والوافي بالوفيات ٢ / ٣٣٠ (٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس . والاستعارة

واضحة

(٢) الفلق : الصبح

كأنما أجنحته رُكبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف .. كأنه سهم رُشِق (١) عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق في أفق السماء .. يقبض أجنحته ويبسط ، ويصعد إلى السماء ويهبط يجرح بأسنة قواده (٢) أعطاف القبول (٣) وأطراف الصبا ، ويُقدُّ الشمال بخوالف (٤) كأنها غروب (٥) الظبا ، ويفتق بخوافيه (٦) جُيوب الجنوب (٧) ، ويخرق بصدرة صدر الرياح في الهبوب .. حتى أشرف .. على روض أريض (٨) . وظلٌّ عريض ، وأنهارٍ متدفقة ، وأشجار مونقة ، وظلٌّ مشور ، ووردٌ ومشور (٩) ، ومكان بهج ، وزهر أرج .. فن وردٍ فضي الأوراق ، ذهبي الأحداق ، كافوري الصبغة ، مسكى الصيغة ، مائي الجسم ، هوائي الرسم ، حاكت (١٠) الصبا إهابه ، وخاطت الشمال أثوابه ، وفَتَّحت الجنوب أكمامه ، وحسرت (١١) الدبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر في أفق الشجر ، كأنه شهب السحر ، أو حدود الحور في القصور ، ظهرت في غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفرق ، وترنح وتعتنق ، والنسائم تحلُّ عَقْدَ أزرار الزهر... والشمس تُسفر وتنتقب ، وحاجب الغزالة (١٢) يبدو ويحتجب .. فوق [النسر] في الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها .. أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح .. وبيننا هو صاف الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحري على وَكر شجري ، يناغى النسائم بنغمة مزماره ، ورنة أوتاره .. وألحان أعذب من نقرات المزار ، ينثر درأ من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَفِ افتنانه بين أفنانه (١٣) ، ويرجع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه .. كأنها ما قيل عن مزامير آل داود وتسايحهم في الركوع والسجود .. أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى (١٤) جنوهم عن المضاجع .. ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ في المزار ، فرأى البلبل يرجع سجع ألحانه في ربع أحزانه .

(١) رشق : رمى

(٢) القوادم : الريش الطويل في مقدم الجناح

(٣) القبول : ريح الصبا الشرقية

(٤) خوالف : جمع خالفة هي الريش في مؤخر النسر

(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد - والظبا :

جمع ظبة وهي الحد للرمح ونحوه

(٦) الخوافي : الريش القصير في الجناح

(٧) الجنوب : ريح جنوبية

(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر

(٩) المشور : زهر له رائحة ذكية

(١٠) حاكت : نسجت

(١١) حسرت : كشفت . والدبور ريح تهب من الغرب

(١٢) الغزالة : الشمس .

(١٣) أفنانه : أغصانه .

(١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوهم عن

المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو فواتحها ، فلنا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جلال الأسلوب في هذه الرسالة البديعة ، فسجعا يطير عن الأفواه بخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره . ويقتن النسر صوت البلبل وجمال تلاحينه ، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما في نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهي أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، وإنسان عظيم والمعتبر منه الأصغران : القلب واللسان ، ما يكون الدر بقدر الصدف ، وشتان ما بينهما في القيمة والشرف ، ولا الآدمي كالقيل ، وبينهما بؤن في التفصيل .. وأما النعمة التي قرع سمعك سوط لذتها .. فلاني رصعت شذرها^(١) في عقد الحاني على نغم بعض الأغاني » .

ويذكر البلبل للنسر أنه كؤن ألقانه من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة لملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولّى النهار وصبغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشعل له الشموع وتصطف القيان وصفوف الحور والولدان وترجع الأنغام والألحان ، وينقضي ليلهم في لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألقانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحدو حدوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى البيت في الروض غير أنه ينام ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووُجّه إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطيل المهذب في العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدرك الأرب . ويقول العماد إن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجدل في طلب المنى دون مهلة أو ما يشبه المهلة فضلا عن الغفلة وما يشبه الغفلة .

(ج) كتاب الاعتبار^(٢)

مذكرات طريفة لأسامة بن منبّه أحد أبطالنا في الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في

(١) الشذر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) ١٩٣١ وراجع ما كتبناه عنه في كتابنا : الترجمة

الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

(٢) نشر فيليب حق هذا الكتاب في برستون سنة

شيزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنقل - كما مر في ترجمته - بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف ماشاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحملة الصليب ، وشارك - كما مر بنا - في أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفاحيا معيشة حملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين - حين تضع الحرب أوزارها - علاقات من حسن الجوار ، مما جعله ينزل بينهم في بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر في صراحة أن المودة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لا توجد عندهم غيرة على نساءهم ، ويصورهم متخلفين في الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (في أعالي الشام) كتب إلى عمى أمير شيزر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيبا نصرانيا يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع مداويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دُملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطب مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء (فكيف) يداويها ؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضره وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضره ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقة . وعادت تأكل من مأكليهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه » .

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم وما أخذوه من العادات الإسلامية الشرقية في المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتهما وحضارتهما .

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولا أى نسق تأليفى ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لاتصنع فيه ولا تكلف ، فلا سجع يداخله ولا محسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيته يصف ما شاهد وصفا نابضاً بالحياة فى لغة سهلة ، حتى لتقرب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ فى الإعراب وفى نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لا يتصل فى الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبى الفصيح ، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفرنجية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل ما يتصل به من لغة الناس لزمه . وفى الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حربية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

(د) نسيم^(١) الصبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعدُّ طرفة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقى المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عُيِّن محتسباً بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل فى طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام فى الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق فى عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفى سنة ٧٧٩ . وله تاريخ فى سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك فى دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبىء فى أيام المنصور (قلاوون) وبنيه ، وله فى السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب فى أشرف المناقب ، والمقتفى فى ذكر فضائل المصطفى .

والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريط الصفدى لنسيم الصبا بين يدي طبعته سنة ١٢٩٠ هـ .

(١) انظر فى نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١١

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصَّبا » وهو ثلاثون فصلاً أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحياناً ، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحياناً اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحياناً أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والرثاء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينهما من الفراق أو يرضيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس . ونشعر دائماً بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عبابه :

« هزَّتني رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء ثَبَج^(١) البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسَّفر مَثَواها ، وركبتُ فيها (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) .. يالها سفينةً ، على الأموال أمانة ، ذات دُسُرٍ^(٢) وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جَنَاح ، وتعتاض عن الحادى^(٣) بالملاح ، تخوض وتلعب ، وتَرِدُ^(٤) ولا تشرب ، لها قِلاع كالقلاع^(٥) ، وشرع يحجب الشُّعاع ، وسكينة وسُكَّان^(٦) ومكانة وإمكان ، وجُوجُو وفَقَّارٍ^(٧) ، وأضلاع محكمة بالقار^(٨) .. بعيدة ما بين السَّحَر والنَّحَر^(٩) ، من أحسن الجوارى^(١٠) المنشآت في البحر ، معقودٌ بنواصيها^(١١) الخير كالخيل ، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل :

-
- | | |
|--|---|
| (١) ثَبَج : وسط . | (٧) الجُوجُو : صدر السفينة . الفقار : جمع فقارة وهي الواحدة من عظام سلسلة الظهر |
| (٢) دسر : حبال : | (٨) القار : القطران |
| (٣) الحادى : سائق الإبل بالهداء وهو الغناء للإبل | (٩) السحر : الرثة ، النحر . أعلى الصدر |
| (٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه | (١٠) الجوارى : السفن |
| (٥) قلاع الأولى : شرع السفينة جمع قلع . وقلاع الثانية : جمع قلعة وهي الحصن | (١١) نواصيها : مقدماتها . وفي الخيل : الشعر في مقدمة الرأس |
| (٦) سكينة : وقار . وسكان السفينة : دثتها | |

ما رأى الناس من قصور على الما .. سواها تَسِيرُ سَيْرَ القِداحِ (١)
 كأنها وَعِلٌّ (٢) ينحطُّ من شاهق ، أو عِرْباضٌ (٣) سابق يحثُّه سائق ، أو عقرب شائله (٤) ،
 أو عُقاب صائلة (٥) .. حاكمها (٦) عادل في حكه ، عارف ينقض أمرها وبرمه (٧) ، يهتدى
 بالنجوم ، ويتبدى باسم الحى القيوم .. وبينما نحن من البحر فى قاموسه (٨) ، كتب الجؤ حروف
 الغيم فى طروسه ، وثارت ربح عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، فالت بنا الفلك (٩) واضطربت ،
 ودنت شفتها من رشف الماء واقتربت ، واستمرت تعلو على الأوتاد (١٠) ، وتهيم فى كل واد .
 وتضرم فى الكبود نار ناجر (١١) ، إلى أن (بلغت القلوب الحناجر (١٢)) .. ثم نظر إلينا من لآ
 تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية (١٣) بحمل عبيده إلى بعض الجزائر .

ونزلوا الجزيرة وتزهوا فى رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحصباؤه درر . ويمضى ابن
 حبيب فى الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يتمتع الآذان والأذهان
 بجرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين
 تستمع إليه . وبحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقررًا له : « لقد أشبه الدر فى
 انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقطر الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البكر إذا غنت على
 غصونه مطربات حمامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح
 بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتقى جوهره وأجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين
 بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائما يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

-
- | | |
|---|---|
| (١) القداح : السهام | (٩) الفلك : السفينة |
| (٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى | (١٠) الأوتاد : الجبال |
| (٣) العرباض : البعير الضخم | (١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة |
| (٤) شائلة : رافعة ذنبها | (١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت |
| (٥) صائلة : واثبة جائلة | الحلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من |
| (٦) حاكمها : ربانها | الفرع |
| (٧) برم الحبل ضد نقضه والاستعارة واضحة | (١٣) الجارية : السفينة |
| (٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجنة العظيم | |

(هـ) فاكهة^(١) الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد الدمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيها ، حتى كانت طائفة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشغالهم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلت إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علماءها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثماني محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذي أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفي حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بحلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف . وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومربنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور في نوائب تيمور ، وهي مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة - كما أسلفنا - في العربية والفارسية والتركية ، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزبان نامه » طُبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفي بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة . وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبي المحاسن حسان يرويها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد في نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه . فجمع الملك

٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه : « فاكهة الخلفاء »

(١) طبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عربشاه النجوم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوي ١٢٦/٢ وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول في ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسي الأسطوري القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجري وقتل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساساني الذي كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ماصادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثاني في وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكى ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل . والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع ختته أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وما ينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان ما يأمل ، ويأمن ما يحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على السنة الوحوش وما هو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيوار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها الطباع ، لأن المؤلف منها اقتراف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفطنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقته الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يغرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه في زرع غرسه ونصبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذي طمَّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلجُ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغى أن يُنفق فى مصالحها وحوادثها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائما لقارئه الأخلاق الحميدة والشمال الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إخلاؤها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أونابية . ولانشك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأقاصيص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعلية الناس وصعاليكهم . ولا بد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكي كليله ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألمنا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وحكمه كحكم هذا الكتاب تتردد بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة وما فيها من فضائل تكتسب ، ورذائل تجتنب ، وما أروع الحكمه التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يا بنى اكتسبوا العلم والفضل وأدخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

خاتمة

تحدثنا في هذا الجزء عن الشام وتاريخها الأدبي في عصر الدول والإمارات وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع الإمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفي عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حصة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عماد الدين زنكى الرها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حملة الصليب في حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون، ثم المماليك وسحقهم للمغول في عين جالوت مشهور. وكانت مصر والشام في أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جماعات العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع في الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظالما غاشما فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر في الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإسماعيلية نزارية وهى المسماة بالفداوية وبالحشاشين. وقد مضت الشام تُعنى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والخانقاهات والطرق الصوفية والدرأويش.

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وقد نفذت بمجرد دخولها في الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكثر في بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني وفي العناية بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ما عُنيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجرى يتألق اسم كثيرين من نحاتها أمثال الزجاجي وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسي ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة ما بلغه أبو العلاء المعري ، ونلتقى بحلقة نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقاد من أبي العلاء إلى يوسف البديعي أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدارسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبد الغنى النابلسي في بديعيتيه المشهورتين. وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها في القرن الثاني الهجري أحد القراء السبعة، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزري في القرن التاسع الهجري. وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة، كما تنشط دراسة الحديث النبوي ويتكاثر حفاظه النابهون، وبالمثل تنشط دراسة المذاهب الفقهية الكبرى، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووي الشافعي وابن تيمية الحنبلي، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعري. وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات في مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء.

وكانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام لاعلى الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والغساسنة بعدهم فحسب، بل أيضا في داخل البلاد الشامية، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين، وكانوا يدينون بدينهم المسيحي. وكان ذلك سببا قويا في أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامي، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين. ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام في الشعر، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على السنة أهلها، وطوال عصر بني أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة في نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويظل للشام نشاطها في الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيديّة إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبي تمام والبحترى. وينشط الشعر في القرن الرابع وخاصة في حلب وبلاط سيف الدولة، على نحو ما يصور ذلك الثعالبي في اليتيمة.

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العماد الأصمباني شعراء الشام في القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة. وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام في القرن السابع الهجري وما بعده. ويكثر الشعر الدوري والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أيّدمر المحيوى والمحرّار الحلبي، وبالمثل البديعيات والتعقيدات، ويروج سوق المديح رواجاً كبيراً على نحو ما نجد عند ابن الخطّاط وابن القيسراني وابن الساعاتي والشهاب محمود ومنجك. وتدبج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبي العلاء المعري ومنصور بن مسلم وابن الجزري. ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيّوس وبهاء الدين العاملي.

ونلتقي بطوائف كثيرة من الشعراء، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير في النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو مانقراً عند عبد المحسن الصوري وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملئوا الدنيا ضجيجاً بمفاخرهم وبسالتهم في سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم وما يرسمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو مانقراً عند أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . وملتقى بكثيرين من شعراء المراثي والشكوى مثل ابن سنان الحفاجي والغزى وفتيان الشاغوري ومصطفى البابي . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بحال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو في المتنزهات والأديرة على نحو مانقراً عند الوأواء الدمشقي وابن قسيم الحموي ومجير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية وما يتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبد العزيز الأنصاري ومحمد بن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغنى النابلسي . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبي العلاء بن مقاتل .

وتُعنى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة في عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو مانجد عند العماد الأصمباني الناصر الشاعر والصفدي وابن حجة الحموي وكانا أيضاً ناثرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ما أملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأدباء للشكر وللهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للغزاء وكثيراً ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغراني والغزى ، ودائماً تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولا تعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريري ، إذ تُعنى بالوصف أو بالوعظ أو المفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت تخاص في موضوعات متنوعة على نحو مانجد عند ابن الوردى . وتكثر المواعظ وفي مقدمتها خطب ابن نباتة وكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي . وتتكاثر في العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

الفهرس

صفحة	
٥	مقدمة
٥٩ - ٩	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
٩	١ - فتح العرب للشام والحقب الأولى
	(أ) فتح العرب للشام
	(ب) زمن الدولة الأموية
	(ج) زمن الولاة العباسيين
	(د) الطولونيون - القرامطة
	(هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)
	٢ - الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكى
٢٣	(نور الدين)
٢٩	٣ - الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون
٣٧	٤ - المجتمع
	٥ - التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدروز - الإسماعيلية
٤٥	النزارية أو الفداوية أو الحشاشين
٥٢	٦ - الزهد والتصوف
١١٩ - ٦٠	الفصل الثاني : الثقافة
٦٠	١ - الحركة العلمية
٧٠	٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
	(أ) علوم الأوائل
	(ب) علم الجغرافيا
٨١	٣ - علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة
٩٣	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
١١١	٥ - التاريخ
١٩٨ - ١٢٠	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
١٢٠	١ - تعرب الشام
١٢٤	٢ - كثرة الشعراء
١٢٨	٣ - شعر دوري - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات

	(أ) الشعر الدورى
	(ب) الرباعيات
	(ج) الموشحات: أيدمر المحيوى، المخار الحلبى
	(د) البديعيات
	(هـ) التعقيدات
١٤١	٤ - شعراء المديح
	ابن الخياط - ابن القيسرانى - ابن الساعاقى - الشهاب محمود - منجك
١٦٣	٥ - شعراء الفلسفة والحكمة
	أبو العلاء المعرى - منصور بن المسلم - حسين الجزرى
١٨٣	- شعراء التشيع
	كشاجم - ابن حيوس - بهاء الدين العاملى
٢٩٤-١٩٩	الفصل الرابع: طوائف من الشعراء
١٩٩	١ - شعراء الغزل
	عبدالمحسن الصورى - ابن منير - الشاب الظريف - حسن البورىنى
٢١٦	٢ - شعراء الفخر والهجاء
	أبو فراس الحمدانى - عرقله - أسامة بن منقذ - ابن عنين - ابن النحاس
٢٤٠	٣ - شعراء المراثى والشكوى
	ابن سنان الخفاجى - الغزى - فتيان الشاغورى - مصطفى البابى
٢٥٧	٤ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو
	الوأواء الدمشقى - ابن قسيم الحموى - مجير الدين بن تميم - ابن النقيب
٢٧٢	٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية
	عبدالعزیز الأنصارى - محمد بن سوار - عفيف الدين التلمسانى - عبدالغنى النابلسى
٢٩٠	٦ - شعراء شعبيون: أبو العلاء بن مقاتل
٣٤٧-٢٩٥	الفصل الخامس: النثر وكتابه
٢٩٥	١ - الرسائل الديوانية
	العماد الأصبهانى - الصفدى - ابن حجة الحموى
٣١٠	٢ - الرسائل الشخصية
	(أ) رسائل أبى العلاء
	(ب) رسائل متنوعة
٣١٨	٣ - المقامات: ابن الوردى

٣٢٥	٤ - المواعظ والابتهالات
	(أ) خطب ابن نباتة الفارقي.
	(ب) الفصول والغايات
	(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحيى الدين بن الزكي
	(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار
٣٣٤	٥ - أعمال أدبية: رسائل وغير رسائل
	(أ) رسالة الغفران
	(ب) رسالة النسر والبلبل
	(ج) كتاب الاعتبار
	(د) نسيم الصبا
	(هـ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء
٣٥٠ - ٣٤٧	خاتمة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- في الدراسات القرآنية
- سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
- العصر الجاهلي
الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
الطبعة الحادية عشرة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسي الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسي الثاني
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية-العراق-إيران
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة الثامنة ٣٤٠ صفحة
- دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر
بني أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:
طبيعته- مناهجه-أصوله-مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
- في النقد الأدبي
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية
- البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة الثامنة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

- تجديد النحو
 - الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة
 - تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً
 - مع نهج تجديده
 - الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات
- الترجمة الشخصية
 - الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
 - الرحلات
 - الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- في التراث المحقق
 - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
 - الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
 - الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة
 - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
 - الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
 - كتاب الرد على النحاة
 - الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة
 - الدرر في اختصار المغازي والسير
 - لابن عبد البر
 - الطبعة الثانية ٣٥٦
- في مجموعة نوايخ الفكر العربي
 - ابن زيدون
 - الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة
 - في مجموعة فنون الأدب العربي
 - الرثاء
 - الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
 - المقامة
 - الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات
 - النقد
 - الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

- في سلسلة «اقرأ»
 - العقد
 - الطبعة الخامسة
 - البطولة في الشعر العربي
 - الطبعة الثانية
- معنى (١)
 - الطبعة الثانية
- معنى (٢)
 - الطبعة الأولى
- الفكاهة في مصر
 - الطبعة الثانية

رقم الإيداع	١٩٩٠ / ٣٤٦٠
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-2936-9

١ / ٩٠ / ٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)